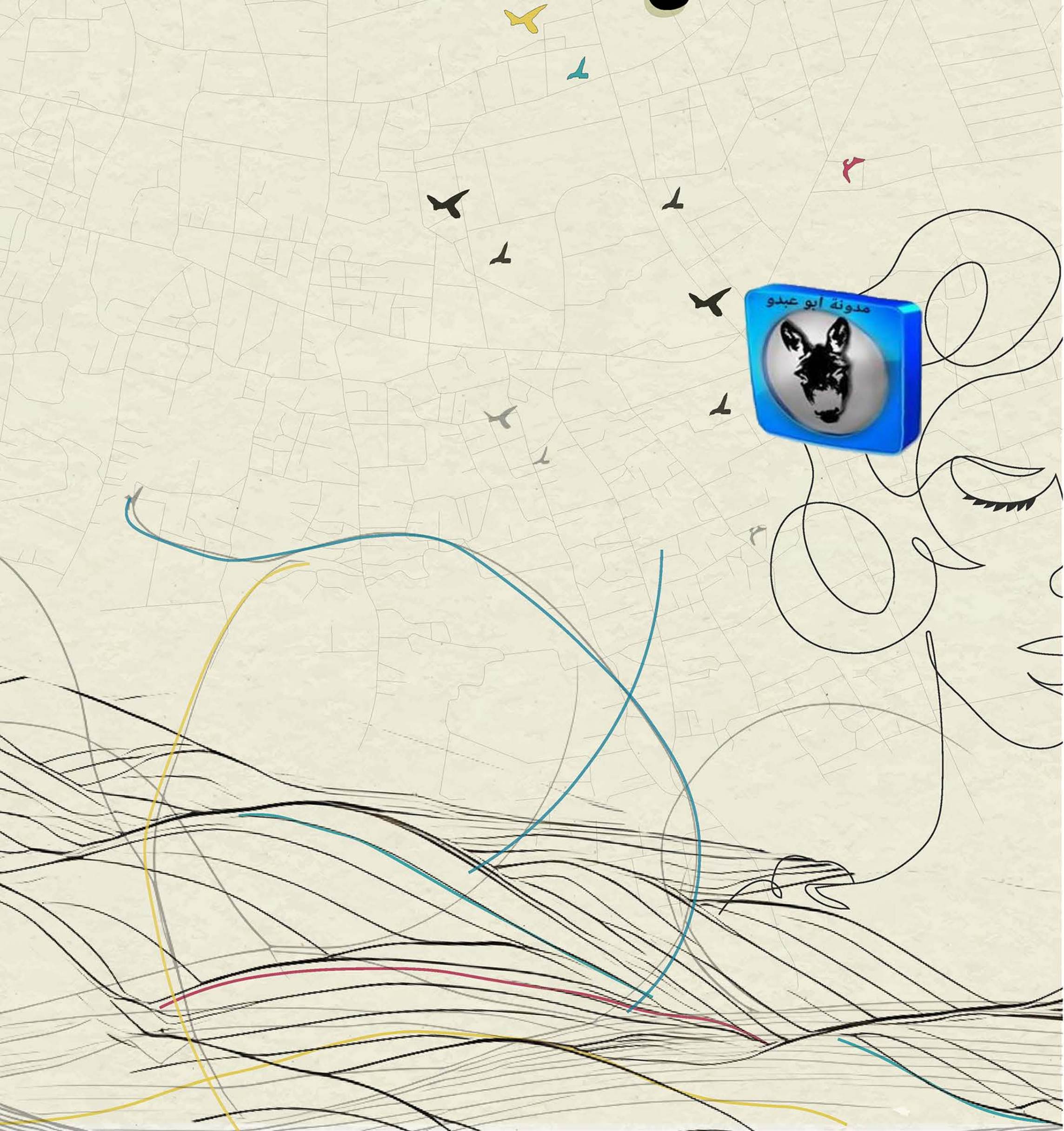
عدالة المكان



عـــدالة المـــــكان

الزبداني، مضايا، داريّا

البـاحثـة: سلمى كَريم

"لـو كانـت روحي كافيـة لأهديتها للبيت مقابـل أن يعـود كلّ شيء كما كان. الكثير مـن أصحـاب وصاحبـات البيـوت ماتـوا، أو اختفـوا، وإن عـاد منّـا مـن بقـي عـلى قيد الحياة فسنعود مكسورات ومكسورين، ومقهورات ومقهورين وفي القلوب حـزن كبير. للبيـوت أرواح ترحـل برحيـل أصحابهـا" (الدمشـقية، الزبـداني).

Women Now
For Development
النساء الآن للتنمية
PAX

الجهة الناشرة: منظمة النساء الآن لأجل التنمية

موقع المنظمة: https://women-now.org

بالشراكة مع منظمة باكس للسلام: https://paxforpeace.nl

فريق العمل:

النساء صاحبات القصص: نسرين العبدلله، فيروز، الدمشقيّة، شعاع الأمل، ياسمين شربجي، سميّة خولاني.

الباحثة الرئيسية: سلمى كَريم

إعادة كتابة القصص: سلمى كَريم

إعداد الكتاب: سلمى كَريم

الباحثة المساعدة: أمل عمّار

رسم تجريدي: نوح

تدقيق لغوي: ياسمين مرعي

تصميم وإخراج الكتاب: شيرين حايك

طباعة: مطبعة The printshop

نشكر فريق الأرشيف السوري على تزويدنا ببعض الروابط والمقالات المتعلقة ببعض الأحداث المذكورة في القصص.

تمهيد

محتـــــويـــــات الــتمـــهـــيـــــد

مقـــــــــــــدّمة

ذلـك المكان الـذي كنـا نعيـش فيـه، حفظنـا تفاصيلـه بقصـد أو بغيـر قصـد، وحفظتـا زوايـاه وشـوارعه، فصرنـا كلاً واحـداً نُعـرّف الواحـد منّـا بالآخـر، تتغـير هويّتـه إن غادرنـاه، وتتغـير هويّاتنـا بابتعادنـا عنـه. أحببنـا فيـه الكثـير مـن التفاصيـل وكرهنـا أخـرى كثـيرة، خنقنـا وجودُنـا فيـه أحيانـاً وأسـعدنا أنّنـا منـه أحيانـاً أخـرى. نعـرف معظـم مـن يقطنـوه ويعرفوننـا، نسـلّم صباحـاً عـلى البعـض ونتجنّـب البعـض الآخـر. أحببنـا فيـه بعـض الجـيران واسـتفزّنا بعضهـم الآخـر. خطّطنـا يومنـا بنـاء عـلى تفاصيلـه، شـوارعه الرّئيسـيّة والفرعيّـة ومواصلاتـه العامّـة، محلّاتـه الـتي نشـتري منهـا مسـتلزمات حياتنـا.

كـبُرت أجسـادنا فيـه وتغـيرت ملامحهـا، تلوّنـت جلودنـا فيـه، دخلـت روائـح المكان إلى وعينـا وصـارت جـزءاً مـن روائحنـا، شـكّلت أصـوات أطفالـه وسـيّاراته وضجيجـه ذاكرتنـا السـمعية، ودخلـت أصواتنـا في تشـكيلها كذلـك. كـبرت أحلامنـا فيـه وضـاع البعـض منهـا أو تغـيّرت فيـه أيضـاً. فرحنـا فيـه كثـيراً، حزنّـا، بكينـا وضحكنـا، وفي كلّ شـعور كانت جـدران البيـوت والغـرف أو المطابـخ أو الشرفـات تشـاركنا المشـاعر. شـاركناه أسرارنـا وشـاركنا أسراره، وارتسـمت عـلى جدرانـه خيالاتنـا وأحـلام يقظتنـا وواقعنـا اليومـي. نعـرف قصـة كل غـرض فيـه ونتذكـر كيـف ومـتى انتمـى إلينـا وانتمينـا إليـه.

اجتمعنـا فيـه مـع العائلـة والأصدقـاء كثـيراً، أفرحتنـا تلـك الجمعـات أحيانـاً وأغضبتنـا أو أتعبنـا

بعضها. أحببنا ذواتَنا وكرهناها في ذلك المكان، شعرنا فيه بالأمان أحياناً وبالخوف أحياناً أخرى. لكننا كنا متأكدات دائماً أنّه موجود وكان متأكداً دائماً أننا موجودات فيه.
هذا المكان بروحه وضجيجه وناسه وألوانه وروائحه لم يعد موجوداً إلّا في ذاكراتنا، أبعدنا عنه وحُرمنا منه، يناجينا وناجيه. غيّروا تفاصيله بأسلحتهم وآليّاتهم[i] قتلوا الحياة التي كانت تنبض في شوارعه وزرعوا مكانها الموت والوحدة والخوف، وعدم الأمان، والغربة، والاشتياق. إن تهجيرنا عن ذلك المكان جريمة بحقّنا وبحقّه.
قد نحقّق بعض العدالة لنا وله إن روينا عن تفاصيل حياتنا فيه وذكرياتنا ووصفنا زواياه وأجواءه ووصفنا ذواتنا فيه كي تُكتب مرويّاتنا وتنتشر ويقرأها من يشاركننا ويشاركونا ذات التجربة، ولتقرأها الأجيال القادمة من بعدنا.

هذه السّطور من وحي ما روتْه سبع وعشرون امرأة سوريّة أُجْبرن على ترك بيوتهنّ وحاراتهنّ، بما فيها من ذكريات ومشاعر وأحداث وأحاديث وأشياء وأشخاص، منذ أن بدأت الثّورة في سوريا عام ٢٠١١ وصارت حرباً ما زالت نهاياتها مفتوحة والانتهاكات المُرتكبة خلالها مستمرّة. هؤلاء النّساء مؤمنات أنّ رواية وتوثيق قصصهنّ عن ذواتهنّ وأماكنهنّ السّليبة هي إحدى أدواتهنّ لنيل قسط من العدالة غير المحققة بعد لهن ولا لتلك الأماكن.
لو أزلت نون الجماعة من النص السابق وجعلته خطاباً ذاتيّاً بصيغة المفرد، لكان صوت كلّ امرأة تهجّرت قسراً عن بيتها، حارتها، منطقتها، وناسها. هذا الإحساس هو ما تقاطعت به كلّ النساء اللواتي شاركن تجاربهنّ المريرة في التّهجير القسري في هذا الكتاب. أما التفاصيل فتختلف بين امرأة وأخرى: من هي قبل عام ٢٠١١؟ وماذا كانت تفعل، وكيف كان ارتباطها بالأماكن وأهدافها وأحلامها؟ وماذا حدث لها ولعائلتها ومجتمعها بعد ذلك؟ وأين ذهبت، وماذا فعلت وكيف شاركت في الحياة اليومية وفي الحراك، ونزحت، أو/وحوصرت، أو/وأصيبت، وتهجّرت وما تزال، وماذا حلّ ببيتها العزيز ومنطقتها وناسها، وماذا حلّ بها هي؟

---

i المقصود هنا قوّات النظام السوري والجهات الحليفة له والتي شاركت بجرائم القصف والحصار والتهجير.

وهل للمكان عدالة؟

«أنظر إلى صور البيت الآن فأحسّ أنّه قد كبُر عمريّاً، للبيوت أرواح مثلنا، تحسّ وتكبر، وتحزن. لقد تعب بيت أهلي وبدت عليه ملامح التّقدّم في العمر. كم أشتاق أن أمسك مطرقة الباب الخارجي لأطرقَ باب البيت.» (فيروز، مضايا)

قد لا ندرك الحيّز الذي يشغله المكان من هويّاتنا وكينونتنا، بقدر عدم إدراكنا لما نبثّه فيه ونصنعه من محتواه وروائحه وأصواته وملامحه إلّا بعد أن يتمّ تهجيرنا عن بعضنا البعض قسراً. ففي الحالات المألوفة للرّحيل عن المكان خارج سياق التّهجير، أو الحروب أو النفي أو الكوارث، قد يهاجر الناس بحثاً عن فرص أفضل في العمل، الدراسة أو نيل الحقوق...، وقد يعودون لزيارة أماكنهم ليجدوا أنّ بعضها قد بقي على حاله، فيما تمّ هدم بعضها الآخر أو تغييره أو إعادة هندسته، فيحزنوا لذلك ويبدؤوا البحث عن صور توثّق الذكريات فيفرحوا إن وجِدت ويحزنوا إن فُقدت لسبب ما. تصير الأماكن بتفاصيلها وحميميتها حيية الذاكرة حال فقدان الصور، وتقتصر على صاحبها أو صاحبتها فقط. يحزن بعضنا إن غبنا عن أماكن طفولتنا لفترة ما وعدنا ولم نجد تلك الشجرة التي كنا نتسلّقها أو نلعب تحت ظلّها، فنحدّث أحبابنا وأصحابنا عنها ونصفها بحبّ أو بأسى.

فما هي حالنا وحال تلك الأماكن إذا قُصفت بشتى أنواع الأسلحة، دمّر الكثير منها، ومات الكثير من أحبابنا تحت أنقاضها وتهجّرنا منها قسراً، ثمّ تغيّرت كلّ ملامحها وسكنها غيرنا، بل وبنيت مكانها بيوت غير بيوتنا وشقّت شوارع لم نعهدها، قطعت أشجارها وتغيّرت ألوانها وروائحها، ومنعنا حتى من حقّ المطالبة بامتلاكها والعودة إليها؟ ما حال صاحبات تلك البيوت والأملاك ممّن هُجّرن عنها وعن نسيجها الاجتماعي وشخصياتهنّ التي بنت جزءاً كبيراً منها تراكمات وجودهنّ في تلك الأماكن؟ ماذا يفعلنَ في أماكنهنّ الجديدة وفي حيواتهنّ التي ما زالت تحت عنوان «حالة الطوارئ» وأبعد ما تكون عن أي معنى للاستقرار

المكاني أو النفسي؟

وإن عدن يوماً إلى أماكنهنّ فماذا سيجدن؟ أين تلك الأماكن التي حملنها في أجسادهنّ وأنفاسهنّ وذاكراتهنّ؟ كيف سيقلْن أنّ تلك الأماكن لهنّ؟ أين المشهد الواقعي الذي يجسّد الوصف الذي سردنه لأطفالهنّ وأصدقائهنّ وصديقاتهنّ عن تلك الأماكن؟ هل ستختفي كأنها لم تكن؟ وكأنهنّ لم يكنّ؟

أليس من العدل أن نكتب عنها ونصفها ونرسمها ونحكي حكايتها ونسجّلها ونكررها كي لا تختفي ولا نختفي؟

«لم يعد هناك بيت ولا جدران ولا حجارة ولا شجر، تمّ نسفه من قبل قوّات النّظام عن بكرة أبيه، هو وكلّ البيوت في منطقة الخليج في داريّا باستخدام قنابل ناسفة... أمّا الأرض، فهي من حقّنا، لكنّ قوانين النّظام السّوري تلغي حقوق المعتقلين في الحفاظ على ملكيّاتهم، وهذا ما يقهرني كثيراً... لا بيت لي إن عدت إلى سوريا.» (ياسمين شربجي، داريّا)

نعم، للمكان عدالة كعدالة أصحابه وسكّانه وساكناته، للمكان روح تتغير بتغير من يعيش فيه، للمكان مشاعر تتجاوب مع مشاعر من فيه. نحن وأماكننا كلّ لا يتجزّأ، والجريمة التي ارتكبت بحقّنا وحقّه لها أبعاد أعمق من أن تلخّص بقانون أو محكمة أو قرار. لن ننتظر قانوناً دولياً أو محليّاً ليعرّف جريمة التهجير القسري وجريمة انتهاك حقوق الملكية ويحدد شروطها، لن ننتظر أحداً ليرسم خريطة تلك الأماكن وتفاصيلها وتفاصيل علاقتنا بها، سنفعل ذلك نحن الذين عشنا في تلك الأماكن ومن تهجّرنا منها وما زلنا. وبالطبع هذا لن يلخّص العدالة التي نطلبها، وهو ليس بديلاً للعدالة القضائية، بل هو تأكيد على ضرورتها وضرورة الاستمرار بالمطالبة بها.

عن الكتاب

هذا الكتاب هو الكتاب الأوّل من سلسلة كتب بعنوان «عدالة المكان» ستغطّي معظم سياقات التّهجير التي حصلت في ريف دمشق منذ عام ٢٠١١، على لسان النساء اللواتي عشن التهجير وما قبله وما بعده. يضمّ هذا الكتاب ستّ روايات ذاتيّة لنساء تهجّرن من الزبداني، مضايا وداريّا، هنّ نسرين العبدلله (الزبداني، مضايا)، فيروز (مضايا)، الدمشقيّة (الزبداني)، شعاع الأمل (الزبداني)، سميّة الخولاني (داريّا) وياسمين شربجي(داريّا). وستتضمّن الكتب اللاحقة في هذه السلسة قصص لنساء مهجّرات من مناطق عدّة في ريف دمشق: دوما، حرستا، سقبا، عربين، القابون، بويضة، يلدا، مخيم اليرموك، الحجر الأسود ومعضميّة الشام.

يهدف هذا العمل إلى التعمّق في الأبعاد الاجتماعية والعلائقيّة للخسارات والانتهاكات التي تعرّضت لها مجموعات كبيرة من النساء وعوائلهن نتيجة جريمة التهجير القسري التي مارسها عليهنّ بشكل رئيسي النظام السوري وحلفاؤه. ويتعدّى هذا العمل نهج التركيز على آثار جريمة واحدة مثل جريمة التهجير القسري، ليبيّن أن الكثيرات من النساء والرجال قد تعرّضن وتعرضوا لأكثر من جريمة وانتهاك تقاطعت أو تتالت في حياتهنّ، مخلّفة أنواع شتّى من الأذى التي يمكن أن نتخيلها. وكذلك يظهر هذا العمل أن جريمة التهجير القسري لا يمكن اختصار آثارها بفعل التهجير فقط والانتقال إلى مكان آخر، بل هي جريمة لها أبعاد سياسيّة على صعيد المكان والصعيد الجمعي والفردي، جريمة لها أبعاد وآثار تلقي بظلالها الثقيلة على حياة ضحاياها في كلّ ساعة من كلّ يوم. إنها جريمة دمّرت ذكريات جمعية وفرديّة للأشخاص ومسحت/ غيّرت تاريخاً طويلاً للمكان، إنّها جريمة حرم مرتكبوها ضحاياها من حقوق عودتهم وعودتهنّ، من حقوق ملكيتهنّ وملكيتهم للبيوت والأراضي والأشجار، من حقوق انتمائهنّ وانتمائهم لنسيج اجتماعي يشبههنّ ويعكس ثقافة سكّان وساكنات المكان، من بيئة كنّ وكانوا سيربيّن أطفالهنّ

فيها ويكبرن ويمتن فيها.
يهدف هذا العمل أيضاً إلى نزع مفهوم التجريد والترقيم والتجميع للضحايا، هنّ لسنّ أرقاماً، ولا مجموعات من الأفراد المتشابهة، فلكلّ منهنّ حكايتها وتجربتها وشخصيّتها وأحلامها وواقعها وأفراحها وآمالها وخساراتها، وإنّ فعل السرد والتذكّر هو الكفيل بأنسنة الأرقام والملفّات، بإظهار شخصيّة كل امرأة وكيف عاشت تلك الخسارات، ومن كانت قبل حدوثها، وكيف تأثّرت هي ومن حولها بها. لن تذكر التقارير ولا السياسات هذه التفاصيل، بل لن يسمح صنّاعها لنا بأخذ الوقت الكافي لسردها، وسيعتبرونها فعلاً مستنزفاً للوقت والجهد على المنصّات الدوليّة، وبالتالي ستغيب دائماً عن هذه المنصّات أبعاد ذاتية وجمعيّة وثقافية وجندرية وسياسية مهمة جداً لتحقيق عدالة تحويليّة وشاملة، ولإيجاد حلول تتناسب وواقعهنّ ومتطلباتهنّ وحقوقهنّ.

ـــــــــ تاريخ لن يسرده إلا النساء

لماذا نريد أن تسرد النساء المهجرات قسراً بشكل خاص قصصهن؟ سؤال مشروع سنجيب عليه بشكل مختصر هنا، لكنّ الإجابة الحقيقية والمعمّقة تكمن في قصصهن التي ستقرؤونها وتقرأنها بعد الانتهاء من هذا التمهيد.
قبل أن نتحدّث عن أهميّة رواية النساء وسردهنّ لقصصهنّ، خاصة في أوقات النزاعات والحروب، نودّ تسليط الضوء على غياب سرديّات وذكريات النساء من التاريخ المكتوب او المحكي في فترات السّلم أيضاً. إن هذا الغياب للذكريات التي يمكن أن ترويها النساء عن تجارب وأشخاص وأماكن يشكّل فراغاً كبيراً في الذاكرة العامّة والجمعيّة ويعكس دائماً تاريخاً ناقصاً نقرأه ونحفظه ونعتمده لفهم ما حصل. في سوريا مثالاً، كان جلّ ما قرأناه في المناهج المدرسية والكتب عن الأمجاد والبطولات والنكسات وصناعة التاريخ والسياسة والاقتصاد من الرجال أو يتمحور حولهم أو يعكس آراءهم ووجهات نظرهم عن الحياة وعن النساء، وادوارهنّ، ووجودهنّ، وأهدافهنّ.
تتخيل مهنور سارجانا Mahnoor Sargana من الباكستان عن التغيير والعدالة التي كنا

سنبلغها لو روت النساء جزءها من التاريخ:

«نحن ندرس التاريخ في المدرسة منذ السنوات الدراسية الأولى. تخيّل أنّ كتب التاريخ مليئة بالنسب الصحيحة لمساهمة المرأة في التاريخ. سوف ينمو جميع قادة المستقبل مع فكرة أنّ مساهمة المرأة في جميع جوانب المجتمع هو قاعدة. حتّى النساء أنفسهنّ، سيعدن تصوّر إمكانياتهنّ، ويحلمن أحلامًا كبيرة، مع المساهمات الرائدة المذهلة لنساء مثلهن عبر التاريخ لدعمهن. كنّا سنعمل من أجل عالم أكثر عدالة، حيث يكون هدف العدالة الجندرية في متناول أيدينا.»[ii]

ولا يقتصر غياب سرديّات النساء وكتاباتهنّ عن التاريخ فقط، ففي المجال الأدبي كانت الطرق الأدبية التي تستخدمها النساء للتعبير عن ذواتهنّ ومطالبهنّ وواقعهنّ مثل سرد الرواية الذاتية والخواطر والشهادات والمذكّرات تعتبر من قبيل الأدب الكلاسيكي التقليدي الذي يهيمن عليه الرجال بشكل كبير على أنها كتابات أدبية لا ترقى لتصنيفها كنوع أدبي معتمد.[iii] لكن المساهمات التي قدّمتها الكثيرات من الأديبات والباحثات النسويات منذ منتصف القرن الماضي ومن مختلف المناهج النسوية دفعت باتّجاه اعتبار الرواية الذاتية من النساء لتكون فرعاً أدبياً معترفاً به كباقي الأنواع الأدبية، وركزّن على أهميتها، إذ إنها تعكس الواقع بناء على الجندر وتطرح دلالات معرفية واستخدامات لمصطلحات وكلمات وتعابير تستخدمها النساء للتعبير عن ذواتهن، لا يستخدمها الرجال عند الكتابة أو الحديث عن النساء.[iv]

أمّا في حالات النزاعات والحروب، فإنّ رواية القصة الذاتية وسردها من قبل النساء يصبح

---

ii "We are taught history at school from early academic years. Imagine history books filled with the right proportion of female contribution to history. All the future leaders would grow with the idea of women contributing to all aspects of society as norm. They would reimagine their possibilities as women themselves, and dream big, with the amazing trailblazing contributions of women like them throughout history to support them. Most importantly, we would be working towards a more equal world, in which the goal of gender equality would be within our reach."

iii Kadar, M. (Ed.). (1992). Essays on Life Writing: From Genre to Critical Practice. University of Toronto Press.

iv Merrill, B. (2021). Understanding Women's Lives through Critical Feminist Perspectives. In BRILL eBooks (pp. 143–156).

أكثر أهميّة لما له في توضيح الانتهاكات وآثارها من منظور جندري، وبالتالي يساهم في أن تبنى العدالة من هذا المنظور أيضاً. كما أنّ رواية القصة الذاتية بحدّ ذاتها من قبل النساء في الحروب هي نوع من مقاومة النساء للتجاهل العام لتجاربهنّ ولشهاداتهن وحضورهنّ وأدوارهنّ في السرديات المعمّمة على المستوى السياسي التقليدي والأدبي الكتابي وحتى وسائل التواصل الاجتماعي.

فعندما تتحول الثورة من سلميّة إلى مسلّحة يغيب ذكر النساء وأدوارهنّ وأفعالهنّ في الأخبار المكتوبة والمرئية، ويصبح التركيز على الرجال الذين يقودون تلك الثورة بالسلاح. فجيش كلّه رجال يقصف الأماكن، أجهزة أمنية كلّها رجال تعتقل وتنهب، بالمقابل، فصائل مسلّحة مؤلّفة من الرجال تقود العمل الثوري وتحارب على الجبهات، وتتّخذ قرارات تتحكّم بأرواح كلّ من هم وهنّ في المكان. تغيب المساحات العامة التي كان ممكناً للنساء المشاركة فيها من مظاهرات وأعمال إغاثية وتنظيمية وإعلامية، فالمكان العام الذي أتيح خلال الثورة السلمية لبعض النساء والذي استعدنه وتواجدن فيه كمناضلات ومطالبات، ومشاركات أصبح الآن مسلّحاً، والسلاح يحمله الرجل، والحرب يقررها الرجل. حتى الضحايا ممن قتلوا أو أصيبوا أو اعتقلوا، تصبح أرقاماً مفندة بين نساء ورجال وأطفال. فأين النساء من كل ذلك؟ أين هنّ؟ ماذا يفعلن؟ في بيوتهنّ؟ في الشوارع؟ في المدارس؟ في المراكز المدنية؟ لماذا لا نسمع منهنّ أو نقرأ عنهن؟
كيف استقبلن الثورة؟ من هنّ قبل الثورة؟ ماذا فعلن خلال الثورة؟ كيف تعاملن مع الفقد والإصابة، مع الموت، والحصار والتهجير؟ ماذا قررن؟ ماذا حلّ بهنّ خلال التهجير وبعده؟ ماذا يفعلن ليستمررن بفعلهن الثوري واليومي؟ كيف أنقذن عوائلهنّ؟ ماذا حلّ بأجسادهنّ وصحتهنّ وأعصابهن؟
ما هو رأيهنّ بكل ما حدث؟ ماذا يردن وبماذا يطالبن؟ ما هي العدالة من منظورهنّ؟ ما هو الوطن؟ ما هي سوريا التي يردنها؟

سنجد في كلّ قصة أن صاحبتها كانت في كلّ مكان، في البيت، في الشارع، في الملجأ، في

المدرسة، في المركز، في المشفى، في الباص، في المخيم، في المعتقل، على الحدود وعلى الحواجز. إنهنّ في كلّ مكان وزمان، فلماذا يغبن عن الأخبار والمقالات والاجتماعات والمسارات الدولية التي تتحدث عنهن؟ لقد كوّنّ آرائهن الخاصة بالثورة وناضلن بها بطريقة متفردة لكل منهنّ، لقد أصبن وتعذّبن، عملنّ وأنقذن عائلاتهن، حوصرن وجُعن وابتكرن كل الأساليب الممكنة ليبقين على قيد الحياة وأطفالهن وعائلاتهنّ، تفاوضن مع حمَلة السلاح والمجرمين، طالبن بأولادهن وبناتهنّ في المعتقلات، اعتقلن وعانين من ويلات الاعتقال والمجتمع من بعده، أسعفن وأنقذن الكثيرين والكثيرات. عملن في كل مجال من مجالات العمل الثوري السلمي، ودعمن أحياناً من يحملون السلاح من عوائلهن ومعارفهن. تحمّلن نتائج قرارات هؤلاء الرجال، شهدن المجازر والموت والفقد، أخذن قرارات مصيريّة تخصهنّ وتخص من حولهنّ، عشن شعور السلخ عن الجذور في التهجير من مكانهنّ، ومرارة العيش في أماكن لا ينتمين لها من بعده، ومحاولات الاستمرار في الأماكن الجديدة، أو الخروج منها والتهريب وصعوباته وويلاته. انتقلن وما زلن من مكان إلى آخر، علهنّ يجدن بعض الاستقرار للاستمرار في الحياة وحماية عوائلهنّ وفي العمل الثوري والمدني الذي آمنّ به وما زلن. تعرّضت وتتعرّض الكثيرات منهنّ للعنصرية المباشرة والنظرة الدونية، ولسياسات الدول أو الأماكن المناهضة لحقوقهنّ في الوجود والعمل والصحّة والتعليم، واستمريّن وما زلن يبذلن جهداً وطاقة لا يملكنها للوصول إلى أهدافهنّ والحفاظ على كرامتهنّ وسط كل هذا الذل.

سنجد في كل قصة قوة عند كل امرأة لن يفهمها بعضنا، ستتعب أكثر منهنّ ونحن نقرأهنّ وتتفاجأ أنهنّ وقفن مرة أخرى على أقدامهنّ ونهضنّ وأكملن طريقهنّ. ستتعب قلوبنا ومشاعرنا من كمّ الهموم والتعب الذي عشنه ويعشنه، سنلتقط أنفاسنا بدلاً منهنّ، ونأخذ استراحة كي نستطيع إكمال ما يعشنه يومياً. ثم سنجد الأمل والقوة في كلماتهنّ وأفعالهنّ ومشاعرهنّ وأفكارهنّ، ممزوجاً بالطبع مع التعب والإنهاك والرغبة بالاستراحة ولو ليوم واحد.

سنقرأ وصفاً مذهلاً لأماكنهنّ وشخصياتهنّ ومجتمعاتهنّ، حساساً، ذكيّاً، سيجعلنا نعيش

المكان وتفاصيله ونبضه وحياته، ونحزن لفراقه، ونبكي على دماره. سنتعرف على عوائلهنّ وبيوتهنّ ونتابع ما حدث لكلّ منهم، سنفرح في اللمّات الحميمة ونسمع أصوات الضحكات والأحاديث، سنشمّ رائحة الأشجار والزرع في البيوت ونتذوّق الطعام. سنغضب لظلم تعرّضن له في تلك الأماكن ونحزن للخذلانات، ونتحمّس لتغيّر مسيرة حياتهن، ونكتم أنفاسنا في أوقات لا يمكن حتى تخيّلها في الحصار، المجازر، الموت، التهجير والتهريب. إنّه تاريخ لنا جميعاً في سوريا لن تسرده وتكتبه إلّا النساء...

إنّه فعل مقاومة وحياة اخترن أن يقمن به لأنهنّ يرفضن أن يختفين وتختفي أماكنهنّ.

عدالة المكان والعدالة المكانية

يختلف مفهوم «عدالة المكان» الذي نطرحه في هذا الكتاب عن مفهوم «العدالة المكانية»، لكنه يتقاطع معها في بعض النواحي. لقد تمّ طرح مصطلح العدالة المكانية وتطويره منذ القرن الماضي وفي اختصاصات متعدّدة منها الجغرافيا، العمارة وتخطيط المدن، والمجالات الحقوقية والنسوية والجيوسياسية النسوية.

في مجال الجغرافيا والتخطيط العمراني، تتضمّن العدالة المكانية من وجهة نظر المُنظّر والمعماري سوجا "**التوزيع العادل والمنصف في فضاء الموارد ذات القيمة الاجتماعية وفرص استخدامها.**»[v] يضيف إلى ذلك في كتابه «البحث عن العدالة المكانية» أن جذر العدالة المكانية "مشتقّ من موضوع علم الوجود (الأنطولوجيا)، أو الاعتقاد بأن البشر كائنات مكانيّة زمانية، وأنّ سلوكهم متشابك مع محيطهم ووقتهم المحدود.»[vi] وبشكل عام يربط سوجا بين العدالة الاجتماعية والمكان، فمثلاً ليس كلّ من يسكن مدينة أو

---

v Soja, E. (2009) The city and spatial justice. Spatial justice, n° 01 September 2009

vi Soja, Edward W., 'On the Production of Unjust Geographies', Seeking Spatial Justice (Minneapolis, MN, 2010; online edn, Minnesota Scholarship Online, 24 Aug. 2015), https://academic.oup.com/minnesota-scholarship-online/book/16308/chapter-abstract/171421584?redirectedFrom=fulltext, accessed 7 Aug. 2023.

منطقة ما يتمتّع بنفس الحقوق من مساحات خضراء وحرية الحركة ووجود خدمات عامّة. وقد فتح تعريف وعمل سوجا على العدالة المكانية الكثير من الأبواب للاختصاصات الأخرى، لتبدأ بربط المكان مع العدالة لسكّان المكان. إلاّ أن بعض الباحثات النسويّات أشرن إلى أنّ تعريف سوجا للعدالة المكانية ينقصه البعد المتعلق بالأراضي والأماكن التي تمّ استعمارها واستيطانها من قبل قوى أخرى مثل الاستعمار، والتي غيّرت وتغيّر في تاريخ المكان وأصحابه وصاحباته، وتفرض علاقات قوى جديدة على الأماكن وعلى الناس.[vii]

في مجال الجغرافيا الإنسانية، يركز الباحثون والباحثات Humanistic Geographers أكثر على دور الأماكن في خلق الهوية والمشاعر، وذلك من خلال اعتبار أنّ الأماكن تبنى اجتماعياً من قبل أفرادها ومجموعاتها التي تعيش فيها، وأنّه هناك ما يسمى بالإحساس بالمكان والانتماء له والتعلق به، وأنّه كلما زادت الفترة التي تعيشها المجموعة أو الفرد في المكان، فإنّ التعلق والانتماء له يصبح أكثر عمقاً في مشاعر وكينونة الأشخاص.[viii]

ويذهب المهتمّون والمهتمات بالتخطيط المعماري وحقوق الإنسان إلى أن تحقّق العدالة المكانية من عدمه يبدأ بالتخطيط الذي تقوم به الدول للأماكن، ومن مدى اهتمامها بالعلاقات الاجتماعية الكائنة وإدراكها لوجود فئات مهمّشة. وكمثال من سوريا وفي محاضرة ألقاها د. إياس شاهين تعليقاً على مشروع مدينة ماروتا السكني في دمشق والذي طرحته الحكومة السورية عام ٢٠١٢، يقول شاهين منتقداً فكرة المدينة الجديدة إن الوصول إلى العدالة المكانية يتطلب «**تخطّي أخطاء تتعلّق بالممارسات التخطيطية التي لا تأخذ بعين الاعتبار قيمة العلاقات الاجتماعية الموجودة في المدينة، وتقوم بفصلها**

---

vii Mishuana Goeman, Mark my Words, Native Women mapping Our Nations, 2013.

viii Azmi, F. Changing Place Attachment and Belonging among Internally Displaced Women: Implications for Durable Solutions to Displacement, 2014.

لاعتبـارات تـنظيمـيـة... والـتي بدورهـا ينـتـج عنهـا تركـيز الاهتمـام عـلى منـاطـق تـنظيمـيـة دونـاً عـن الأخـرى بحجـة القيمـة والحاجـة.»[ix]

وفي نظـرة أكـثر تقاطعيّـة تربـط بـين أثـر سـياسـات الدولـة السـيئة للتخطيـط العمـراني وبـين فئـات مهمّشـة مثـل النسـاء السـوريّات في ظـلّ الحـرب، يكتـب عمـران أبـو محسـن في مقـال مهمّ بعنـوان «أثـر المكان عـلى المـرأة في غيـاب العدالـة المكانيـة»[x] عـن أثـر غيـاب العدالـة المكانيـة المتمثّلـة بسـكن سيّء ولا يوفـر أيّـة خصـوصيـة، وغيـاب أيّـة خدمـات أسـاسـية، والحالـة الاقتصـاديـة المترديّـة عـلى صحّـة ونفسـية وأحـلام وطموحـات النسـاء مـن طبقـات فقـيرة في بعـض المنـاطـق في دمشـق. وهنـا يذهـب الكاتـب إلى الربـط بين العدالـة الاجتماعيـة والمكانيـة وتقاطعاتهـا مـع الجنـدر والطبقـة ويظهـر مـن خـلال قصـص شـخصيـة كيـف تتعامـل نسـاء مـن خلفيـات وأماكـن مختلفـة مـع غيـاب/ انعـدام العدالـة المكانيـة والاجتماعيـة والاقتصـاديـة في أوقـات الحـرب.

نعـم، مـن حـق الجميـع في أيّ مـكان كانـوا وكـنّ التمتّـع بحقـوق المـكان بشـكل متسـاوٍ، مـن سـكن وحريـة الحركـة واسـتخدام المـوارد، وهـذا بالطبـع يتقاطـع مـع مفهـوم عدالـة المـكان الـذي نكتبـه هنـا. إنمـا عدالـة المكان الـتي نطرحهـا هنـا تختلـف مـن عـدّة نـواحٍ عمّـا تـمّ طرحـه سـابقـاً. نحـن نتحـدّث عـن نسـاء أبعـدن عـن أماكنهـن قـسـراً في ظـروف قاسـيـة تتمثـل في القصـف والحصـار والخـوف مـن الملاحقـة الأمنيـة، وبالتـالي اضطـررن إلى تـرك تلـك الأماكـن والذهـاب إلى أماكـن أخـرى. إذاً هنـاك مـكان تـمّ سـلخ النـاس عنـه قـسـراً، ومـكان آخـر وضـع فيـه هـؤلاء الأشـخاص قـسـراً أيضـاً. وبين هذيـن المكانـين تتأرجـح ذكريـات وأفكـار وهويّـات الأشـخاص. فالمـكان السـابق ممنـوع عليهـم وعليهـنّ، لـم يـبـق منـه سـوى ذكرياتـه وبعـض صـوره. تغـيّرت ملامحـه أو دمّـرت كليّـاً، والأهـمّ أن أصحابـه وصاحباتـه اللـواتي شـكّلنه لـن

---

ix عـن العدالـة المكانيـة في دمشـق مقابلـة مـع «الـباحـثون الـسـوريـون «عـن المداخلـة الحثـة في مؤتمـر اعـادة الاعمـار الاول في دمشـق بحـث يعـرض مقاربـات السـكن في دمشـق وغيـاب العدالـة المكانيـة

x عمران أبو محسـن، صحفي سـوري، مسـاواة مركز المواطنة المتسـاوية، ٢٠١٨.

فيه، فإمّا بقيت تلك البيوت فارغة ومهجورة وإمّا سكنها أشخاص جدد، وإمّا اختفت كليّاً. إنها حالة وجودية ونفسية وذهنية واجتماعية لن تتكرّر، بل والأسوأ هو محاولات محو تلك الأماكن من قبل القوى المسيطرة من أرضها ومن التاريخ، ومن الوجود أصلاً، وتحويلها إلى أماكن أخرى لا ارتباط لها بماضيها.

أمّا الأشخاص في أماكنهنّ الجديدة فهم دائما الأخرون والأخريات بالنسبة لتلك المجتمعات والأماكن، فُرض المكان عليهم وعليهنّ وفرضوا هم وهنّ على المكان.
فحتى لو تحققت العدالة المكانية من وصول إلى الموارد والحصول على الحقوق، هناك صراعات الهويّة والشعور أنني لست من هذا المكان أو المجتمع. وعلى عكس ما تطرحه الكثير من الأدبيآت وحتى السياسات النيو ليبرالية حول العولمة وعدم الانتماء إلى مكان واحد، وأنه يمكن أن نعيش في أي مكان وأي مكان يمكن ان يكون بيتنا أو وطننا، لكن تنزع عن هذه المفاهيم سياقات وتفاصيل مهمّة من مثل أن الشخص هو أو هي من تستطيع فقط أن تقرر إحساسها بالمكان أو على الأقل اختياره، أو تسميته «وطني»، أو «بلدي»، أو «بيتي». وبشكل خاص فإن الفئات المستبعدة عنوة عن أماكنها والتي مرت بأقسى التجارب على الصعيد الإنساني «السلخ من الجذور» كما وصفته العديد من النساء اللواتي روين قصصهن، لا يمكن لأيّ شيء أن يجعلهنّ ينسين أو يتجاهلن أو يتجاوزن حياة كاملة أُجبرن على تركها، وأماكن كثيرة أُبعدن عنها، ليستبدلنها بانتمائهن للمكان الجديد، ولا يجب أن تكون هناك أي سياسة او أي سبب يجبرهنّ على فعل ذلك. يعبّر غايم كيبرياب Gaim Kibreab في ورقته «إعادة النظر في الحوار حول الناس، المكان، الهويّة والتهجير» عن أهمية وعمق علاقة هويّات الأشخاص بالأماكن التي انسلخوا عنها: [xi]

---

xi Kibreab, G. (1999). Revisiting the debate on people, place, identity and displacement. Journal of Refugee Studies, 12(4), 384–410.

«إن العلاقـة بـين المـكان والهويـة، ليـس مـن حيـث الارتبـاط بـين الشـعب والتربـة، في حـدّ ذاتهـا، بـل مـن حيـث أن دولـة تحتـل أرضـاً معيّنـة ولهـا الحـق في اسـتبعاد الآخريـن مـن تلـك الأرض أو الملكيـة، هـي علاقـة مهمّـة. يميـل النـاس إلى التماهـي بقـوة مـع أراضيهـم بسـبب الفرصـة الـتي يحصلـون عليهـا فيمـا يتعلّـق بحقـوق الوصـول إلى المـوارد والحمايـة بحكـم كونهـم أعضـاء أو مواطنـين في تلـك المنطقـة. يحـدّد النـاس أنفسـهم بالمناطـق الـتي تنبـع فيهـا اسـتحقاقاتهم مـن الانتمـاء إلى مجتمـع يحتـل مسـاحة ماديـة محـدّدة جغرافيـاً».[xii]

بالفعـل، هنـاك اسـتحقاقات معيّنـة مثـل الانتمـاء، المطالبـة بالحقـوق أو التغـيرات في المـكان، بنـاء وتأسـيس وامتـلاك البيـوت والأراضي كي تكـون جـزءاً مـن مسـتقبل الأطفـال والأجيـال القادمـة، أو حـتى اسـتحقاق اختيـار المقـبرة، أو مقـبرة العائلـة كي يتـمّ الدفـن فيهـا، وغيرهـا مـن الأمـور الحميمـة والمهمـةّ الـتي لا يمكـن أن تحصـل عليهـا المهجّـرات والمهجّـرون في أماكنهـنّ الجديـدة وقـد لا يحصلـن عليهـا، حـتى لـو عـدن بعـد حـين إلى أماكنهـنّ الأصليـة.

لذلـك يـأتي مفهـوم عدالـة المـكان لإظهـار عمـق جريمـة اسـتبعاد النـاس عـن أماكنهـم وأراضيهـم وتهجيرهـم أو إجبارهـم عـلى تـرك تلـك الأماكـن وعـدم السـماح لهـم بالعـودة إليهـا. كذلـك لإظهـار صعوبـة وتعقيـد مفهـوم العدالـة المتعلّـق بهـذه الجريمـة وهـذا الانتهـاك، وأهميّـة كتابـة ومشـاركة مـن تعرّضـن لهـذه الجريمـة والانتهـاك لتعريفهـنّ لتلـك العدالـة.

«أحـاول كثـيراً التّحـدّث عـن سـوريا وعـن داريّـا، ووصـف البيـت لطفـليّ، لكـنّ هـذا لا يكفـي، أحـسّ أنّهمـا إن لـم يذهبـا ويشـاهدا بعيونهمـا مـا أقولـه لهمـا عنهـا، أنّ جـزءاً مـن هويّتهمـا سـيتمّ طمسـه. والأسـوأ مـن ذلـك أنّي لا أضمـن إن عـادا أن يجـدا المـكان كمـا وصفتـه لهمـا، فهنـاك خطـط ممنهجـة لبنـاء مجمّعـات سـكنية تقـوم بتنفيذهـا شركات إيرانيّـة.» (سـميّة الخـولاني، داريّـا).

---

xii The relationship between a territory and identity, not in terms of a link between a people and a soil, as such, but rather in terms of membership of a state occupying a given territory with the right to exclude others from that territory, is significant. People tend to identify strongly with their territories because of the opportunity this offers regarding rights of access to resources and protection by virtue of being a member or citizen of that territory. People identify themselves with territories where their entitlements emanate from belonging to a society, which occupies geographically bounded physical space.

«أنا وأطفالي نكره المنازل الجديدة، لا نريد منزلاً جديداً بعد الآن..... أتمنّى لو أنّ أطفالي يستطيعون رؤية البيت الذي تربّيت أنا فيه. أريد أن أعود إلى ذلك المكان، لا شيء يمكن أن يعوّض ذلك الشّعور. أنا ممتنّة للكثير من المدن التي عشت فها بعد التّهجير، لكن كلّها روابط مؤقّتة لا تاريخ لها.» (فيروز، مضايا)

«لا أعرف إن كان يمكن أن تتحقق العدالة، أريد حضن أبي، أن أجلس معه بجانب قبر أمي لنتبادل الأحاديث معها، كما كنّا نفعل عام ٢٠١٢. كنّا نأخذ الشاي إلى قبرها مع ثلاث كؤوس، فهي كانت تحبّ الشاي أيضاً. هل يمكن أن يتحقّق ذلك؟ أريد أن تتمّ محاسبة النظام السوري على كلّ قطرة دمّ سالت وعلى كلّ دمعة بكيناها أنا وابني... هل يمكن أن يتحقق ذلك؟» (نسرين العبد لله، الزبداني)

«لا يمكن أن تتحقق العدالة بالآليات التي نعرفها. ما هي العدالة؟ حتى لو تمت محاسبة رأس النظام وكل من معه، هذا لا يعوّض يوم عذاب واحد عشناه، فقيداً خسرناه، بيتاً دُمّر وروحاً أُزهقت فيه. أريد المحاسبة لكنني لا أؤمن أو أصدق أن المحاكم الدولية قد تحقق لنا أي نوع من العدالة، قد تكون العدالة السماوية هي العدالة الحقيقية. من سيعوض لي قلقي اليومي من الخذلان أو التهجير أو الطرد؟ أنا في رعب يومي أن أستيقظ ويأتيني صاحب البيت لإخراجي وعائلتي، أو أن يتمّ ترحيلنا.»(شعاع الأمل، الزبداني)

منهجية العمل

إن رواية القصص الذاتيّة في ظروف الحرب والنزاع وإنتاجها كعمل توثيقي مكتوب، هي عملية لها خصوصيتها وحساسيتها المستقلة والمختلفة عن كتابة الأبحاث التحليلية. لذلك فكّرنا وقرأنا واستشرنا الكثيرات والكثيرين من المتخصصات والمتخصصين قبل تصميم منهجية العمل التي اتضح بعد الانتهاء من تنفيذها بأنّها كانت مناسبة وناجحة إلى حدّ كبير من حيث المنتج المعرفي هذا ومن حيث آراء النساء اللواتي صنعن هذا العمل. لذلك سنشارك هذه المنهجيّة هنا كي تستفيد ويستفيد منها من يعملن ويعملون في توثيق وإنتاج التاريخ الشفوي في ظروف الحرب والنزاع والانتهاكات. إضافة إلى ذلك سنذكر بعض الدروس المستفادة التي سنعمل على ضوئها في إنتاجاتنا القادمة التي تنتمي لنفس نوع الإنتاج المعرفي.

في البداية نريد أن نشارك لماذا اخترنا نساء من مناطق ريف دمشق ليشاركن تجاربهنّ ويسردن قصصهنّ والانتهاكات التي تعرضّن لها، بعدها سنشرح كيف تواصلنا مع النساء المشاركات وكيف بنينا منهجية العمل.

لماذا اخترنا نساء تهجّرن من مناطق في ريف دمشق؟

نريد أن ننوّه أن العمل لتسليط الضوء على جريمة التهجير القسري في سوريا وتوثيقها من قبل منظمة النساء الآن لم يبدأ مع هذا الكتاب؛ إذ قام فريق النساء الآن عام ٢٠١٩ بمشروع تجريبي بعنوان «نقاشات نسوية حول التهجير القسري» مع إحدى وعشرين امرأة سورية مهجّرة مقيمات في شمال غرب سوريا، تركيا، لبنان وأوروبا. وبناء على نتائج هذه النقاشات، والتي تضمّنت احتياجات ومطالب النساء المهجّرات المشاركات، تمّ تصميم وتنفيذ مشروع آخر عام ٢٠٢٠ بالتعاون مع منظمة باكس للسلام PAX for Peace هدفه تزويد النساء المهجّرات بالمعرفة والأدوات التي طلبنها للدفاع عن حقوقهنّ وحقوق مجتمعاتهنّ، ونتج عن هذا المشروع ورقة موقف بعنوان ورقة موقف حول «وجهات نظر

النساء السوريات المهجّرات قسراً حول أوضاعهنّ وحقوقهنّ ومطالبهنّ.»[xiii] خلال هذا المشروع شاركت العديد من النساء قصصهنّ وكيف هُجّرن وكيف أثّرت هذه الجريمة عليهنّ وعلى عوائلهنّ وعلى كل تفصيل يومي يعشنه حتى الآن، وعن مخاوفهنّ بأن تطمس هذه الأماكن وهذا التاريخ وأن يفقدن حقوقهنّ في ملكية هذه الأماكن والعودة إليها.

هذه المشاركة جعلتنا نتأكّد أكثر من أهميّة توثيق هذه القصص، كأداة لحفظ الذاكرة، ولمقاومة الظلم بالفعل، وتكريماً لتلك الحياة والأماكن التي تمّت سرقتها من أهلها بأبشع الطرق وأبعدها عن الإنسانيّة، وكطريقة خلّاقة لتحقيق جزء من عدالة النساء وأماكنهنّ.
كخطوة أولى في البدء بتوثيق سرديّات النساء المهجّرات، قمنا بعدّة اجتماعات مع المجموعة التي شاركت بالمشروع المذكور أعلاه وذلك لأخذ رأيهنّ بفكرة إنتاج سلسلة من الكتب يضمّ كلّ منها مجموعة من القصص تسردها النساء عن سياقات تهجيرهنّ.
كانت خطّتنا في البداية أن نتّبع خطّاً زمنيّاً تسلسليّاً للتهجيرات الجماعيّة التي حصلت في كل مناطق سوريا منذ عام ٢٠١١. وجدنا لاحقاً أن الموضوع أكثر تعقيداً ممّا تخيّلناه. اقترحت النساء خلال الاجتماعات أن يتضمّن كلّ كتاب منطقة واحدة في سوريا، كي تأخذ هذه المناطق ونساؤها حقّها الكامل في سرد التفاصيل وشرح السياقات، بدلاً من اتّباع خط زمني تسلسلي يضمّ سياقات تهجير من عدّة مناطق في سوريا ضمن كتاب واحد، فبرأيهنّ، الأهميّة لا تكمن في التسلسل الزمني، بل في الذاكرة الفردية والجمعية عن سياق تهجير كل منطقة.
ونظراً لحساسية هذا الموضوع ووقعه الثقيل على النساء اللواتي عشنه وما زلن يعشْن عواقبه، كان لا بدّ من أن نبدأ بالتواصل مع نساء لديهنّ معرفة جيدة بفريقنا، وثقة بالتعامل معنا. لذلك تمّ اختيار ريف دمشق لتكون المنطقة الأولى للكتاب الأول، حيث إن فريق النساء الآن عمل في بعض المناطق في الغوطة الشرقية على وجه التحديد، وذلك

xiii للاطلاع على الورقة المذكورة ومعرفة تفاصيل أكثر عن المشروع يمكن قراءة الورقة باللغتين العربية والانكليزية على موقع النساء الآن.

عن طريق إنشاء مراكز بقيت فعّالة حتى تمّ قصفها من قبل النظام السوري وحلفائه وهُجّر كامل الفريق منها عام ٢٠١٨ واستشهدت زميلتنا ملك خيّة، من فريق النساء الآن هناك.[xiv]

لكن حتى بعد أن اخترنا ريف دمشق، وبعد التواصل مع مجموعة من النساء المهجّرات من بعض المناطق فيه، وجدنا أن كل منطقة قد حدث فيها أكثر من نزوح وتهجير جمعي ولأسباب مختلفة: قصف، مداهمات، مجازر وما يسمى بـ «اتفاقيات المصالحة» أو كما سمتها وردة ياسين باتفاقيّات التهجير[xv] بين الحكومة السورية وحلفائها وبين الجماعات المسلّحة المعارضة.[xvi] وبفترات زمنية متفاوتة بدءاً من عام٢٠١٢ حتى عام ٢٠١٨. وبعد أن قامت النساء بسرد قصصهنّ، وجدنا أنّ هذه التجارب الذاتيّة المليئة بالأماكن والمشاعر والمآسي والآمال هي تأريخيات تستحق أن توزّع على أكثر من كتاب كي تأخذ كلّ منها مساحتها، ولتتمكن القارئات والقراء من فهم سياق كل منطقة قدر الإمكان، نظراً لتعقيد هذه السياقات وتداخلها وكثافة الأحداث والجرائم والانتهاكات التي تعرضت لها النساء بشكل فردي وجمعي في كل منطقة، بل في عدّة مناطق أحياناً.[xvii]
أمّا عن اختيارنا لمناطق مضايا والزبداني وداريّا في هذا الكتاب، فالأسباب كانت تقنية

---

xiv <u>قُتلت ملك خيّة (٢٩ سنة) في غارة جوية روسية في مثل هذا اليوم قبل ثلاث سنوات، كانت ملك تعمل في أحد مراكز «النساء الآن من أجل التنمية» في الجزء المحاصر من الغوطة الشرقية. ما زالت مشاعر الصدمة والحزن تتجدد في قلوبنا، ستتذكر ملك دائماً وكأنها لم تفارقنا.</u>

xv وردة الياسين، مقال بعنوان « <u>التهجير القسري، المأساة السورية الهائلة</u>»، الحركة السياسية النسوية السورية.

xvi تزايد اعتماد الحكومة السورية على الاتفاقيات المحليّة كإحدى استراتيجياتها الأساسيّة الرامية إلى إرغام المعارضة على الاستسلام. وتقدّم الحكومة وحلفاؤها هذه الاتفاقات على أنّها جهود «للمصالحة»، أمّا واقع الأمر، فهو أنّها تأتي بعد حصار مطوّل غير مشروع وعمليّات قصف، وتفضي في كلّ الأحوال، لا إلى إخلاء أعضاء الجماعات المسلحة غير الرسمية فحسب، بل إلى النزوح الجماعي للمدنيين كذلك. وقد مكّنت هذه الاتفاقيات الحكومة، من حيث الجوهر، من استعادة السيطرة على الأراضي عن طريق تجويع السكان الذين رفضوا حكمها، ثم إخراجهم منها. وقد أصبحت عمليّات إخلاء السكان بالحافلات الخضراء، التي باتت معروفة الآن، رمزاً للتجريد من الممتلكات وللهزيمة.
هذا الشرح عما يسمى بـ "اتفاقيات المصالحة» مقتطع من تقرير منظمة العفو الدولية، «<u>إمّا أن نرحل أو نموت: التهجير القسري بموجب اتفاقات «المصالحة» في سوريا</u>» ٢٠١٧.

xvii نقصد بالتهجير الجماعي هنا: اضطرار ساكنات وسكّان المناطق إلى مغادرة بيوتها وأماكنها نتيجة العنف من قصف، أو اعتقالات، أو مداهمات، أو مجازر، أو بسبب الاتفاقيات المذكورة أعلاه. قد يكون التهجير القسري عن طريق ما يسمى بـ "اتفاقيات المصالحة» هو الشكل الاوضح لمجموعات من الناس تُهجّر مع بعضها من أماكنها إلى أماكن أخرى، لكن الأسباب الأخرى للتهجير أيضاً سنطلق عليها تهجير جماعي، حتى لو كانت تشمل نزوح وتهجير فردي لشخص أو عائلة، لكن الحالة هنا جماعيّة، أي أننا نقرأ قصة امرأة واحدة عن تهجيرها بسبب القصف على سبيل المثال لكن بنفس الوقت تكون هناك عشرات أو مئات العائلات والأفراد من نفس المنطقة قد اضطرت إلى القيام بالفعل نفسه.

وتعلّق بالتواصل أكثر ممّا هي استراتيجية، فالقصص من هذه المناطق عددها ستّ، وهو عدد مقبول ويمكن التعامل معه كأول تجربة لإنتاج هذا العمل. ثمّ إنّ تفريغ قصص النساء المهجّرات من هذه المناطق قد تمّ الانتهاء منه أولاً، بعد القيام بمقابلات سرد القصص معهنّ.

من الناحية الجغرافيّة، منطقتي مضايا والزبداني على وجه الخصوص هما منطقتان متآخيتان جغرافياً، فمضايا هي بلدة وناحية سوريّة تتبع لمنطقة الزبداني في محافظة ريف دمشق، وتقع كلاهما شمال غرب دمشق على السفح الشرقي لسلسلة جبال لبنان الشرقية. وللأسف عانت الكثيرات من ساكنات وساكني هذه المناطق خلال الثورة وفي الحرب من مآسٍ كثيرة وتنقلّن ونزحن وحوصرن في هاتين المنطقتين وهُجّرن منها بشكل فردي أو جماعي، انتهاء بجريمة التهجير القسري عن طريق التبادل الذي تم بين محاصري ومحاصرات مضايا والزبداني من قبل النظام السوري وإيران في ريف دمشق ومحاصري ومحاصرات منطقتي كفريا والفوعة في ريف إدلب من قبل «هيئة تحرير الشام وأحرار الشام» ضمن «اتفاقية المدن الأربع.» عام ٢٠١٧.[xviii]

أما منطقة داريّا فهي بعيدة جغرافياً عن منطقتي مضايا والزبداني، وتقع غرب العاصمة دمشق، وقد تعرّضت ساكناتها وساكنوها لكل أنواع الظلم والقهر والجرائم، من حصار واعتقال وقتل ومجازر وقصف من قبل قوّات الحكومة السورية انتهاء بجريمة التهجير القسري عام ٢٠١٦ لمعظم من بقوا بعد الحصار في داريّا إلى الشمال السوري.[xix]

---

xviii تم في بداية شهر نيسان عام ٢٠١٧ توقيع "اتفاق المدن الأربع". بنسخته المعدّلة . بين ممثلين عن بعض فصائل المعارضة من جهة وبين إيران وذراعها، حزب الله اللبناني، من جهة أخرى وبتغطية من النظام السوري، وبمعزل عن الأمم المتحدة التي كانت حاضرةً في نسخة الاتفاق الأولى، مع التغاضي عن التزامات النظام السوري وإيران في النسخة الأولى أيضاً المتمثلة بإطلاق عدد كبير من المعتقلين (١٥٠٠ معتقل) وعدم إجبار سكان المنطقة على مغادرة منازلهم. نتج عن هذا الاتفاق تهجير قسري لعدد كبير من سكان منطقة الزبداني بما فيهم سكان مدينة الزبداني ومضايا وبقّين. وعلى الطرف الآخر، تم تهجير سكان بلدتي كفريا والفوعة الواقعتين ضمن مناطق سيطرة فصائل الجيش الحر. كما حرصت إيران، الدولة المتورطة بشكلٍ مباشر في جريمة التهجير إلى جانب النظام، على تضمين مدن وبلدات أخرى في الاتفاق في شمال البلاد وجنوبها.
هذا الشرح عن اتفاقية المدن الأربع مقتطع من مقال للرابطة السورية لكرامة المواطن بعنوان «تهجير مضايا والزبداني، الجريمة الحركة وأفق العودة»، ٢٠٢١.

xix في ٢٦ و٢٧ من شهر آب ٢٠١٦ أخلي كل السكان الباقين في مدينة داريا والذين قدّر عددهم بين ٢٥٠٠ و٤٠٠٠ شخص، بموجب اتفاق محلّي بين الحكومة السورية ولجنة تمثّل المدنيين والمقاتلين في داريا. ولم يتح الاتفاق خياراً، سواء للجماعات المسلحة أو المدنيين، غير مغادرة المدينة إلى إدلب التي تسيطر عليها المعارضة المسلحة أو إلى مركز إخلاء حكومي قرب دمشق.
هذا الشرح عن تهجير أهالي داريا مقتطع من تقرير منظمة العفو الدولية «إمّا أن نرحل أو نموت: التهجير القسري بموجب اتفاقات «المصالحة» في سوريا.» ٢٠١٧.

لقد قلقنا نحن الفريق البحثي بداية حول كيفية تبرير اختيار هذه المناطق، لكن بعد إنتاج القصص والعمل عليها، وجدنا أن الأهميّة لا تكمن أبداً في كيفية اختيار المناطق، بل بالاستمرار وإنتاج كتب تتضمن قصص النساء من كل المناطق المذكورة سابقاً، وبمنهجيّة تضمن أن تأخذ كلّ امرأة من كلّ منطقة حقّها في كتابة قصتها بكامل تفاصيلها وأن نستطيع إنتاج هذه القصص بكلّ أمانة وشغف.

التواصل مع النساء السوريّات المهجّرات

كان من المهم جداً بالنسبة لنا أن يتم التواصل مع نساء سوريات مهجّرات قسراً من مناطهنّ في ريف دمشق منذ عام ٢٠١١ لدينا معرفة سابقة بهنّ، أو لديهنّ معرفة وثقة بنا كفريق وكمنظمة، أو على الأقل لديهنّ ثقة ومعرفة بالشخصية التي تتواصل معهنّ. يعود إصرارنا على هذا الأسلوب من التواصل إلى أسباب عدّة منها، أن تشعر المشاركة بنوع من الأمان والراحة، فهي تعلم مع من تتعامل وتثق بالفريق إلى حدّ ما، وهذا يبعد عنها شعور الاغتراب الذي يتولد أحياناً عندما تأتي جهة ما لإجراء مقابلة معها دون أي معرفة سابقة لها بالجهة أو بتوجّهها أو بالكيفية التي يتم التعامل بها مع البيانات لاحقاً. إضافة إلى ذلك، ومن خبرتنا في العمل البحثي في سياق الحروب والنزاعات، فإنّ القصص الذاتية تحمل كمّاً كبيراً من التفاصيل الحساسة، المشاعر والذكريات المؤلمة التي تغني القصة وتعطيها عمقها وأهميتها، ومثل هذه التفاصيل والمشاعر لن تشاركها النساء إلّا إذا أحسسن بالثقة والراحة مع الباحثة والفريق البحثي. إنّ هذا الإحساس بالثقة والأمان خلال المشاركة هو حقّ لكل شخصية تشارك قصتها وتجربتها الذاتيّة ويجب أخذه بعين الاعتبار في كل أنواع الإنتاج المعرفي النسوي التي تعتمد على قصص الأشخاص وتجربتها كمصدر أوّلي للمعلومات. قد لا يتاح دائماً التواصل مع نساء لديهنّ معرفة بالمنظمة أو الفريق البحثي، لكن حتى في هذه الحالة، من أخلاقيات البحث وخاصة النسوي أن يتمّ شرح كل تفاصيل العمل، والقيام بورشات تمهيدية واجتماعات قبل البدء بأية طريقة من طرق العمل البحثي.

المرحلة التمهيدية

نظرا لحساسية الذاكرة التي سيتمّ سردها، وأثرها الكبير على الرّاويات، فقد عملنا على تصميم مرحلة تمهيدية تسبق رواية القصص الذاتية. بدأت هذه المرحلة بالاجتماع مع النساء لشرح تفاصيل العمل وأهدافه وفكرته، وأخذ آرائهن بكل مرحلة والعمل باقتراحاتهنّ.

المرحلة التالية كانت ورشة جماعية باسم «استدعاء الذاكرة» لمدة أربعة أيام. ولأن عدد النساء كبير، فقد قمنا بهذه الورشة ضمن مجموعتين في فترات زمنية متباعدة، كانت الأولى في شهر حزيران من عام ٢٠٢٢ والثانية في شهر آب من نفس العام. قدّمت هاتين الورشتين ويسّرتهما الدكتورة نورا أمين وهي متخصصة في هذا المجال. [xx]

اتبعت نورا في كل من الورشتين منهجية اتبعتها سابقاً في عدة ورشات مع النساء الناجيات من الحروب ومناطق الصراع، لكن مع تعديلها بما يتناسب وواقع النساء السوريات وسياقاتهنّ. وتعتمد هذه المنهجية على فكرة الإبعاد بحيث لا تبدو حالات الإفصاح كما لو كانت اعترافات داخلية وحميمة، بل تصبح تدريباً على التذكّر الذي يتمّ بدافع التمسّك بالهوية، وبدافع التعرّف على أساليب الرواية والتبادل والتضامن والدعم النفسي.

ثم اعتمدت نورا على بعض تدريبات «مسرح المقهورين» وهي تدريبات شعبيّة مبسّطة تسمح بخلق بنية للعمل الجماعي وتبعد المجموعة عن مخاطر احتكار الزمن، ومن ثَمّ تخلق حيزاً من المساواة والتوازن داخل المجموعة. ثم انتقلت بشكل ممنهج من هذه التدريبات التي تعتمد على التذكّر، مثل استعادة أول ذكرى ترتبط في أذهاننا بالأم، أو استعادة آخر ذكرى ترتبط في أذهاننا بالمكان أو البيت الذي نشأنا فيه، أو استعادة ذكرى

---

xx د. نورا أمين (مصر/المانيا)
مؤلفة وممثلة ومصممة رقص ومخرجة مسرحية، إلى جانب عملها الأكاديمي والبحثي. أسست فرقة «لاموزيكا «المسرحية المستقلة عام ٢٠٠٠ حيث أخرجت وصممت أكثر من ٥٠ عرضا مسرحيا وراقصا وموسيقيا. أسست في عام ٢٠١١ المشروع المصري لمسرح المقهورين وشبكته العربية (المغرب ولبنان والسودان). أستاذة زائرة في دراسات المسرح والرقص بجامعات المانيا، وحاصلة على الدكتوراه في السياسات الثقافية من جامعة هيلدزهايم. مؤلفة مسرحية وممثلة بفرقة «ناس المركب» الألمانية منذ عام ٢٠١٩ والتي حصلت على جائزة الدولة لأفضل مسرح لعام ٢٠١٩. صدر لها حتى الآن ٢٤ كتابا بين مجالات الرواية، الشعر، المسرح، القصة القصيرة والدراسات الثقافية والترجمة. أحدث مؤلفاتها الصادرة بالعربية والألمانية كتاب «رقص المضطهدين» عن تاريخ الرقص الشرقي في مصر من منظور نسوي يعارض تسليع الجسد واستعباده من النظام الأبوي والرأسمالي. وقد سبقه «تهجير المؤنث» بثلاث لغات، عن انتهاك الجسد الأنثوي كسلاح سياسي، وهو العمل الذي يأتي في ختام سلسلة طويلة من دراساتها النسوية وكتبها المنشورة عن حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية والثقافية. عضوة مؤسسة لمركز نشر الرقص ببرلين، مشرفة على الفرق الناشئة ببرنامج «فلاوزن» الوطني منذ عام ٢٠١٨، خبيرة ومرشدة باتحاد الفنون الادائية المستقلة ببرلين منذ عام ٢٠٢٠، عضوة مجلس أمناء المركز الألماني للمعهد الدولي للمسرح منذ عام ٢٠٢١، وعضوة في المجلس العلمي لمؤسسة باربا ڤارلي وطنجة المشهدية.

مرتبطة بأجسادنا وحركة أقدامنا عند التنقل والتهجير، إلى تدريبات تعتمد على التداعي الحر، وهي التقنية التي تستدعي ردود أفعال بشكل تلقائي وفوري، وبدون تفكير أو تخطيط لما سوف يقال.
ثمّ قامت بتدريب أكثر عمقاً وحساسية، ويعتمد على المعاني وكيف تُخلق وفقاً لتجربة وخبرة كل من المشاركات، وكانت هذه فرصة حيوية لإدراك تحوّل المعاني وفقاً لمسار رحلة وحياة كل امرأة. لم يحدث تجاوب من كل مشاركة أثناء تلك التدريبات فحسب، بل أيضاً اختلاف، وكذلك تضادّ بين الأجوبة، ما يفسح مساحة واسعة جداً لتعدّدية التجربة واستقلالية الخبرة بينهن جميعاً.

تصف نورا هذه المرحلة بكلماتها **«ساعد هذا التعدد على فهم لا محدودية تأويل تجربة التهجير والحرب، وكيف أن مجموع الاستجابات بين المشاركات توحي بالتوازن بين الألم والأمل، وأن التعبير في حدّ ذاته هو فرصة لكي نكون مرئيات، ولكي نتداوى سوياً بالإفصاح وبعناق التجربة أياً كانت أوجاعها.»**

أمّا في التعامل مع الذاكرة فقد شرحت نورا المراحل المختلفة لتدفّق الذاكرة، وطبيعة البوح الأول وما قد يستدعيه من ألم ومن إخراج الذكريات المدفونة إلى حيز التعبير الكلامي. كذلك ركزت على أنّه في مثل هذه الورشات لا مفر من مواجهة الألم لكن ذلك يحدث في سياق آمن وداخل مجموعة قادرة على الاستيعاب والدعم.
في مناطق أخرى لجأت نورا إلى طرح أهمية الحواس، لا سيما الحواس غير المركزية مثل حاسة الشم، خلافاً لمركزية حاسة البصر. وأدى ذلك الطرح إلى فتح منجم من الذكريات الشمية التي خلقت المكان ومفرداته من جديد من خلال حاسة الشم، كما طرحت جانباً مضيئاً في مواجهة الذكريات الموجعة، فهناك كثير من ذكريات روائح النباتات والبرتقال والنعناع والياسمين...إلخ، ما يخلق شاعرية موازية حتى عند التحدّث عن أماكن دمّرت بالكامل.

وهذا فعلاً ما سنقرأه في سطور كل رواية من روايات النساء، سنجدهنّ يصفن روائح الأماكن المحبّبة، أنواع الأشجار والنباتات التي كانت تزين بيوتهنّ وروائحها التي شكّلت جزءاً من ذكرياتهنّ وهوياتهنّ وعلاقتهنّ مع الأماكن والأشخاص.

تقول نورا: «**عند التعامل في التدريبات بشكل جماعي، يتشكل في الردود وعاء كبير من مجموع الكلمات والمفردات تبدو كما لو كانت تسند بعضها بعضاً وتخلق نوعاً آخر من التوازن بين الألم والمداواة. وهكذا يتبدّى فعل الحكي من خلال التدريبات كفعل منظّم ومرتّب لكنه لا يطرح سردية كاملة، وهذه تحديداً هي التقنية التي ألجأ إليها لتأجيل المواجهة مع الألم وتنمية مسار ما يسمح باحتوائه عند حدوثه في نهاية الورشة.** »

ولتوسيع رقعة وأهمية مفهوم السرد قامت نورا في اليوم الأخير من كل ورشة بقراءة قصص ذاتية لنساء ناجيات من الحرب الأهليّة في السودان عملت معهنّ في ورشة بعنوان «من الداخل إلى الخارج.» تقول نورا في وصف الهدف من هذه القراءات: « **كان الهدف هو توسيع رقعة مفهوم الحكي، والتعرف على أبعاد ومناطق للحكي خارج حدود التجربة السورية، لكن من شأنها توضيح الخيط المشترك بين النساء في الحروب. كانت أيضاً فرصة لشرح بنية الحكي، وكيف نشأت الرواية من الذاكرة وتحولت إلى إيماءة، فحركة، فتعبير كلامي، وكيف أن صاحبة القصة هي كاتبتها، أمّا دوري فهو مجرّد المساندة للتعبير ثم الكتابة وخلق بنية للرواية. كانت الحكاية مفجّراً للألم عند البعض، لكنها كانت عند البعض الآخر محفزاً للحكي وللاستمرار ولإدراك أهمية إنجاز المرحلة القادمة من الرواية والكتابة مع الباحثة سلمى.**»

انتقلت نورا في الجزء الأخير من الورشة إلى إعادة خلق وبناء المكان عبر الرواية الشخصية. ولتحقيق ذلك استخدمت نورا تقنية التداعي الحر لأسماء المدن والمناطق والأماكن وكتابتها، ثم استعادة تلك الأماكن والتلفّظ بذكرى منها أو معنى مرتبط بها. خلقن من ذاكرتهنّ خريطة للذاكرة هي بحدّ ذاتها كما تعبّر نورا «العدالة الشاعرية» للنساء.
لقد كان لهذه الورشات أثر سنصفه بالسحري على النساء المشاركات، فقد ازداد حماسهنّ

وأحسسن بأهمية ما يقمن به كفعل مقاومة وفعل عدالة خاص بهنّ، وبدأن يحضّرن لمقابلاتهنّ ويستفسرن من زميلاتهنّ ممن أجرين المقابلة عن ماهيتها كي يكنّ مستعدات لها. بالإضافة إلى ذلك فقد خلقت هذه الورشات رابطاً بينهنّ لا يقدّر بثمن، إنه رابط التجربة المشتركة والتضامن اللامتناهي والدعم الجماعي لبعضهنّ البعض. لقد واسين بعضهنّ البعض، ضحكن سوية وبكين سوية، تذكّرن أماكن يعرفنها وتبادلن ذكرياتهنّ فيها وأحسسن بالانتماء إلى مجموعة أو مجتمع صغير قد فقدنه منذ زمن نتيجة التهجير والتشرد وفقدان الدوائر الاجتماعية المساندة.

أما خلال رواية القصة فكان أثر هذه الورشات واضحاً جداً، فقد كان هناك انطلاق بالسرد، ملأته المشاعر والتفاصيل، ولم تتفاجأ المشاركات بالأسئلة عن الأماكن، ولا عن وصف البيوت والشوارع، وصف الذات في تلك الأماكن وشعورهنّ، الحديث عن الهوية والانتماء والعدالة والألم والأمل... كنّ مرتاحات في طريقة السرد على الرغم من قسوة الذكريات والأحداث لما فيها من قهر وفقد وخوف وحنين وخسارات مادية ومعنوية وإحساس بالظلم وعدم العدالة.

مشاركة رأي متخصص بالأنثروبولوجيا العمرانية من منظور نسوي

منذ بداية العمل وفي مرحلة التصميم، كنّا قد قرأنا عن الجيوسياسية النسوية والتي هي «نهج تحليلي يربط بين الأشخاص والأماكن والأحداث والقضايا التي تبدو متباينة، لإظهار الروابط عبر عمليات السلطة والقوى المختلفة والتي تُنتج عدم المساواة والاستغلال».[xxi]
وبحثنا عن متخصص أو متخصصة في هذا المجال، ولكن مع معرفة أيضاً في مجال الأماكن والتخطيط العمراني في سياقات الحروب والنزاع في سوريا أو المناطق المجاورة لها والتي تعرّضت مجموعات كثيرة وأفراد فيها لفعل التهجير وتغيّر الأماكن من قبل أطراف القوّة في النزاع. أردنا أن نفتح آفاقنا في طريقة قراءة الأماكن وتصميمها وعلاقة الناس بها واختلاف هذه العلاقات باختلاف النوع الاجتماعي، وذلك لإظهار بعد أعمق لطبيعة

xxi Massaro,V. A., & Williams, J. (2013). Feminist geopolitics. Geography Compass, 7(8), 567-577.

هذه العلاقات والانتماءات ليصبّ في فهم أكبر للسياق المجتمعي والسياسي من منظور جندري.

وبالفعل استطاع أحد المتخصصين الذي توفرت فيه كل المطالب السابقة إضافة إلى انّه تعرّض هو نفسه للتهجير من سوريا، وهو الزميل والمهندس المعماري أنس تللو،[xxii] أن يضيف لآفاق هذا العمل خبرته في قراءة الأماكن في سوريا وعلاقة النساء بها وتموضعهنّ فيها وكيف يؤثر انتهاك التهجير القسري على حياتهنّ بشكل مختلف.

يقول أنس: «للأماكن في المجتمع السوري خصوصيتها إذا ما قرأناها من مقاربة نسويّة، فلطالما اقتصرت حدود غالبية النساء السوريات على الحيز الخاص، ولم تمتدّ لتصل إلى الحيز العام كثيراً، مما جعل علاقة النساء بالحيز الخاص المرتبط بالبيت والأسرة علاقة خاصة تستحق الدراسة في عدة مراحل زمنية مختلفة وخصوصاً في فترة النزاع، والتي ساهمت في تحوّل الأدوار الجندرية للنساء وتحوّل شكل علاقتهنّ مع الحيزين الخاص والعام لتضيف فهماً أعمق عند دراسة هذه العلاقة.»

من خلال نظرته لعلاقة النساء والرجال المختلفة بالفضاءات الخاصة مثل البيت والحارة المحيطة وبالفضاءات والمساحات العامة مثل مراكز العمل والساحات والشوارع وغيرها، أكّد لنا أنس على أهمّية أن تصف النساء في روايتها الذاتيّة أماكنها وعلاقتها التفصيلية بها وشعورها تجاهها، الذي لا يجب أن يغلب عليها الفرح والحب دائماً، بل يمكن أن تغلب عليه المحدودية والقمع أيضا.

إضافة إلى ذلك أشار أنس إلى مفهوم الذاكرة اللاماديّة للأماكن، والتي تتعدى ذاكرة الجدران والغرف والطوابق والشوارع والزوايا إلى الذاكرة الحسيّة بين النساء وبينها، والتي تتشكل تراكمياً عبر الأيام، أو كما سمّتها الكثير من النساء « روح المكان»، وفي ذلك يشرح أنس هذا المفهوم فيقول:

---

xxii ناشط سوري، حاصل على شهادة الهندسة المعمارية من جامعة دمشق، وعلى شهادة ماجستير في اختصاص «سوسيو-أنثروبولوجيا المدينة» من الجامعة اللبنانية. يعمل كمدير للمناصرة والحملات في منظمة النساء الآن للتنمية، ومدرّب وممكّن متعاقد مع مؤسسة أهل للتنظيم المجتمعي، ويكتب مع موقع رصيف ٢٢. يُدرّب على مفهوم المواطنة وقضاياها، وعلى مفهوم العدالة الانتقالية وآلياتها، وعلى مهارات التنظيم المجتمعي ورواية القصة العامة.

«لا يمكن اختصار المكان بالحيز المبني فقط، فالمكان هو مساحة مادية ولامادية في آنٍ معاً. يتجلى شكلها المادي بعمارة المكان وعناصره المبنية، ويعبّر شكلها اللامادي عن الانعكاسات الرمزية للعناصر المادية على الإنسان المتواجد داخلها، انعكاسات نفسية واجتماعية تجعل تواصل الإنسان مع هذا المكان تواصلاً حسياً يتطور ويتغير في كل لحظة، ومخزون هذه التواصلات المتراكمة يُؤرشَف في ذاكرة الإنسان المتواصل مع هذا المكان، لتشكّل بوجهيها المادي واللامادي ذاكرة أصيلة للمكان في ذواكر الإنسان المتعددة. قد يتغير الشكل المادي للمكان أو يختفي أو نرحل عنه لكن انعكاساته اللامادية تبقى في ذاكرتنا لفترة طويلة. فذاكرة المكان ذاكرة صرفه، لا يمكن تصنيفها بذاكرة إيجابية أو سلبية، حزينة أو سعيدة، أو أي صفات أخرى إلا من خلال الفرد نفسه، لأن الفرد هو من تلقّى الإحساس بالمكان وخلق ذاكرته عنه في داخله وبالتالي هو من يحدد كيف كانت انعكاسات تلك الذاكرة عليه. »

الدعم والرعاية النفسية المستمرة خلال العمل

منذ مرحلة التخطيط لهذا العمل، خصصنا بنداً مالياً للدعم والرعاية النفسية للنساء المشاركات. أصبح هذا النوع من الدعم النفسي والحماية نهجاً تتبعه في منظمة النساء الآن وفي قسم الأبحاث النسوية بشكل خاص، وخاصة عندما تكون المعرفة المنتجة تعتمد على قصص وروايات وتجارب ذاتية عن انتهاكات، فقد، صدمات، أو أي تجربة لها أثر عميق في النفس الإنسانية. فمن منطلق أخلاقي، لا يمكن أن نفتح أبواباً في الذاكرة أو نَنكأ جروحاً نفسية عميقة ثم نتركها مع صاحباتها دون أي دعم أو حماية. إن معظم النساء اللواتي روين تجاربهنّ، ممن هُجّرن وحوصرن وشهدن وعشن أبشع حالات العنف في الحرب لم يتلقين أي نوع من الدعم النفسي، العلاج النفسي، أو فرصة التفريغ، بل لم يحكين مشاعرهنّ وأفكارهنّ وقصصهن لأحد، لم يسمعهنّ أحد. وحتى من تلقّت منهنّ الدعم النفسي بشكل أو بآخر، لم يكن سهلاً عليهنّ أبداً استعادة كلّ تلك التفاصيل المؤلمة عمّا حدث لهنّ منذ عام ٢٠١١ وعمّن فقدن من أحبّة، ومن أماكن ومن أحلام وآمال، وأن يتحدثن عن تعبهنّ الجسدي والنفسي، أن يعترفن بلحظات الضعف التي لم يشاركنها مع

أحد لأنهن كان عليهنّ أن يظهرن قويّات دائماً.

كانت المتخصصة في العلاج النفسي الدكتورة عزيزة محمود علي معهنّ منذ أن بدأن العمل وحتى بعد الانتهاء من القيام بمقابلات سرد القصص الذاتية.[xxiii] قاومت بعض النساء القيام بجلسات فردية مع المتخصصة في البداية، خفن من التعب الذي سيخرج، واستغربن أن يحن بما كبته عبر كلّ هذه السنوات. لكن التفاعل والتضامن الذي حدث في الجلسات الجماعية، والراحة التي شعرن بها مع المختصّة، شجّع معظم النساء بأن يقمن بجلسات فردية، بل إنّ بعضهنّ طلبن الاستمرار بها. استطاعت عزيزة أن تشكل ما يسمى بالمساحة الآمنة بشكل فعلي، وأن تسمع النساء وتدعمهنّ مستخدمة مناهجها التي طورتها عبر تجربتها الطويلة والغنية، ليس فقط في السياق السوري، بل بسياقات النزاع والحروب في بلدان كثيرة ناطقة باللغة العربية. كذلك ساهمت عزيزة بدعم الفريق البحثي الذي يقوم بالعمل البحثي ويستمع لكلّ القصص ويقرأها مراراً وتكراراً.

مشاركة النساء الرّاويات في تنقيح وتعديل قصصهن

بعد أن انتهيت من المقابلات، وانتهت زميلتي من تنضيدها بضمير المتكلمة واللغة المحكية، قمت بقراءتها وإعادة كتابتها باللغة الفصحى. لم أقم أبداً بتغيير أي شيء في المحتوى، إنّما ساهمت بترتيبه، فأحياناً تقوم الراوية بإكمال معلومة ما أو قصة ذكرتها في بداية حديثها، في النهاية. أو قد تضيف الراوية إضافة ما في نهاية المقابلة كانت قد نسيتها. حاولت أيضاً ترتيب الخط الزمني للأحداث كي يصبح أسهل للمتابعة بالنسبة للقارئات والقراء. لكن أحياناً، تركت الأحداث متداخلة زمنياً أو مكثفة كما هي، لأنها تمثل الواقع الذي كانت تعيشه المرأة، فالتسلسل الزمني السلس للأحداث ليس شيئاً متوافراً في الحياة في ظلّ الحصار، والقصف، والموت، والتهجير. وكنت أثناء القراءة والكتابة أرسم مسار النزوح والتهجير لكلّ منهن، منذ عام ٢٠١١ وحتى تاريخ المقابلة (ستجدن وتجدون

---

xxiii الدكتورة عزيزة محمود علي معالجة نفسية للأفراد والجماعات في مجال الصدمات، وداعمة نفسية اجتماعية للناجين والناجيات من الأزمات والكوارث. حاصلة على الدكتوراه من جامعة USIM ماليزيا في مجال تقنية العلاج باستخدام EMDR.

المســار في نهايــة كل قصــة).

بعد ذلك أرسلت كلاً من القصص الست إلى صاحباتها ليقرأنها ويجبن على بعض الأسئلة التي كتبتها، وللتأكيد على بعض التواريخ والأحداث المذكورة، وليضفن، أو يعدّلن، أو يحذفن ما يردن. وكم كان تجاوبهنّ لافتاً، على الرغم من انشغالهنّ اليومي، أجبن على كل الأسئلة وسألن من كانوا وكنّ معهن عندما أردن التأكد من معلومة ما، شاركن معي صوراً لبيوتهنّ التي هجّرن عنها ولأحبائهنّ ممن ماتوا أو ما زالوا في سجون النظام السوري. راجعن المسار الذي رسمته لتهجيرهنّ وعدلن عليه في حال كنت قد أغفلت شيئاً أثناء رسمه، ثم أكّدن موافقتهنّ على نشر النسخة النهائية من القصة بعد أن أدمجت التعديلات والتغيرات فيها.

إضافات بصرية تجسّد أجزاء من ذاكرة النساء

خلال العمل البحثي والمقابلات السردية، قمنا بسؤال النساء الرّاويات إذا ما كنّ يرغبن في مشاركة صور لأماكنهنّ في المناطق التي تهجّرن منها. كصور للبيت، المزرعة، النباتات، الحارة، أو أي مكان محبّب على قلوبهنّ. استقبلت بعض النساء هذا الطلب بسعادة وفرحن لقدرتهنّ على مشاركة هذه الصور التي تعني لهنّ الكثير، اعتبرن أن وضع هذه الصور في كتاب سيحيي تلك الأماكن ويجعلها موجودة في المساحات العامة، وليس فقط مخبّأة في أدراجهنّ ومخزّنة في ذاكراتهنّ. بل إن بعضهنّ كما ستجدن في الروايات الذاتية، شاركن صوراً لأحبابهنّ ممن ماتوا أو اعتقلوا، واعتبرنه فعلاً يسهم في محاولاتهنّ الدائمة لتخليد ذكراهم والمطالبة بحريّة المعتقلين والمختفين قسراً منهم. كما قامت بعض النساء بمشاركة صور عن أماكنهنّ الحالية، ليعكسن محاولاتهنّ الانتماء إلى هذه الأماكن أو ليظهرن انعكاس هويّاتهن على تفاصيلها.

لكن، ولأسباب تتعلق بالمخاطر التي قد تتعرض لها بعض النساء أو أحد من أفراد العائلة ممن بقوا في سوريا، امتنعت بعضهنّ عن مشاركة أي صورة قد تدلّ على الملكية أو عليها، خوفاً من مسائلة وملاحقة قوات أمن النظام السوري لأفراد عوائلهنّ في سوريا. بل إن

بعضهنّ طلبن عدم وصف المكان من حيث الموقع بشكل دقيق كي لا تكون هذه إشارة على أسمائهنّ الحقيقية.

قمنا أيضاً بإضافة رسومات تجريدية تجسّد بشكل إبداعي بعض المواقف والحالات التي وصفتها النساء في قصصهن وذلك لعكس عمق هذه الحالات التي قد تكون فرحاً، حزناً، خوفاً، قوّة أو إحساساً ما غير ذلك.

قام الفنان «نوح»[xxiv] الذي رسم هذه الرسومات التجريدية بقراءة كل قصة على حدة، ثم مناقشة أفكارها معنا نحن الفريق البحثي لكي نقرر سويّة ماهي المشاهد التي سيقوم برسمها. بعدها قام برسومات أولية لتلك المشاهد وشاركها معنا كي نعلّق على تفاصيلها أو لإغنائها بتفاصيل السياقات التي حدثت فيها وليعطينا وجهة نظره الفنيّة والحسيّة. وبعد الاتفاق على النسخة النهائية كان يقوم بإكمالها وتظليلها، ثم ننتقل للقصة التالية وهكذا. لقد كان لتفاعل نوح وإحساسه العالي ولفتّه أكبر الأثر في أن تتم هذه العملية بكلّ سلاسة واحترافيّة، بل كانت هذه المرحلة بكلّ تفاصيلها ذات أثر إضافي على العمل بشكل عام من خلال النقاشات العميقة التي قمنا بها، ومن خلال الآراء التي شاركها معنا نوح كفنان وكسوري، ومن خلال أعماله البديعة التي أنتجها لهذا العمل.

التحديات والمقيّدات

يبدو أن الطموح لإنتاج المعرفة في ظلّ النزاع والحرب مفروض عليه ألا يكون طموحاً طويل الأمد. احتاج هذا الكتاب إلى سنتين لإتمامه، والتي قد تكون فترة مقبولة جداً لإنتاج معرفي، لكن الظروف القاهرة التي تعيشها النساء الراويات لقصصهن، تجعلهنّ دائماً عرضة للخطر، التنقل، الانقطاع عن التواصل أو حتى الموت. وفي عمل تشاركي كهذا، فإن التواصل مع النساء يجب أن يكون مستمراً حتى الانتهاء منه، وما بعد الانتهاء من إنتاجه، في فعاليات مثل الحملات واللقاءات التي تهدف لترويج العمل ومحتواه. لذلك كان

---

xxiv نوح، مصمم ومدير فني مع شغف كبير للسرد والقصص. يعبّر عن هذه القصص بأساليب مختلفة سواء كرسوم تجريدية أو تقنية، من خلال أفلام متحركة أو تصاميم وصور مستخدماً اساليب فنية أو تقنية تساعده في إيصال القصة للمتلقي/ المتلقيّة بسهولة.

التحدي الأكبر هو قدرة الفريق البحثي على الاستمرار في التواصل مع النساء السوريات الأساسيات في هذا العمل.
سنذكر بعض الأمثلة عن صعوبة العمل البحثي في ظروف النزاع والتهجير وقسوة الحياة على النساء فيها، وخاصة على المدى الطويل؛ اثنتا عشر امراة ممن سردن قصصهن قد عشن وشهدن الزلزال الذي ضرب شمال سوريا وجنوب تركيا في شهر شباط من عام ٢٠٢٣، تركن منازلهنّ المستأجرة فقد تصدّع بعضها، وتدمّر بعضها الآخر، عاشت بعضهن في الخيم لشهور ريثما يجدن مكاناً آخر ينتقلن إليه، أو ريثما يستطعن وعوائلهنّ إعادة ترميم المنزل الذ يحتاج الكثير من المال ليعود صالحاً للسكن. فقدنا التواصل في الأسبوعين الأولين بعد الزلزال مع نسرين العبدلله من الزبداني والتي تهجّرت إلى الشمال السوري، تكثّفت الأفكار السوداء حول إمكانية أن تكون قد فارقت الحياة، إلى أن بحثت عنها إحدى الزميلات واطمأنّينا عنها. تهدّم منزلها وسكنت في خيمة، وكانت في حالة نفسيّة صعبة عندما تواصلنا معها. كان من غير الأخلاقي أن نطلب منها مراجعة قصة تهجيرها وهي تنفض غبار الزلزال عنها بيدين متعبتين.

فيروز التي تعيش في تركيا الآن بعد أن تهجّرت من مضايا إلى الشمال السوري ثم انتقلت إلى تركيا، اضطرت إلى إخلاء منزلها، وعندما عادت إليه طلب صاحب المنزل منها ومن عائلتها المغادرة، فاستمرت لمدة شهرين أو أكثر في البحث عن منزل آخر.
لحسن الحظ، استطعنا من خلال استجابة منظمة النساء الآن المادية والنفسية لتخفيف آثار الزلزال على الفريق والمشاركات تأمين بعض الدعم المادي والقيام بجلسات دعم جماعي للمشاركات ممن تعرضن للزلزال في تلك المناطق، استمرت لأشهر بعد هذه الكارثة.

وكمثال آخر على التحدّيات، فقد اضطررنا إلى القيام بجميع المقابلات السردية في نفس العام، ربما هي فكرة جيدة من ناحية أن القصص لدينا وسنقوم بنشرها بشكل تتابعي، لكن ماذا لو فقدنا التواصل مع صاحبات القصص في السنوات القادمة؟ كيف سيراجعن

قصصهن ويعدّلن عليها ويؤكدن موافقتهنّ على نشرها بنسختها النهائية؟ وهذا هو السؤال نفسه الذي طرحناه عندما فكرنا بمقابلة نساء مهجّرات من منطقة أو منطقتين أو ثلاث كل عام. ماذا لو لم نستطع التواصل مع باقي النساء في السنوات القادمة؟ ماذا لو أصابهنّ سوء أو فقدنا نحن التواصل معهنّ لسبب ما؟ أسئلة لا نستطيع الإجابة عليها طالما كلّنا كسوريات وسوريين مهجّرات في شتّى البلاد ونعيش حالة عدم استقرار وخوف وقلق من المجهول لا نهاية لها حتى الآن.

أمّا عن المقيّدات، فقد كان مؤلماً أن نقوم بالمقابلات مع النساء في سوريا وتركيا وأوروبا عن طريق إحدى تطبيقات الإنترنت. كان موجعاً ألا نستطيع رؤية دموعنا أو ألا نستطيع أن نضمّ بعضنا البعض، ألا نحتسي القهوة مع بعض خلال سرد القصة وألّا نضحك سويّة. استطعنا فقط القيام بمقابلات حيّة مع النساء في لبنان، تعرّفنا على الدمشقية وشعاع الأمل وعلى ثماني نساء ستكتب قصصهنّ في الكتب اللاحقة، وفرحنا كثيراً لهذه اللقاءات وبأننا لا نتحدث مع بعضنا البعض من خلف الشاشات. ومن المؤكد أن التواصل الفيزيائي خلال المقابلة السردية ليس بكافٍ أيضاً، فلو كنّا جميعاً في مكان واحد، نلتقي كلّ فترة ونطور أفكارنا ونتعرف أكثر على بعضنا البعض، ولدينا الوقت الكافي للاستماع والكتابة والتطوير لاختلف شكل المعرفة المنتجة بالتأكيد.
وبالطبع كل التحديّات والمحدودات المشار إليها هي دروس مستفادة من هذه التجربة، ستساعدنا كثيراً عند تصميم منهجيّة لعمل سردي أو إنتاج معرفي لاحق مع نساء أو أفراد ما زلن يعشن في سياقات غير مستقرّة وقاسية عليهنّ من كلّ النواحي.

ما الذي يمكن أن نبنيه على هذا العمل؟

إنّ لهذا الكتاب بحدّ ذاته قيمته الخاصة على المستوى المعرفي النسوي السوري، والحقوقي، والسياسي. إنّه توثيق لأحداث وقعت في حيوات نساء سوريّات هُجّرن وتعرّضن لثلّة من الانتهاكات في فترات زمنيّة معيّنة لن يسجّلها أحد غيرهنّ. إنّه تاريخ حقيقي وبديل عمّا تكتبه أنامل الطغاة وتقوله أفواههم لما حدث لمجموعات وأفراد وخاصة النساء في مناطق معينة في سوريا، وشرح لسياقاته على ألسنة ومن ذواكر من عشنها. بالطبع لا يمكن أن تكون هذه القصص الذاتيّة وحدها كافية للتوثيق وللمحاسبة ولتحقيق العدالة، بل يجب أن يتمّ إنتاج الكثير من أمثالها وبطرق مختلفة، مكتوبة، مرويّة، مسموعة ومصورة.

محتوى هذا الكتاب والكتب اللاحقة هي مواد غنيّة ومهمة للتأريخ الشفهي والمكتوب، المجالات الحقوقية والدراسات الجندريّة والعمرانيّة والجيوسياسية النسويّة، والعدالة من منظور صاحبات القضيّة. في كلّ قصّة تبرز العديد من المحاور والمواضيع التي تستحق التعمّق بها وتحليلها. سنذكر بعضها هنا ونترك المجال للقارئات والقرّاء لاستنباط غيرها. تبرز في كل قصّة وبطريقة مختلفة، علاقة المرأة بمكانها وتموضعها به واختلاف هذه العلاقة باختلاف المكان والظروف، وينعكس كلّ هذا على شعور المرأة بالانتماء إلى المكان والمجتمع، على هويّاتها المتغيّرة، المختارة والمفروضة أحياناً. كما يلقي الضوء على كيفيّة تفاعلها وتأقلمها أو عدمه مع ظروفها المكانيّة المتغيّرة، وتغيّر أدوارها أو تغييرها هي لتلك الأدوار التي تقوم بها على صعيد العائلة، الأهل، المجتمع وعلى الصعيد الذاتي.

ومن ناحية قانونية وجيوسياسية، تتحدث معظم النساء عن انتهاك حقوقهنّ وعوائلهنّ في استرجاع ملكيّاتهنّ التي اضطررن لهجرها، وعن محاولاتهنّ غير المثمرة حتى الآن في استرجاع بعضها أو على الأقل تثبيت ملكيتها. تكلّمن عن تدمير الحكومة السوريّة لبعضها بشكل كامل، أو/وعدم قدرتهنّ على المطالبة بها بسبب الاختفاء القسري والاعتقال للمالك الذي هو الأب أو الزوج عادة، وعن قوانين الحكومة السورية التي تعيق أي محاولة لهنّ لإثبات هذه الملكية والاستفادة منها بشكل مادي أو حتى لا مادي. أو التردد والقلق في مجرد السؤال عنها من قبل أحد الأقارب خوفاً من اعتقاله من قبل قوّات النظام السوري.

وغيرها من التعقيدات الكثيرة التي تلقي بظلالها بشكل خاص عليهنّ كنساء مهجّرات يحاولن الصمود والنهوض كلّ يوم على أمل الرجوع إلى تلك الأماكن يوماً ما. ومن ناحية أخرى تتحدّث النساء عن تغيّر مناطقهنّ الأصلية من ناحية سكّانها الجدد وتغيّير العلاقات الاجتماعية وتغيّر شكل المكان بكامله، ويتساءلن عن شكل العودة التي ستحصل إلى تلك المناطق ويشرن إلى تغيّر علاقات القوة من ناحية الناس والعمران وتأثيره عليهنّ وعلى أطفالهنّ وعوائلهنّ.

تظهر كل قصة شخصية راويتها وواقعها قبل وبعد الثورة والحرب، ممّا يعطينا فكرة مهمّة عن ظروف النساء وعلاقات القوّة المبنية في المجتمع على أساس نوعها الاجتماعي كامرأة قبل التغيير الذي حصل في ٢٠١١. عن كيفيّة تحكّم العادات بأحلام بعضهنّ ومستقبلهنّ العلمي، وكيف تجاوزنها أو خضعن لها، وكيف أثّرت فيما بعد على حيواتهنّ وسعيهن لتحقيق ذواتهنّ والنهوض بأسرهنّ بعد الحرب. بمعنى آخر، تضيء قصص النساء على جذور مجتمعية وقانونية وسياسية للتحديات التي تعاني منها النساء السوريات قبل عام ٢٠١١ وكيف يتضخّم أثر هذه الظروف التميزية في حالات النزاع والحروب ويؤثر على الكثير من مساعيهنّ وحقوقهنّ وعدالتهنّ.

هناك مواضيع ومحاور كثيرة يمكن العمل عليها، وإن سردناها جميعها فقد نحتاج إلى كتاب آخر لذلك، سنكتفي بما ذكرناه وسنترك الباقي للمهتمات والمهتمين، مع رغبتنا بالتعاون الكامل لكتابة أية أوراق بحثيّة أو مقالات، أو حتى لتوظيف هذه القصص ومشاركة صاحباتها في أفعال المناصرة حول حقوقهنّ وعدالتهنّ وعدالة اماكنهنّ.

شرح لبعض المفردات التي تكررت في أكثر من قصّة

كلمة الشباب: تذكر النساء الرّاويات كلمة الشباب في أكثر من سياق خلال سردهنّ لتجاربهنّ. لهذه الكلمة دلالة في سياق الثورة السورية وخاصة في المناطق الثائرة مختلفة عن الدلالة المتعارف عليها، حيث تدلّ أحيانا على شباب البلد الذين حملوا السلاح ودافعوا عنها، أو قد تكون بديل لكلمة «ثوّار» أو من انضمّوا إلى الجيش الحر.

جيش النظام، قوّات النظام: تدل هذه المصطلحات على عناصر الجيش التابع للنظام السوري، أو على عناصر الأمن، أو أي فئة أخرى تحمل السلاح وتتبع للنظام السوري.

الجيش الحر: تمّ إطلاق هذا الاسم في بدايات تسلّح الثورة في سوريا على الذين انشقوا عن جيش النظام من عساكر وضبّاط، ثم انضمّ إليهم الكثير من الرجال والشباب من الذين حملوا السلاح.

الباصات الخضر (الحافلات الخضراء اللون): كانت وظيفتها الأساسية كحافلات نقل عامة، **«لكن شهد يوم الثالث والعشرين من أيار (مايو) ٢٠١٤ تحولاً جديداً في عمل الحافلات الخضراء، عندما استخدمها النظام للمرة الأولى في تهجير السكان والمقاتلين المحاصرين من أحياء حمص القديمة إلى ريف حمص الشمالي، بعدما فرض عليهم اتفاق تهجير برعاية الأمم المتحدة. منذ ذلك الوقت، تمّ اعتماد تلك الحافلات كراعٍ رسمي لجميع عمليات التهجير التي حدثت لاحقاً، وبقيت رمزاً لهذا التهجير حتى عندما استخدمت أنواع أخرى من الحافلات فيه. »**[xxv]

XXV هاني العبدلله، مقال بعنوان «سيرة الباص الأخضر»، الجمهورية، ٢٠٢١.

حاجز طيّار: هو حاجز أمني أو عسكري تشكّله مجموعة من العناصر في مكان ما بشكل فجائي ومؤقت بهدف اعتقال بعض السكّان أو لزيادة التدقيق الأمني في منطقة ما لسبب ما.

أرض الديار: مصطلح يُطلقه الكثير من السوريات والسوريين على الساحة الداخلية أو المساحة الموجودة في البيت «الدار» وهي موجودة بشكل خاص في تصميم معظم البيوت العربية القديمة أو البيوت الريفية.

الكشك: الكشك السوري هيَ أكلة تراثيّة قديمة مصنوعة من خليط اللّبن والبرغل أو اللّبن والأرز، بحيث يتم ترك هذا الخليط تحتَ أشعة الشمس ليجف ثُمَّ يُطحن ليُصبح كالبودرة.

المكدوس: يعتبر من أهم الأكلات الشعبية التراثية في بلاد الشام عامة وفي سوريا خاصة، وتحظى باهتمام كبير من قبل جميع الأسر السورية الغنية والفقيرة على حد سواء. وهو حبات باذنجان صغيرة الحجم، محشوة بالفليفلة الحمراء الحادة والباردة، وبالجوز والثوم والملح، يتم تنضيدها بأوعية زجاجية مختلفة الأحجام، وتغمر بالزيت البلدي للحفاظ عليها من الفساد لكي تدوم لأشهر عديدة».

فلاشة: كلمة متداولة باللهجة العامية وتعني الذاكرة الوميضية (بالإنجليزية: Flash memory) أو كما تسمى أحيانا ذاكرة فلاش، هي ذاكرة حاسوب مستدامة، قابلة للمسح وإعادة البرمجة بشكل رقمي.

القبيسيّات: «يتفق جميع من يتحدث في هذا الموضوع على أن «القبيسيات» وجدن في أوائل أو منتصف سبعينيات القرن الماضي، ولكن دون تحديد سنة بعينها لهذه النشأة. كما يتفق الجميع في أن تسمية الجماعة بهذا الاسم يعود إلى مؤسسة هذه الجماعة

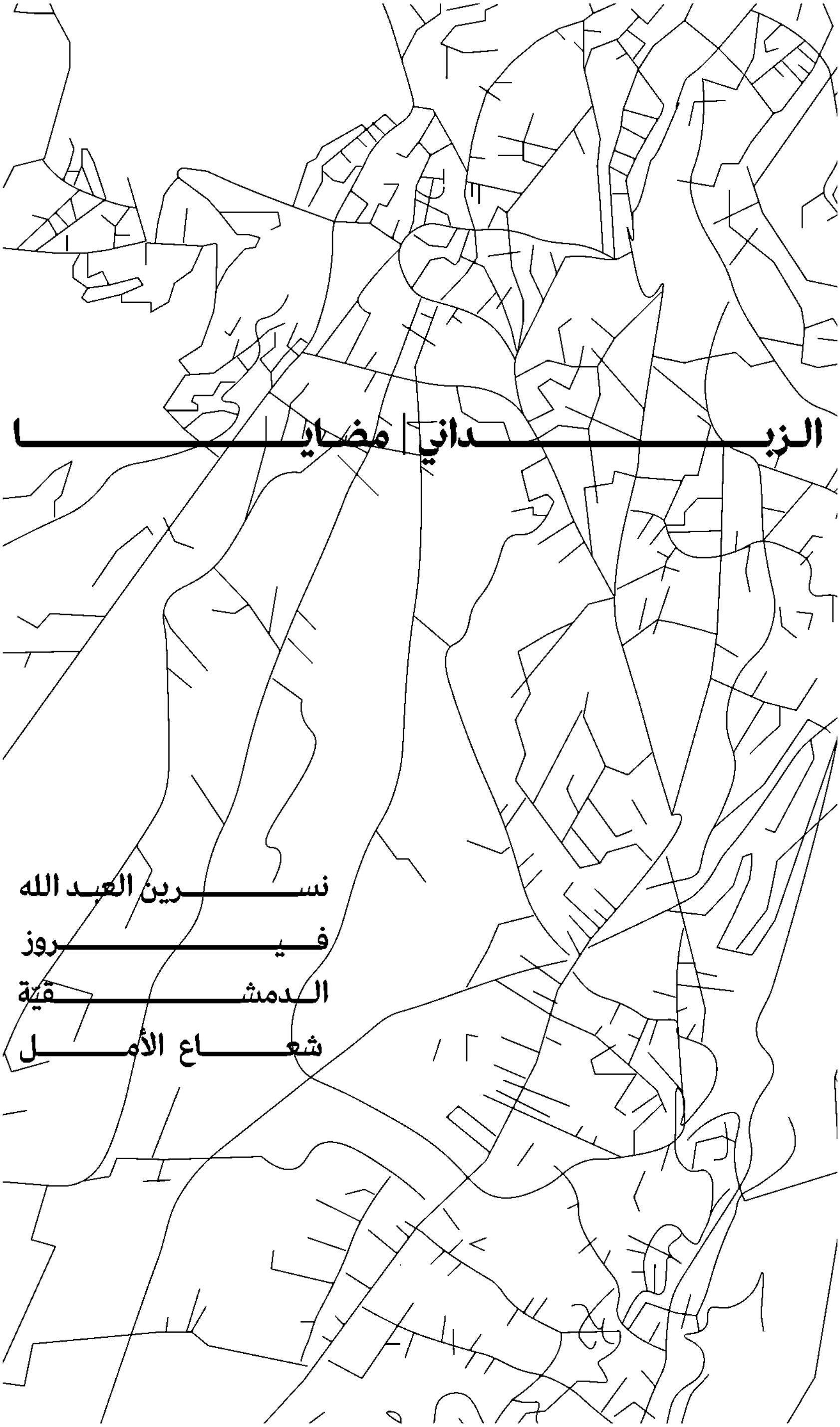
النسـائية وهـي المدرسـة مـنيرة القبيـسي الـتي تخرجـت مـن «جامعـة دمشـق، كليـة العلـوم الطبيعيـة، وعملـت بعدهـا كمدرسـة لمـادة العلـوم في إحـدى مـدارس دمشـق، حيـث عُرفـت بشـخصيتها الكاريزميـة، وذكائهـا، وقدرتهـا عـلى التأثـير بمـن حولهـا، وجذبهـم للاسـتماع لأفكارهـا. ولـم تكتـفِ مـنيرة القبيـسي بدراسـتها للعلـوم، بـل قـررت متابعـة دراسـتها بكليـة الشريعـة الإسـلامية في جامعـة دمشـق»؛وأخذت القبيـسي عقيدتهـا الدينيـة، كمـا والدهـا وعمهـا مـن قبلهـا، مـن الشـيخ أحمـد كفتـارو، مفـتي سـوريا سـابقًا، وشـيخ الطريقـة الصوفيـة النقشـبندية في دمشـق.

هـذا الـشرح مقتطـع مـن مقـال نُـشر عـلى موقـع جدليـة وكتبتـه سوسـن زكـزك بعنـوان «القبيسـيّات في السّـياق المجتمعـي السـوري». [xxvi]

---

xxvi سوسن زكزك، مقال بعنوان «القبيسيات في السياق المجتمعي السوري (٢/١)»، مجلّة جدليّة.

الزبداني | مضايا



نسرين العبد الله

فيروز

الدمشقية

شعاع الأمل

أريد أن يكون اسمي نسرين العبدلله ...

تاريخ سرد القصة: تموز/يوليو ٢٠٢٢

أنـا والـمكان عندمـا كنّـا سـويـــــــــة
أنـــا فــــــي تــلــك الأمـــاكـــــــــــــن
أنــا وأمـــــي والأحــداث عــــــــام ٢٠١١
خرجـت مـن بيتـي فـي الثاني من رمضـان ٢٠١٢
ولـم أعـد إليه حتـــى الآن
كـــل شــيء عــاد إلـــيّ، إلا هـــــــــــو...
صراعـات في داخـلي، هوّيـــات مفروضـــــة،
وهوّيـات اختـرتها أنـــا
خرجت من أرضي غصباً وكانت الوجهة مضايا
حصــار مضايـــا... بانتظـار العصـا السحرية
يـوم التهجيـــر...الاقتـــــلاع من الجـــذور
رحــلة اللاعــودة.. والوصـــــــــــــول
ماذا حـلّ ببيتـي في الزبدانـي وما هـي العدالـة؟
مســـار تهجيـر نســـريـن
حتّى تاريخ رواية قصّتها

أنا والمكان عندما كنّا سوية

عمري ثمانٌ وثلاثون سنة، أنا مُدرّسة، أمّ لطفلين، زوجة شهيد ومتزوّجة حالياً من رجل آخر... أنا من الزبداني وأعيش الآن في عفرين.
أنا من منطقة في الزبداني اسمها «قلعة الزهراء»، وهي حارة أو مجموعة من الأزقّة مثل باقي الحارات في الزبداني؛ حيث تُسمّى الأزقة والحارات على أسماء عائلات كانت معروفة، أو نسميها نحن كما نشاء. أمّي كانت تقول مثلاً: «زقاق ابنتي»، أي الزقاق الذي أعيش فيه أنا... بهذه البساطة!

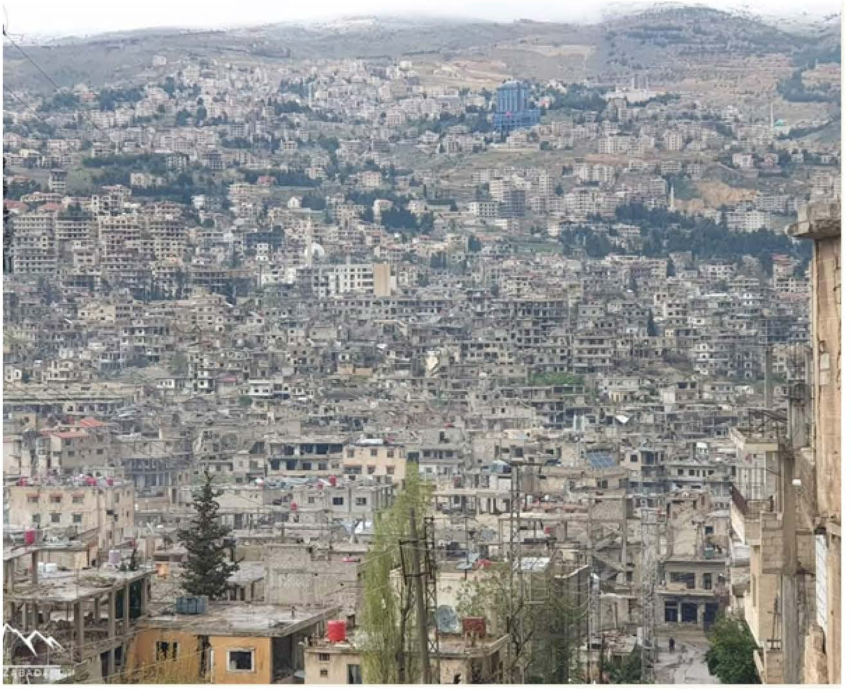
هناك، بنينا أنا وزوجي الراحل بيتنا الجميل الدافئ سوّيّة، خطوة تلو الأخرى. كنّا نعمل كلانا، وكلّما تجمّع لدينا مال زائد أكملنا البيت، حتى انتهينا من بنائه وكسوته سوّيّة. إنّه بيت صغير، في البداية كان عبارة عن غرفتين مع مطبخ وحمّام، لاحقاً بنينا غرفة ثالثة عندما ولد ابني الأكبر. كنّا نحاول زيادة بعض الأشياء التي قد تجعل منه مكاناً أكثر دفئاً وسعادة. حاولنا أن نُضيف له حديقة صغيرة وشرفة وأن نزيّنها بدالية عنب. في الحقيقة كنت أحلم أن يصبح مثل بيت أهلي...

أعزّ شيء على قلبي في ذلك البيت هو قبضة الباب «مسكة الباب» [بكاء]... اشتقت إليها كثيراً، كنت أمسكها بيدي لأدخل إلى بيتي... الغرفة الأولى هي غرفة الضّيوف، فيها سجّادة وطقم من الأرائك اشتراه لي أهلي، وفيها شبّاك يُطلّ على حارة خلفيّة مليئة بالشّجر، وفي الأفق جبل كبير. كنت أقضي سابقاً معظم وقتي عند ذلك الشّبّاك، عندما كنت أنتهي من عملي، أجلس هناك، أراقب ابني وهو يلعب. حتّى أمّي المرحومة كانت تحبّ أن تجلس هناك عندما كانت تزورني. كانت لديّ أيضاً غرفة نوم، أووه صغيرة ودافئة [ضحك].. لم أكن أدخل إليها كثيراً، فعلاً هي غرفة للنّوم فقط، عندما يزورني الصّباح أخرج منها إلى الحياة. أمّا مطبخي.. آآآه كم كنت أحبّ ذلك المطبخ! كم اشتريت له أغراضاً بهاتين اليدين!

فيه شبّاك كبير يُطلّ على الحارة الأساسيّة، حيث بيت أهل زوجي وباقي جيراني مقابل بيتي. كانت فترة الطّبخ اليوميّة في ذلك المطبخ هي فرصة للتواصل مع جيراني وفتح السّير السّريعة، حيث كنّا نتبادلها عبر الشّبابيك. نعم...لقد كان ذلك ممكناً وجميلاً.



خريطة المكان باستخدام غوغل إيرث عام ٢٠١١



صورة لإطلالة من إحدى غرف بيت نسرين، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.

في الصّباح كان زوجي يستيقظ قبلي دائماً، يحضّر فنجان القهوة ويصنع سندويشة لابنه، كان يعرف أنّني أحبّ النوم صباحاً، لكن لا تظنّي أنّني كنت أنام إلى وقت متأخر لا [ضحك]، كنت أستيقظ في السّابعة، أشرب القهوة ونلبس ثيابنا سريعاً، نوصل ابننا إلى بيت جدتّه وأنا إلى المدرسة وزوجي إلى عمله.

كانت حياة طبيعيّة وعادية جداً، لا شيء مميز فيها، لكنّها مليئة بالرّاحة والاستقرار. أنتهي من عملي وأعود إلى بيتي لأنظّف وأطبخ، ثم نحضر ابني من بيت جدّته أو تحضره أمّي بنفسها أو حماتي. في المساء يذهب زوجي لملاقاة أصدقائه وأجلس في بيتي لأقرأ... كنت أحبّ القراءة كثيراً، وكان لقبي «فارة الكتب»، أو كنت اجتمع مع نساء العائلة، أو أذهب إلى بيت جدّتي رحمها الله.



صورة لإطلالة من شرفة بيت نسرين، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.

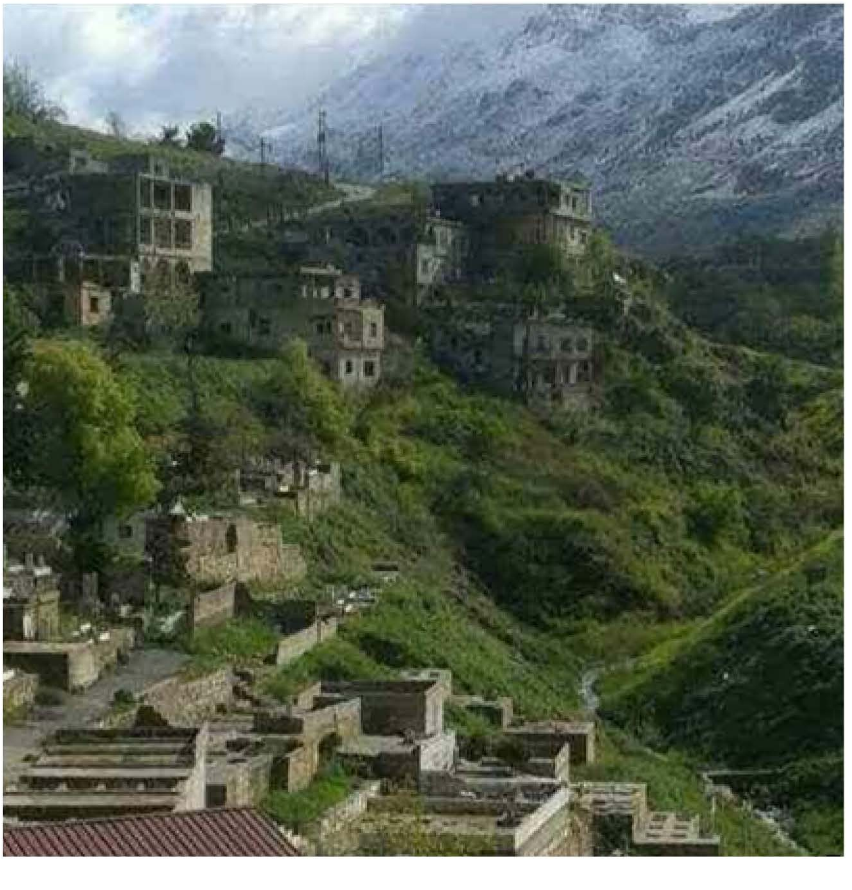
أنا في تلك الأماكن

[صمت]... كنت ابنة أمّي وأبي، كنت زوجة رجل رائع، كنت ابنة تلك الشّوارع والشّجرة التي أمام بيتي، ملكة بيتي، كنت أختاً وصديقة... لشخص لم يعد بيننا. ابنة الأمان والاستقرار. ابنة الطّموح أنا، درست اللّغة العربيّة والإنجليزيّة وكان حلمي أن أتقن سبعاً من اللغات قبل أن أصبح في الأربعين من عمري، كنت ابنة الكتب، وكانت لديّ مكتبة كبيرة بناها لي أخي المرحوم على الطّراز اليوناني القديم. كنت أنتمي للمدرسة، ولأعين الطالبات، وأيديهنّ الصغيرة، وأحلامهنّ. كنت أنتمي لبيت اهلي، كلما أحسست بالضّغط أذهب إلى أمّي وأجلس في زاوية معينة تطلّ على نهر وجبل. لتلك الزاوية سحرها في كلّ فصل من السنة وكلّ وقت من اليوم. أقف هناك عند الغروب وأراقب الناس ينزلون من الجبل بسيّاراتهم المحمّلة بالإجاص والتّفاح. منظر الثّلوج في الشّتاء من تلك الزّاوية يريح النّفس، ونسمة الهواء في الصّيف تنعش الرّوح.

كنت أرتاح عنما أكون مع أبي في سيّارته الصغيرة. كنت رفيقته دائماً، وكان يحاول تعليمي

قيادة السّيّارة قبل أن أتزوّج، كنّا نفرح كثيراً في تلك الجولات السّريعة. أن تكوني بجانب والدك، مدلّلة، محميّة وكأنّ عمرك سبع سنوات. حتى بعد زواجي وإنجابي، لم يغيّر أبي شيئاً من معاملته لي، كان يشتري لي ما أحبّ ويخبّئه في درج السّيّارة حتّى يراني أو يأتي إليّ في بيتي. [تنهيدة]

صورة لإطلالة من بيت أهل نسرين، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.



كلما أحسست بالضغط
أذهب إلى أمّي وأجلس في زاوية معينة
تطلّ على نهر وجبل

بيـــــت أهــلــــــــــــــــــــــــــــــــي

وكــان لـــديّ مكتبـــــة كبيـــــرة

كنـــت أنتـــمي إلى بيـــت أهلـــــــي

كم اشتريت له أغراضاً بهاتين اليدين!

وفيها شبـــــــــــــــــــــاك

يُطلّ على حارة خلفية مليئة بالشجـــــــــر

بيتنـــــــــا الجميـــــــــل

مســـــــــكة البـــــــــاب

كنت أرتاح عندما أكون مع أبي في سيارته الصغيرة

زقـــاق ابنتـــــــــــــــــــــــــــــي

كم كنت أحـــب ذلك المطبـــخ!

أنا وأمّي والأحداث عام ٢٠١١

كنت أتابع أخبار مصر وثورة الشّعب المصري ضدّ حسني مبارك لحظة بلحظة. كانت أمّي تشعر بالملل لأنّني كنت أتابع قناة الجزيرة لأعرف فيما إذا كان سيتمّ إسقاط حكم حسني مبارك من قبل الشّعب أم لا. كانت مريضة في تلك الفترة وكنت أقضي عندها الكثير من الوقت. طلب الأطباّء أن نُدخلها إلى المستشفى، وانتظرنا حتى شهر آذار حيث كان هناك عطلة رسمية لمدّة أسبوع في المدارس ما بين عيد المعلّم وعيد الأمّ. أمّي كانت تريدني أنا أن أكون مرافقتها ورفيقتها في المستشفى، بقينا سوّية في مستشفى المجتهد في دمشق من الثّالث عشر حتى الثّامن عشر من آذار.

أتذكّر أنّي تعرّفت على امرأة هناك في تلك الفترة وكنّا ننزل إلى أمام المستشفى لندخّن سوّية [ضحك] أيقظتني يوماً عند الثّالثة فجراً: «قومي نسرين قومي.» استيقظت مستغربة من رغبتها في التّدخين في تلك السّاعة، إلّا أنها قالت لي: « قومي... الشّام قايمة قيامتها... في مظاهرة» ووقفنا على الشّبابيك لنتفرّج.

لم أكن وقتها مهتمّة بما يحدث، كان عقلي وقلبي لدى أمّي، وكان الهمّ يلفّني، حتّى إنني أعلمْت زوجي ببقائي لفترة طويلة إلى جانب أمّي في المستشفى. لكن عندما جاء زوجي، وسألنا الطبيب عن حالها، أجاب أنّه من الأفضل أن نأخذها إلى بيتها...كي تموت بدفء في فراشها وبين أبنائها وبناتها. عدنا إلى الزّبداني، وكنت أقضي كلّ وقتي بعد المدرسة عندها، نشأت بيني وبينها علاقة غريبة، جميلة وصعبة في نفس الوقت. أحسست أنها هي ابنتي وأنا أمّها، كانت تريدني دائماً بجانبها، وفي اللّيل ترفض أن تنام لأنها قرّرت أن تخبرني كلّ روايات وقصص حياتها وذكرياتها الّتي احتفظت بها داخلها، دفعة واحدة. كانت تعلم أنّ أيامها أصبحت معدودة، فحدّثتني عن قصّتها مع أبي وكيف التقت به وكيف أحبّته وأحبّها، عن حزنها لتركها المدرسة وهي صغيرة، عن تعلّمها الخياطة، وعن يوم ولادتي وولادة أخي وكلّ تلك التّفاصيل. أصبحتُ أمّها، تركتُ ابني ذي الست سنوات لتهتمّ به زوجة أخي، نسيت كلّ شيء، زوجي، بيتي وابني، ولم ألتفِت إلى ما كان يحدث في البلد، ولا كانت فكرة الثّورة

في بـالي أبـداً، عـلى العكـس، كنـت حريصـة عـلى عـدم التّدخّـل في أيّ شيء أو الخـروج في أيّـة مظاهـرة. كان يصلـني الكثـير مـن الـكلام، مثـلاً أنّـني أخـاف أن أفقـد وظيفـتي وراتـبي الشّـهري ولذلـك لا أشـارك في أيّ شيء. إنّما الحقيقـة أنّـني لـم أكـن مكترثـة في تلـك الأيّـام إلا لحـال أمّـي. كانـت مشـاعري تجـاه مـا يحـدث مختلطـة، أريـد أن يحصـل تغيـير في بلـدي، وفي نفـس الوقـت كنـت أرى الرّئيـس شـابّاً متفهّمـاً، وكنـتُ شـبه متأكّـدة أنّـه سـيخرج علينـا بخطـاب يتنـحّى فيـه عـن الحكـم إذا اسـتمرت الأوضـاع عـلى مـا كانـت عليـه مـن مظاهـرا ت ومطالبـات، حـتّى إنّـني كنـت أشـكّك في أقـوال مـن حـولي بـأنّ أجهـزة الأمـن قـد قتلـت أوّل شـابّ في الزّبـداني في إحـدى المظاهـرات.

في شـهر آب، دخلـت الزّبـداني حملـة كـبيرة مـن قـوّات النـظـام، كنـتُ في بيـت أهـلي القريـب مـن الجبـل، ومـن النّافـذة المطلّـة عليـه رأيـت الكثـير مـن الشّـبّان ممّـن كانـوا في المظاهـرات يهربـون نحـو الجبـل، ورأيـت الكثـير مـن سـيّارات الأمـن تتّجـه إلى هنـاك أيضـاً. خفـتُ عـلى أخـي، فأرسـلته إلى بيـتي، حيـث إن معظـم النـاس في حـارة بيـتي كانـوا مؤيّديـن للنّظـام، وعـلى الأغلـب لـن تدخـل قـوّات الأمـن إلى البيـوت هنـاك. [xxvii]

بعـد سـاعة تقريبـاً، هـدأت الأجـواء وذهبـت كلّ سـيّارات الأمـن، وبدأنـا نخـرج إلى الشّـارع لنسـأل بعضنـا البعـض عمّـن تـمّ اعتقالـه مـن قبـل الأمـن وعمّـا حصـل بشـكل عـامّ. تفاجـأت بعـد قليـل بسـيارتَي أمـن عائدتـين، وخفـتُ، لأنـهّ عـادة عندمـا تكـون سـيّارات قـوّات الأمـن في الشّـارع ندخـل جميعنـا إلى بيوتنـا خوفـاً مـن الاعتقـال أو أيّ موقـف غـير مرغـوب فيـه، مـرت السّـيّارتان بالقـرب منّي ورأيـت في إحداهـنّ شـابـاً أشـقر السـحنة وذا شـعر أحمـر، لـم أتعـرّف عليـه أنـا ولا النّسـاء اللّـواتي كـنّ معـي... مـن ذاك الشـاب؟ اتّجهـت السّـيّارتان إلى الجبـل حيـث الحاجـز الأمـني الـذي نصبـوه هنـاك، ونزلتـا وغادرتـا بعـد عـشر دقائـق.

لقـد قلـب هـذا المشـهد ومـا حـدث بعـده كلّ حيـاتي. في اليـوم التّـالي بـدأت أمّ عدنـان، إحـدى النّسـاء في المنطقـة تبحـث عـن ابنهـا شـادي، وجالـت كلّ مـكان وسـألت عنـه كلّ مـن اسـتطاعت سـؤاله، ولـم يجـده أحـد. وبعـد أيّـام، أتى الراعـي الـذي يرعـى الأغنـام في الجبـل ليُخبر النـاس عـن

---

xxvii يظهر مقطع الفيديو شاحنات عسكرية على متنها جنود يُزعم أنها تسير عبر الزبداني في الشهر الثامن من عام ٢٠١١.
المصدر: الأرشيف السوري

جثّة تحت شجرة تين. لم يتجرّأ أحد على الذهاب إلى هناك حيث الحاجز الأمني، وأعتقد أنّ الأمّ ذهبت فيما بعد لتجد شادي ابنها جثّة هامدة. لقد اعتقله الأمن في الجبل، وضربوه كثيراً على ما يبدو، وكانت آخر ضربة على رأسه مميتة، فنزف وتحوّل لون شعره الأسود إلى أحمر، لذلك أعادوه إلى الجبل حيث اعتقلوه، ورموه هناك لنفي تهمة أنّهم من قاموا بذلك. لكنني أنا ومن معي رأيناه في سيّارتهم، لم أنس ولن أنسى ذلك المشهد أبداً. بعد أيّام، جاءت والدته لتزور أمّي، وأخبرتها أنّها ستصعد إلى الجبل، لتحضر التّراب المجبول بدم ابنها من تحت شجرة التين، فهذا ما تبقّى لها منه...[بكاء]

بعد هذا الحدث، بدأْتُ بطلب الإجازات من المدرسة بحجّة مرض أمي، لكنّني أردت ذلك لأنّني لم أعد أحتمل سماع ما كان يُحكى بين المدرسات الدّاعمات للنّظام. بعد أن رأيت شادي في سيّارة الأمن، وأمّه الجريحة، خرجت مع أخي إلى تشييع جثمان شادي، وأخذت القرار في داخلي بأنّني سأكون جزءاً من الثورة.

في أيلول من نفس العام، اقتحم الأمن بيت أهلي باحثين عن أخي، كسّروا كل شيء، وجدوه في البيت، ونظر أحدهم إلى أمّي وقال: «إن شاء الله ما تلاقي حدا يدفنك. ابنك ما عاد راح تشوفيه وراح تفطسي لوحدك» وأخذوا أخي. لقد حكموا عليها بالموت بعد ما فعلوه أمامها، وما قالوه، وبعد اعتقالهم لأخي أمام عينيها. منذ تلك الحادثة لم تعد أمّي في وعيها تماماً، وأصبحت تنام معظم الوقت. حاول أبي كل ما يستطيع لإخراج أخي من المعتقل قبل أن تموت والدتي، دفع الكثير من النقود وكان يريد أن يبيع البيت ليدفع ثمن حرّيّة أخي. خرج أخي بعد أسبوعين، كانت آثار الحبال على معصميه، جلس بجانب أمّي، أشارت إلى يديه، فقال لها إنّه بخير... وماتت بعد يومين من خروجه.

قرّرت ألّا أحزن على موت أمّي، بل أن أغضب، وأن أشارك في ثورة النّاس على هذا النّظام الظّالم. خرجت مع أبي في تشييع شخص من عائلة برهان كان قد مات برصاص الأمن خلال الاعتصام الصّامت الذي قام به الشّباب أمام مركز أمنيّ في الزّبداني احتجاجاً على اعتقال بعض النّساء من نفس العائلة، فجاء الأمن وأطلق النار على المعتصمين. [xxviii]

---

xxviii شبكة شام الإخباريّة: الزبداني: عاجل : وصلنا نبأ استشهاد الشاب زاهر محمود برهان إصابة بالرأس عمره ٢٨ سنة من الزبداني و هناك أكثر. المصدر: الأرشيف السوري

وعندما خرجت مع أبي لمشاهدة التّشييع قال لي جملة لن أنساها: «بنتي، طلع صوت الرّصاص، خرس صوت الحق.»

بعدها رجعتُ إلى بيتي وعشت حياة شبه طبيعيّة، وعدت للتّدريس حتى شهر كانون الأول/ ديسمبر من ٢٠١١، إذ تمّ اقتحام الزبداني بحملة كبيرة من قوات النظام، إلّا أنّ الشّباب في الزّبداني واجهوا بالسّلاح وهدّدوا بقطع المياه عن دمشق من منطقة عين الفيجة. خرجت قوات النظام من الزّبداني وتمّ إعلان منطقة الزّبداني من قبل الثّوّار على أنّها منطقة محرّرة من قوّات النّظام، لكن ذلك استمرّ لفترة قصيرة (حتّى شهر شباط/ فبراير من عام ٢٠١٢)، عندما دخلت حملة عسكريّة شرسة من قوّات النّظام إلى منطقة الزّبداني.[xxix]

خرجت من بيتي في الثاني من رمضان ٢٠١٢ ولم أعد إليه حتى الآن

في شباط ٢٠١٢ اقتحمت قوّات النظام منطقة الزبداني بحملة عسكريّة قويّة، سيّارات، مدرّعات ودبّابات دخلت إلى عين الفيجة أوّلاً ثمّ الزبداني. نصبوا الحواجز العسكريّة والأمنيّة في كلّ مكان، وقاموا بكلّ أنواع الاقتحامات والمداهمات. كنت ما أزال في بيتي، وبقيت هناك حتّى رمضان (نيسان ٢٠١٢)، اشتدّ القصف علينا، ولم أكن قد عرفت القصف العسكري من قبل. أصبحَت هناك مناطق تحت سيطرة النظام وأخرى لا يستطيع النظام الدّخول إليها، تقسّمت المناطق في الزّبداني واشتدّ القصف من كلّ صوب. جاءني أبي في أوّل يوم من رمضان وقال: «يا بنتي، أنا بدي روح على الغوطة لأتجنّب القصف، بدك تروحي معي أو تضلي مع جوزك؟» قلت له إنّي أريد البقاء مع زوجي، فقال: «متل ما بدّك، سلّمتك لربّ العالمين، والله يحفظ لي إيّاكِ.»

في اليوم التالي، ذهبنا نساء وأطفالاً في سيارات إلى بلودان، هرباً من السلاح والقصف، وبقي الشباب في الزبداني. توجد في بلودان منازل كثيرة للمصطافين من دمشق، حلب

xxix حاولت قوات النظام اقتحام المدينة في الشهر الأول من ٢٠١٢ فقوبلت بتصد كبير من الجيش الحر، تكبّدت قوات الأسد خلالها خسائر فادحة في الجنود والآليات العسكرية وفجّر الثوار أول دبابة ٧٢، الأمر الذي اضطرّ قوات الأسد لتعود أدراجها، فأعلن الثوار الزبداني أول مدينة محررة من قبضة النظام واستمرت على ذلك لمدة ١٥ يوم، لكن قوات الأسد حشدت تعزيزات وآليات على أطراف المدينة ومهدت بقصفها من أربعة محاور، وبعد مقاومة دامت ١١ يومًا. استطاعت قوات الأسد دخول المدينة بتاريخ ١١ شباط ٢٠١٢، عبر محور سهل مضايا. وبقيت فيها لمدة خمسة أشهر مع مقاومة وعمليات يومية من الجيش الحر أجبرت آخر حاجز على الانسحاب في نهاية العام ٢٠١٢ تاركًا خلفه عددًا من الحواجز المتمركزة في جبالها.
هذا الشرح مقتطع من مقال بعنوان «مدينة التفاح ثائرة في وجه الظلم» آمنة رياض، عنب بلدي، ٢٠١٤

ومـن الخليـج، يأتـون إليهـا فقـط في الصّيـف، ويتركونها في بـاقي أيـام السّـنة. كان عمّـي يعـرف أحـد أصحـاب تلـك المنـازل، فتواصـل معـه وأخـذ إذنـه بإرسـال النسـاء والأطفـال إلى بيتـه. قضينـا رمضـان في ذلـك المنزل في بلـودان، وكان مـن الصّعـب كثيراً أن أشـاهد مدينـتي تحـت القصـف، كنـت أرى ذلـك مـن المـنزل في بلـودان، وأتسـاءل: كيـف سـيأكل كل مـن في تلـك المناطـق الـتي تتعـرّض للقصـف؟

طالـت القصّـة، ولـم تتوقّـف الاشـتباكات ولا القصـف، وبدأنـا - نحـن النسـاء - نصرّ على أزواجنـا الذيـن بقـوا في الزبـداني أن يجـدوا حـلّاً: إمـا أن يأتـوا إلينـا وإمّـا أن نذهـب إليهـم، لـن نبقـى هكذا، كلّ منّـا في مكـان مختلـف. وبالفعـل، قـام أزواجنـا باسـتئجار منـازل في الزبـداني، حيـث إن بيوتنـا في مرمـى القصـف ولا يمكـن العـودة إليهـا. اختـار زوجي مـنزلاً قريبـاً مـن أحـد الحواجـز العسـكريّة التّابعـة للنّظام، وذلـك كي يضمـن ألّا يتـمّ قصـف المنزل مـن قبـل النّظام السّـوري. بقينـا فترة قصـيرة في ذلـك المنزل، لكنّ الأحـوال الماديـة بـدأت ترمـي بظلالها الثّقيلـة علينـا، فأنـا وزوجي الآن عاطـلان عـن العمـل، ولـم يعـد لدينـا دخـل، فمـاذا نفعـل؟ قرّرنـا أن ننتقـل سـويّة إلى بلـودان، واسـتطاع زوجي أن يعمـل ويتحـرّك في المكـان، إذ لـم يكـن اسـمه مطلوبـاً للنّظـام السّـوري بعـد.

طلبْـتُ مـن خـالي الّـذي كان مـا يـزال في الزّبـداني أن يرسـل لي زوجتـه وجـدّتي، أردت أن أقـوم بإحيـاء ذكـرى أمّـي وأردتهـنّ معـي. لكـن خـالي رفـض، وطلـب مـنّي أنـا وزوجي أن ننـزل إلى الزّبـداني. كان يعتقـد أنّ الأمـور سـتنتهي أو أنّ هنـاك هدنـة بـين قـوّات النّظـام السّـوري والشّـباب في الزبّداني سـتتمّ في عيـد الأضحى في تشريـن الأوّل/ أكتوبر مـن ذلـك العـام. اقتنعنـا أنـا وزوجي، واتّفقنـا مـع خـالي عـلى أن ننـزل أوّل أيّـام العيـد وأن نطبـخ هنـاك سـويّة، إلّا أنّـه وقبـل العيـد بيـوم «وقفـة العيـد» اقتحمـت حملـة عسـكريّة كبيرة الزبّداني، واستشـهد خـالي، والكثـيرون مـن أصدقـاء زوجي، وقُتـل الكثـير مـن الطّرفـين.

كان لذلـك الحـدث أثـرٌ كبـيرٌ عـلى حيـاتي، تـوفّي خـالي وأخي بالرّضاعـة ومـن قبلهمـا أمّـي، ومـاذا الآن؟

زوجي أيضـاً، لـم يتحمّـل مـوت أصدقائـه الثّلاثـة، وقـرّر أنـه سـيعود إلى الزّبـداني وينضـمّ إلى

الشّـاب. وبالفعـل، عدنـا إلى الزبّـداني، إلى المـنزل الـذي كنّـا قـد عشـنـا فيـه قبـل الانتقـال إلى بلـودان. هنـا اضطـررتُ أن أعـود للتّدريـس في المدرسـة الحكوميّـة التّابعـة للنّظـام، كنـت قـد قـرّرت سـابقاً عـدم التّدريـس فيهـا، لكـنّ الظّـروف أجبرتـني عـلى العـودة إليهـا، وكانـت قريبـة مـن المـنزل الـذي أقطنـه، أصبحـتُ أذهـبُ إلى العمـل كلّ يـوم بشـكل روتيـنيّ، وأمـرّ عـلى الحاجـز جيئـة وذهابـاً دون حـدوث أيّـة مشـاكل.

كل شيء عاد إليّ، إلا هو...

في يـوم مـن أيّـام تشريـن الثّـاني/ نوفمبر ٢٠١٣، كان عـليّ نسـخ أسـئلة المذاكـرات للطّالبـات في المدرسـة، لكنّـني لـم أسـتطع القيـام بذلـك طـوال اليـوم بسـبب انقطـاع الكهربـاء المسـتمر في الزبّـداني. نزلـت مـن الطابـق العلـويّ وقلـت لـزوجي إنّني بحاجـة إلى نسـخ الأسـئلة، فقـال لي إنّـه سـيقوم بذلـك صبـاح اليـوم التّـالي. لـم أوافـق عـلى مـا قالـه، وقـرّرت أن أذهـب إلى بلـودان حيـث الكهربـاء متوفّـرة، وأن أنسـخ الأسـئلة وأبيـت ليلـة هنـاك، ثـم أنطلـق إلى المدرسـة صباحـاً مـن هنـاك. وهكـذا فعلـت بالضّبـط. حاولـت الاتصـال بـزوجي بعـد أن وصلـت إلى المدرسـة صباحـاً، فكان هاتفـه خـارج التّغطيـة، ثـمّ أجابـني حـوالي السّـاعة العـاشرة وقـال لي: «أنـا صرت بالجبـل، ياريتـك ضليـتي معـي مبـارح، مـا بعـرف إيمـت راح إرجـع!» سـألته عـن المـدّة الـتي سـيقضيها هنـاك، وقـال إنّـه سـيبقى حـوالي أسـبوعين ثـم سـيعود إليّ. أرسـل رسـالة ثانيـة في الأوّل مـن كانـون الأول/ ديسـمبر، قـال إنّ مشـواره طويـل، وإنّـه لـن يعـود قريبـاً، وعـليّ ألا أتّصـل بـه أبـداً، فهـذا قـد يـضرّه.

بعـد يومـين، سـمعت في اللّيـل صـوت إطـلاق نـار مـن ناحيـة الجبـل، فاتّصلـت مبـاشرة بـأخي لأسـتفسر عمّـا يحـدث، وأكّـد لي أنّ الأمـور بخـير. كنـت في تلـك الفـترة أعيـش مـع زوجـة أخي، وزوجـة خـالي الـذي استشـهد، وعائلـة أهـل زوجي، كنّـا كلّنـا في نفـس المـنزل. أسـتطيع القـول إنّهـا كانـت فـترة اسـتقرار نسـبيّ، أي أنّنـا كنـا نسـتطيع القيـام بأعمالنـا والتحـرّك، وكانـت قـوّات النّظـام عـلى علـم بتواجدنـا ولـم تكـن هنـاك أيّـة مشـكلة. أمّـا الرّجـال، فكانـوا يسـتطيعون زيارتنـا ليـلاً في بعـض الأحيـان. في السّـاعة الواحـدة فجـراً مـن تلـك اللّيلـة، اتّصلـت بي صديقـتي

تســألني مـا إذا كانـت إصابـة زوجي طفيـفـة أم عميـقـة، تفاجـأت، ونزلـت إلى الطّابـق السّـفلي لأجد كل إخـوة زوجي في المنزل، فأخبرتهم عمّا قالتـه لي صديقـتي على الهاتـف، فقالـوا لي إنّ مـا قالتـه عبـارة عـن مزحـة أو إشـاعة. هممْتُ بالعـودة إلى غرفـتي كي أكمـل نومـي، فلحـق بي أخ زوجي وقـال إنّ أخي يريـد أن يتحـدّث معـي عـلى الموبايـل.

شو هالمزحة الغليظة أخي؟ شو في؟ قلّي!

استـشـهد زوجك يا أختي...

لا حول ولا قوّة إلا بالله، إنّا لله وإنّا إليه لراجعون... حسبنا الله ونعم الوكيل...

طلبـتُ مـن أخ زوجي ألّا يحـزن، فأخـوه سـيعود قريبـاً... لا أدري مـا الـذي كنـت أقولـه. اسـتيقظ ابني وسـألني: « مـات أبي؟» [بكاء] قلـت لـه: نعـم، لقـد مـات! فطلـب منّي ألّا أبكي، وذكّرني أنّ أباه كان قـد قـال لنـا إنّـه قـد يمـوت وإنّ علينـا ألّا نحـزن.

كان مـن الصّعـب إحضـار جثّتـه إلى المنـزل في تلـك اللّيلـة بسـبب الوضـع الأمـني. طلـب الرّجـال ألا نشـعل أيّ ضـوء في المـنزل. انتظـرت حـتّى بـزوغ الشّـمس، عاتبتهـا وقلـت لهـا: «أنـت في السّـماء وزوجي أصبـح تحـت التّراب، كيـف لي أن أكمـل حيـاتي مـن دون سـماع صـوتـه» [بكاء]. كان زوجي قـد وعـدني أنّ الثّـورة سـتنتهي في غضـون أشـهر قليلـة، وإن لـم يحـدث ذلـك سـنذهب جميعـاً إلى لبنـان... والآن مـاذا سـأفعل؟ طلبـتُ مـن الرّجـال أن يرسـلوا لي صـورة لجثّـتـه كي أصـدّق أنـه مـات، لقـد دفنـوه في الجبـل، وطلبـوا منّي أن أسـامحه وأن أدعـو لـه... كـم هـي صعبـة تلـك الكلمـات!

تحوّلـت بعـد تلـك الصّدمـة إلى إنسـانة صامتـة، مكسـورة. توقّفـت عـن الـكلام، قـرّرت أن أتـرك المدرسـة. وفي الشـهر الثّالـث مـن عـام ٢٠١٤ قـرّرت أن أنتقـل إلى بيـت ثـانٍ مـع ابـني وجـدّتي وزوجـة أخي، لـم أكـن قـادرة عـلى البقـاء في ذلـك المـنزل. انتقلـت إلى ضـواحي الزّبـداني، منطقـة اسـمها «المعمـورة»، وكرهْـت الزّبـداني، وكرهْـت كلّ شيء مـن حـولي. في داخـلي، لـم أصـدّق أنّـه مـات، وكنـت أكـذّب الجميـع، وأتخيّـل أنّـي أسـمع صـوت مفاتيحـه تفتـح البـاب، وكنـت أركـض

لألاقيه، قالوا عنّي مجنونة، وأنّه عليّ تقبّل حقيقة موته. كيف لي أن أصدّق موته؟ فأنا لم أرَجثته، وحتّى الصّورة التي أرسلوها لي، لا تدلّ على موته، نعم عيناه مغمضتان لكنّ وجهه كما هو. بعد أيّام، أحضروا لي أغراضه: الموبايل، حقيبته، معطفه، قارورة الماء الفارغة، قدّاحته، كل شيء عاد إليّ، إلّا هو.

صراعات في داخلي، هوّيات مفروضة، وهوّيات اخترتها أنـــــا

أصبحت امرأة حاقدة، امرأة لا أعرفها، تكره كلّ شيء وتكره كلّ امرأة لديها زوج على قيد الحياة وأب لأطفالها. كرهْت كلّ من كان يأتي ليعطيني وابني نقوداً، نقوداً للأرملة ولابنها اليتيم. كرهْت والدة زوجي الّتي كانت دائمة البكاء على مصابها، كرهْت والد زوجي لشبهه الكبير بزوجي، كرهْت كلّ من شارك في الثّورة، كرهْت أبي، كرهْت أمّي التي ماتت وتركتني وحيدة. كرهْت لقب اليتيم لابني، هذا الطّفل الذي كان فرحاً بوجود والده سابقاً ومعتزّاً به، لم يستوعب ابني أنّ والده قد مات. كان دائم السّؤال عنه، تملّكه الحقد كما تملّكني، أصبح يفكّر أنه عندما يكبر سيحمل سلاحاً ويقتل قاتل والده. لقد تأثّر كثيراً بموته، وتراجع دراسياً، ورفض لقب اليتيم.
انتقلتُ من مرحلة الصّمت إلى مرحلة الحقد، عتبتُ على زوجي لأنه مات وتركني وحيدة أنا وابني، رفضتُ التواصل مع أهل بيتي، ورفضت الطّعام، رفضت كلّ شيء. أنا التي كنت مالكة لبيت ولديّ أسرة، أنا المدرّسة المحترمة وصاحبة المكتبة الكبيرة، زالت عنّي كل تلك الصّفات وأصبحتُ أرملة... فقط أرملة وتجوز عليّ الشّفقة. قرّرت الذّهاب إلى لبنان، وترك المكان بمن فيه، ثمّ السّفر إلى أوروبا، تلك كانت خطّتي، يوجد منزل هناك لأحد الأقارب وأستطيع البقاء فيه بضعة أيام. سافرت أنا وابني، واختليت بنفسي في ذلك المنزل. أذكر أنني في يوم من الأيام قرّرت ألّا أصلّي صلاة العصر، أنا الّتي لم تفوّت صلاة بقصد طوال حياتي. نمتُ في تلك اللّيلة فزارني زوجي في المنام، فرحتُ للقائه وقلت له إنّني سأبقى نائمة كي نبقى سويّة، فقال لي إنّي امرأة طيّبة وقويّة وإنّه عليّ أن أستيقظ وأتقبّل موته وأمضي

في حياتي، وعاتبني على صلاة العصر التي لم أقم بها.
استيقظتُ في اليوم التّالي، إنسانة أخرى، وسألتُ نفسي: «ماذا تفعلين؟ وكيف أصبحت هذه الإنسانة؟» أدركتُ أنّه لن تتوقّف نظرة الشّفقة عليّ وعلى ابني إلّا إن عدت إلى مدرستي وبلدي وناسي، ووقفت على قدمي مرّة أخرى. قرّرت أن أعتبر زوجي ذكرى جميلة أضحك لها كلّما عبرتْ في خاطري. عُدْتُ إلى الزّبداني، إلى منزل المعمورة، إلى حضن جدّتي وخبزها، إلى أرض أعرفها وأحبّها، إلى أشخاص أحبّوني وساندوني حتى عندما كنت حاقدة عليهم. حدّثت ابني لأوّل مرة عن موت أبيه، وقلت له إنّه سيكبر ليصبح رجلاً مهماً، سيشتري سيّارة حمراء ويأخذ أطفاله إلى مدينة الملاهي، ويسمي ابنه الأكبر على اسم أبيه المتوفّى. فكّرتُ بنفسي، أنّني أستحقّ أن أكون وأن أعيش، وأن أحقّق أهدافي. تركْتُ المدرسة التّابعة للنّظام السّوريّ، وعملت في مدرسة خاصّة. أصبح لديّ اهتمام كبير بالنّساء الفاقدات لأزواجهنّ وأطفالهنّ، أردت أن أساعدهنّ في محنتهنّ، ووقفتُ إلى جانب الكثيرات منهنّ، أسمعهنّ وتتشارك الأوجاع ونقوّي بعضنا بعضاً.

في تلك الأثناء ومع بداية عام ٢٠١٥، كان هناك شخص، صديق سابق لزوجي، يزورنا دائماً في المنزل، عاملني بطريقة مختلفة عن الآخرين، كان يناديني «آنسة نسرين» أي باحترام، لم يلقِ علينا الصدقات، بل كان يلعب دائماً مع ابني ويدعمه، لقد انسجما بشكل جميل. عرض عليّ الزّواج، وافقت وتزوّجنا. عدنْا أنا وهو وابني إلى الزّبداني، إلى المناطق المحاصرة هناك. كان قراراً أخذناه سوّيّة، بالرّغم من القصف والحصار، إلا إننا كنّا أردنا البقاء مع أهالي البلد وعيش كلّ الظّروف معهم، ومساعدتهم قدر الإمكان. كان قراراً صعباً، اندفعنا، وأصابنا الأمل، تأمّلنا أنّ الأوضاع ستتغيّر وأنّ حلاً قريباً سيلوح في الأفق... لم نتوقّع ولم نرَ في أسوأ كوابيسنا ما حدث لنا، للزّبداني وأهلها لاحقاً.

خرجت من أرضي غصباً وكانت الوجهة مضايا

عدنا إلى الزّبداني، إلى بيت غير بيتي، فبيتي كلّه متاريس وفي منطقة خطرة جدّاً. مكثنا هناك شهراً، في الحصار، كان حصاراً جزئياً، أي أنّ الطّعام كان ممنوعاً علينا، لكنّني كنت أستطيع التّحرّك، أمرّ على الحواجز، يسألوني عن وجهتي، فأقول إنّني أريد إحضار بعض الأغراض من بيتي. كان القصف يوميّاً ومن كلّ الجهات، لكن اعتدنا على برنامج القصف؛ تضرب قوّات النظام بعض القذائف في السّاعة الثّالثة من بعد الظّهر فننزل إلى الملجأ حتّى ينتهي القصف.

بدأنا بتجهيز مدرسة، كان هدفي تعليم الأطفال وإيصال صوت النّساء، لكنْ لم يحدث أيّ شيء من ذلك، ففي الشّهر الخامس جاءت حملة عسكريّة من العيار الثّقيل، قوّات النظام وحزب الله وفصائل اللّجان الشّعبيّة الفلسطينيّة (جماعة جبريل). [xxx] قال الشّباب إنّ هناك طائرة حربية ستضرب علينا، وأرتالاً تأتي من كل صوب، وسيّارات لحزب الله. ضربت الطّيارة على مضايا وليس علينا، وذهبت. استمرّت الأقاويل حول أعداد السيارات، فالبعض يقول: عشرين، ثلاثين أو خمسين سيّارة والكثير من الدّبّابات، لا أدري كم كان عددها. كان شهر رمضان، أفطرنا أنا وزوجي وابني، وذهبنا أنا وابني إلى الملجأ.

قال لي زوجي إنّ الطّريق ما زال مفتوحاً للخروج من الزّبداني، فرفضْتُ الخروج، وقلت له إنّ حالي من حال كلّ النّاس التي تعيش نفس الظّروف. لكنّ القصف اشتدّ بعد ثلاثة أيّام، صارت الطّيارة تضرب يوميّاً، وقالوا إنّ المدرّعات تقترب شيئاً فشيئاً من الزّبداني. بقينا أنا وابني مدّة خمسة أيام في الملاجئ، ليست ملاجئ حقيقيّة، بل بعض الأقبية في

XXX فيديو يظهر وجود عسكري مزعوم داخل الزبداني في الشهر الخامس من عام ٢٠١٥ المصدر: الأرشيف السوري.

بعض الأبنية. مكثنا في قبو كان الشّباب يقومون بتجهيزه سابقاً ليكون مخزناً. أتذكّر عيون الأطفال الصّغيرة، البكاء والجوع. كانت الأرض تراباً، ثم وضع الشّباب بعض الأخشاب كي نستطيع الجلوس أو النّوم عليها. لم تكن هناك إضاءة، فقط ضوء القدّاحات أو بعض الشّموع، ولا مكان لتحميم الأطفال، حتّى الدّخول إلى الحمّام لقضاء الحاجة كان مشكلة للأمّهات والأطفال. بعدها صرنا نتنقل من ملجأ إلى آخر، ننفّذ الأوامر التي تأتينا: «اخرجوا إلى المكان الفلاني، فالنّظام أصبح على بعد شارعين من هنا»، فنخرج. «اخرجوا بسرعة فالطّيّارة ستضرب بعد قليل في هذه المنطقة»، فنسرع في الخروج إلى حيث لا ندري. وفي أحد الأيّام، اتّصل زوجي وطلب أن نتجهّز بسرعة لنترك ذاك المكان، ذهبت إلى آخر منزل كانت فيه أغراضي، وجاء زوجي، سألته إن كان سيذهب معنا فأومأ بالإيجاب، وهنا ضُرب صاروخ بالقرب منّا، فسكّر أذنيّ بيديه، وقال لي أن أفتح فمي، ثمّ قال بعد قليل: لن أكذب عليكِ، أنا لن أخرج معكم، سألحق بك بعد يومين، عليّ أن أقوم ببعض الأمور وأن أحرق المنزل الذي كنّا فيه. يريد حرقه كي لا تقع صورنا وأغراضنا الشّخصيّة وأوراقنا بيد النّظام وأعوانه. حزنت كثيراً، ورجعت لي ذكرى وفاة زوجي الأوّل. ركبت وابني في السّيّارة، ومشاعري كلّها قهر وحزن، لا أريد أن أترك المكان ولا زوجي ولا ذكرياتي، خرجت غصباً عنّي وكانت الوجهة مضايا. كنت آمل على الأقلّ أن أذهب إلى بيتي الأوّل، لأتحدّث معه وأودعه وأطلب منه السّماح، أردت أن أودّع كتبي وأغراضي. هذا ما أسميته «التّهجير الأساسيّ»، أن تتركي أرضاً عشْتِ فيها كلّ شيء، أن تتركي قبر أمّك وزوجك.

أنزلتنا السّيّارات قبل الوصول إلى الحواجز، كنّا نساء وأطفالنا، علينا أن نمشي حول الحواجز دون أن تنتبه قوّات النّظام لنا. أغلقت الأمّهات أفواه الأطفال بأيديهنّ كي لا يبكوا، سمحن لهم فقط بالتنفس، ثمّ وصلنا إلى نفق، فيه إضاءة عن طريق «اللّيدّات»[xxxi]، وعمقه متر أو أكثر، لا أذكر كم من الوقت بقينا نمشي... نصف ساعة أو ساعتين، لا أدري... لم أفكّر بالوقت، كنْتُ خائفة، أتساءل إن كان خروجي قراراً صائباً، أم كان عليّ البقاء، وماذا

---

xxxi «الليد» في الشكل الشائع استخدامه في سوريا، عبارة عن شريط من الألمونيوم يتراوح طوله بين الـ٦ سم إلى ١٠٠سم وسماكة ٣ ملم، يضم صف من النقاط المضيئة تشبه فلاش الكاميرا، يتفاوت عددها حسب النوع، ويعمل الليد بواسطة بطارية تشحن خلال ساعات توافر الكهرباء.

سـيحلّ بـزوجي؟ ثـمّ انغمسـت في اللّحظـة، أسـاعد أمّاً عـلى حمـل أغراضهـا أو الإمسـاك يـد ابنهـا، كنـا نمشي عـلى شـكل مجموعـات وبسرّيّـة تامّـة، كلّما غابـت الطّيّـارة قليـلاً تـنزل دفعـة جديـدة، وهكـذا حتّى وصلنـا إلى بـرّ الأمـان. في نهايـة النّفـق يوجـد منـزل تقطنـه امـرأة تسـتقبل كلّ الواصـلات، عرضـت عـليّ البقـاء عندهـا لكنّي رفضْـتُ، فقـد رأيـتُ أفواجـاً مـن النّـاس تصـل عندهـا، فأيـن سـأبقى؟ قلْـتُ لهـا إنّ جماعتي تنتظـرني، وقصـدت بذلـك ابنـتَيْ خالـتي، فقـد نزحتـا سـابقاً مـن الزبـداني واسـتقرّتا في مضايـا.

هـــــذا ما أسـميـه «التّهجــيـر الأســـاســـي»

أن تتـركي أرضاً عشْتِ فيها كـــــــلّ شيء

أن تتركي قبر أمّك وزوجك.

لـم أرد أن أسـكن عنـد أحـد، وتنقلـتُ بـين بيتهـما، حـتّى سـاعدتني إحداهمـا عـلى إيجـاد منزل قريـب مـن نقطـة طبيّـة، فسـكنْتُ وابني فيـه. كان شـعوراً مختلفاً هنـاك، فلا قصـف ولا حواجـز ولا اعتقـال، لكـنّ الحملـة العسـكريّة كانـت مسـتمرّة عـلى الزّبـداني. أتذكّـر أنّ الطّيّـارة في أحـد الأيّـام ضربـت النّفـق وأنّ كثـيراً مـن النّسـاء والأطفـال علقـوا فيـه وكانـت حالتهـنّ وأطفالهـنّ صعبـة جداً.

كنـت أتحدّث أنـا وزوجي كلّ يـوم عـن طريـق الموبايـل، وفي يـوم مـن الأيّـام، صـار هاتفـه خـارج التّغطيـة، فاتّصلْـتُ بأحـد أقاربـه وأخـبرني أنّ زوجي في ملجـأ لا توجـد فيـه تغطيـة. وفي اليـوم التّـالي لـم أسـتطع الوصـول إليـه، وبـدأت المخـاوف تتسـرّب إلى قلبي، فأصرّيْـتُ عـلى التّواصـل معـه، وسـماع صوتـه، أردتُ أن أتأكّـد أنّـه حيّ، فقـال لي أحـد أقاربـه إنّ زوجي قـد أصيـب...

حصار مضايا... بانتظار العصا السحرية

اتّصـل زوجي بعـد أيّـام وأخـبرني أنّ رجلـه مكسـورة، هـدأت قليـلاً، عـلى الأقـلّ لـم يمـت. وبعـد أيّام، زارتـني زوجـة عمّي مـن لبـنـان، قالـت لي إنّها تسـتطيع التّفـاوض مـع حـزب اللـه الـذي كان يحـاصر مضـايـا وتسـتطيع أخـذي معهـا إلى لبنـان. اتّصلـت بـزوجي لأسـأله، فقـال لي: «القـرار إلـك، مـا عشـنـا مـع بعـض غـير واحـد وتلاتـين يـوم، وبعـرف إذا رحـتي مـاراح شـوفك مـرّة تانيـة.» تأثّـرت ورفضـتُ الذّهـاب إلى لبنـان، وقـرّرت أن أبقـى وأنتظـره. في تلـك الفـترة بـدأ حـزب اللـه بقصـف مضـايا وتشـديد الحصـار عليهـا، ردّاً عـلى ضـرب جيـش الفتـح في إدلـب لمنطقـتَي كفريـا والفوعـة اللتـين يقطنهمـا الشّـيعة كأغلبيّـة. أصبحـنـا محـاصرات ومحاصريـن في مضـايـا، بعيـدات عـن رجالنـا، حـتى الخدمـة الطّبّيّـة كانـت ضعيفـة جدّاً، لـم تعـدْ مضـايا آمنـة أبـداً، وتوافـد الكثـير مـن النّـاس إليهـا قسـراً، وبـات هنـاك الكثـير مـن النّسـاء والأطفـال والرّجـال، مـع شـحّ في المـواد الغذائيّـة، وكنّـا قـد دخلنـا في شـهر كانـون الأول/ ديسـمبر مـن عـام ٢٠١٥. كان الجـوع سـيّد الموقـف، كانـت مجاعـة بمعـنى الكلمـة، فقـد مـات الكثـير مـن النّـاس جوعـاً. جـاع كذلـك كلّ مـن بقـي في الزّبـداني، كنـتُ أتواصـل مـع زوجي وأقـول لـه إنّنـا جيـاع فيقـول: ونحـن أيضـاً. لـم

أكن أدري مدى سوء حالة زوجي حينها. تفاءلت خيراً عندما تمّ إقرار اتّفاقية المدن الأربع، فكانت مبادلة الجرحى وذويهم من أحد شروط الاتّفاقيّة. [xxxii]

لكنّ الوضع لم يتحسّن في مضايا، حيث توقف القصف لكنّ حصار المواد الغذائيّة والطّبيّة استمرّ. ارتفعت الأسعار بشكل مهول، ونشط «تجّار الدّم» الذين أدخلوا الموادّ الغذائيّة باتّفاقيات مع حزب الله، لكن بأسعار خرافيّة، فسعر كيلو الرز وصل إلى مائة ألف ليرة سوريّة. كانت أحوالي أفضل من غيري، فقد كنت أنا وابني فقط، وكان أهل زوجي يقومون بتحويل بعض الأموال لنا كلّما استطاعوا. عشنا على فتات الفتات، جعنا كثيراً، ومع ذلك استمرّيت في تعليم الأطفال وعملت مع منظمة إغاثية في توزيع الحصص وتوثيق الأسماء. لكنّ فترة الحصار استمرّت طويلاً، وبدأنا بأكل أوراق الأشجار وبعض الحشائش، رغم ندرتها في فصل الشّتاء، أتذكر أنّنا كنّا نبحث عن ورق المشمش الهندي، فقد كان صالحاً للأكل، وكان الأطفال يتسلّقون الأشجار طوال اليوم بحثاً عن أوراق للأكل.

كنت أحصل على كأس من البرغل كلّ ثلاثة أيّام، آكل وجبة كلّ ثلاثة أيام، وأحاول أن أؤمّن لطفلي وجبة يوميّة ولو كانت صحناً صغيراً. كان الموت يحوم حولنا، وقع النّاس في الطّريق من الجوع، وأغمي عليهم، والبعض أصابه التصاق في الأمعاء. دخلت بعض المساعدات من جهات أمميّة، إلّا أنّها لم تكن كافية لإطعام ما يقارب اثنين وأربعين ألف شخص. [xxxiii]

استمرّت المجاعة ومثلها الحصار، وكنّا قد صرنا حينها في عام ٢٠١٦، لكنّ تبادل الجرحى كان قد بدأ يحدث منذ شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام ٢٠١٥. كان اسم زوجي في الدّفعة الأولى، أخبرني حينها عن حقيقة حاله، كلتا رجليه قد كسرتا، وقطع وتر في رجله اليسرى.

---

xxxii بلدي حكاية وطن، اتفاق المدن الأربعة طائفية معلنة وصفقات سرية. المصدر: الأرشيف السوري

xxxiii للمرة الأولى منذ نيسان إبريل الماضي تمكن برنامج الأغذية العالمي، أمس، من توصيل مساعدات غذائية منقذة للحياة إلى أسر محاصرة في بلدات مضايا وزبداني في ريف دمشق، وفوعة وكفرايا في ريف إدلب، في إطار قافلة من عدة وكالات إنسانية وجمعية الهلال الأحمر العربي السوري.
هذا الشرح مقتطع من تقرير للأمم المتحدة بعنوان « برنامج الأغذية العالمي يصل بالمساعدات إلى أربع مدن سورية محاصرة للمرة الأولى منذ أبريل» أيلول/سبتمبر ٢٠١٦

لم تكن هناك أيّ موادّ طبّيّة، فقط وضعوا الملح على جرحه ليتخدّر، وبدأ الدّود يخرج من الجرح في نهاية الأمر. اتّصل زوجي وأخبرني أنّه سيخرج عن طريق المبادلة، وسألني رأيي، وأكّد أنّ القرار لي لأنّه أثّر على قرار ذهابي إلى لبنان سابقاً، وأنّه يريدني أنا أن أقرّر هذه المرّة. في البداية طلبت منه أن يبقى، لكنّه أخبرني أنه قد لا يبقى حيّاً إن بقي دون علاج، فقلت له أن يذهب مع القافلة وأنّه لا بد أن نلحق به في إحدى قافلات تبادل الجرحى وذويهم.

بقيت وابني في مضايا، بدأت تدخل بعض الموادّ الغذائيّة على شكل معونات، كانت في معظمها حبوباً وبقوليّات، دون فاكهة أو خضار، فانتشرت الكثير من الأمراض بسبب تناول تلك الموادّ بعد جوع طويل. عانى الأطفال من أمراض الأمعاء والانتفاخات، وماتت الكثيرات والكثيرون من كبار السّنّ لعدم تحمّلهم ذلك الطّعام. في كلّ مرّة وصلتنا المعونات كان لا بدّ أن تكون إحدى الموادّ الضّروريّة ناقصة، إمّا السّكّر، أو الملح، أو الزّيت، وبمجرّد وصولها ترتفع أسعارها في السّوق، كان الوضع مناسباً ومربحاً «لتجّار الدم». بقينا على تلك الحال سنة وتسعة أشهر بانتظار العصا السّحريّة «الباصات الخضر» كي تأتي وتأخذ النّساء الزّبدانيّات وأطفالهنّ إلى أزواجهنّ في إدلب. كنّا كلّما تغلّبنا على مشكلة ظهرت أخرى، فمع قدوم الشّتاء والبرد الشّديد، ظهرت مشكلة التّدفئة ونقص الثّياب، اهترأ ما كان لدينا من الثّياب، ولم يكن بالإمكان إدخال الثّياب مع المعونات. كلّ فصل من فصول السّنة كان يأتي مع أزماته. انتشرت أمراض كثيرة وغريبة فيما نحن بانتظار يوم الخروج إلى حيث لا ندري، فقدتُ الأمل في كثير من الأحيان، وأحسست أنّنا نحن - المحاصرات والمحاصرين - مع أطفالنا قطعُ شطرنج في أيدي الفصائل المسلّحة من قبل كلّ الأطراف، كنّا دروعاً بشريّة. وأكثر ما كان يقهرني عندما كان يخرج رجال الفصائل المسلّحة ونساؤهنّ في القوافل، بينما نحن في أماكننا لا يسأل عنّا أحد.



رسم تجريدي للمشهد الذي وصفته نسرين لحالتها وحالة الناس خلال الحصار في مضايا

يوم التهجير...الاقتلاع من الجذور

أحسست باليأس في لحظات عديدة في مضايا، مثل كثيرات وكثيرين من حولي، نحن من لا واسطة لدينا أو قدرة على تحمّل التّفقات اليوميّة. غضبتُ، كلّما خرجت دفعة لم أكن أنا فيها، أو مبادلة لأشخاص ليسوا من ذوي الإصابة، ونساء لسن بقريبات أو بزوجات للجرحى أو المرضى. انتبهت في كثير من الأحيان أنّني لم أعد أنتظر إلّا الباص الأخضر، علماً أنني كنت أعرف أنّه ليس العصا السحرية التي تمنّيتها، فعصاي السّحريّة كانت ستوقف الحرب والحصار، وتعيدني والكلّ إلى الزّبداني لنعيد بناء البيوت والمدارس.

وجاء ذلك اليوم من نيسان/ أبريل عام ٢٠١٧، دخلت الكثير من الباصات الخضر إلى مضايا، إنّها لحظة الصّحوة، أنا سأخرج من هذا المكان الذي أتعبني وأتعبته، ولن أعود إلى الزبداني، إلى أرضي، بيتي، بيت أهلي وذكرياتي. كيف أعود إلى مكان لم يعد لي؟ تحكمه قوّات قتلت زوجي وخالي وساهمت في قتل أمّي. كان عليّ أن أتّخذ قراري لأقنع نفسي بأنّي اخترت الطّريق التي سأكمل فيها باقي حياتي. كنتُ قد سألت أبي الذي ما زال في الزبداني مراراً عن ذلك القرار، فمرّة يسألني ألّا اذهب وأن أعود إليه لنبني معاً حياة جديدة، ومرّة أخرى ينصحني بالذهاب إلى زوجي وإنجاب طفل ثانٍ. كانت المرّة الأولى التي لم يستطع أبي فيها أن يساعدني في الوصول إلى قرار. قلت له: لقد عوّدتني أن أتّخذ الخيار الذي أريده، وأن تتّحمل معي النتيجة، سواء أكان الخيار صحيحاً أم لا. سأذهب، وإن كان قراري خاطئاً فستساعدني على العودة.

قبل أن يحين وقت الصّعود إلى الباص، مشيت وابني إلى تلّة تطلّ على الزّبداني، ودّعت بلدي، لوّحت بيدي لزوجي الشّهيد، ولأمّي، وللحجارة التي لعبت بها في صغري، للطّرقات التي مشيت عليها، لشجرة التّفاح التي كانت لي واسمي محفور عليها، لأماكن كثيرة عشتُ فيها الحلو والمرّ[بكاء]. سألني ابني: «هل نحن عائدان إلى هناك؟» قلت له: لا، نحن ذاهبان إلى مكان بعيد فيه أبوك (صار ابني ينادي زوجي الثّاني بأبي). عدتُ إلى مكان القافلة، ورأيت

الكلّ مشغولاً بحمل الأغراض، والبحث عن الأولاد، أمّا أنا فليس لديّ ثياب أصلاً، بل حقيبة صغيرة فيها بعض الشراشف والبطانيّات التي قصصْتُها وصنعت منها ثياباً لنا.
صعدت إلى الباص دون أن أودّع أحداً، فالكل سيذهب معي، دون أن يودّعني أحد، فأنا لست في بلدي، أو بين أهلي... لم يقل لي أحد: سأشتاق إليك، أو سأدعو لك أن تصلي بالسّلامة!
صعدت كالغريبة. وبينما كان الباص ينتظر اكتمال العدد في باقي الباصات ضمن القافلة (عشرون أو خمسة وعشرون باصاً)، جاء سائق الباص، فأخرج بعض البيض والجبنة والخبز ليأكل، التمّ الأطفال من حوله والدّهشة تعتري وجوههم الصغيرة، لم يروا هذا الطعام منذ زمن، فبكى سائق الباص، وطلب من زملائه أن يتوقّفوا عن الأكل، وأعطى كلّ الطّعام للأطفال...
سأصارحك بشيء: أنا أحاول أن أخبرك بكلّ المواقف التي حدثت والمشاعر التي انتابتني قبل أن يتحرّك الباص، ربّما لأنني لا أريد الخروج من هناك، «ما بدّي إطلع من مضايا.»
[بكاء وضحك]

تحرّك الباص، باتجاه منطقة التّكيّة، المنطقة ما بين الزبّداني، الشّام ولبنان، هناك اجتاحني شعور قاسٍ، أحسسْتُ في تلك اللّحظة أنّي أنسلخ عن جذوري بكلّ معنى الكلمة. كنّا عندما نعود من لبنان أو الشّام ونصل إلى التّكيّة، نتنفّس الصعداء لاقترابنا من الزبّداني، «عشر دقايق ومنوصل عالزّبداني»، أمّا الآن فأنا على مفرق التّكيّة مُهجّرة من مضايا إلى إدلب التي لا أعرفها إلّا على الخريطة، وقد لا أعود إلى مكاني أبداً، قد لا أعود إلى الزّبداني أبداً.
فجأة رأيت أبي في سيّارته، واقفاً أمام الحاجز الموجود عند التّكيّة، رُدَّت لي الرّوح للحظات، مشى الباص، فمشى أبي بمحاذاته، لم يستطع أن يلوّح لي بيده، كان خائفاً من أن يعلم أحد العساكر أو رجال الأمن أنّه أبي وأن يحقّقوا معي عن سبب ذهابي إلى مضايا. قلت للمرأة التي بجانب الشّبّاك إنّ أبي في تلك السّيّارة وإنّي أريد وداعه، لكنّ الشّبابيك كانت مغلقة ولا يمكن فتحها، ولم أستطع أن أطلب من سائق الباص أن يتوقّف، التقت عيونا لبرهة.. هكذا كان اللّقاء الأخير والوداع الأخير [بكاء]



رسم تجريدي لمشهد نسرين في باص التهجير وهي ترمي بنظرة الوداع الأخيرة لوالدها

رحلة اللاعودة.. والوصول

أعتقد أنّنا بقينا في الباص يوماً كاملاً أو أكثر، لا أستطيع التّذكُّر، كانت المعاناة الكبرى لنا كنساء هي التّبوُّل، أو دخول الحمّام، وكذلك للأطفال. لم يتوقّف الباص خلال أربع وعشرين ساعة إلا مرّتين، نزل الرّجال وقضوا حاجتهم، لكنّ النّساء اضطررْن لحصر البول كلّ تلك الفترة، فالنزول من الباص غير آمن لهنّ. تجوّل الباص على كثير من المحافظات السّوريّة، أحسسْتُ أنّ القافلة لسبب ما تطيل الطّريق؛ مررنا بحمص، حماه، ثمّ قالوا إنّ الطّريق الأساسيّ مغلق، فاتّجه الباص إلى ريف حلب الشّمالي. ومررنا بالكثير من مناطق حلب، مررنا من مناطق قالوا إنها مهدّدة أو محتلّة من قبل تنظيم داعش، [xxxiv] وأنّنا وسيّارات النّظام المرافقة في خطر. ثمّ مررنا من مناطق تسيطر عليها ألوية شيعيّة، ربّما لواء «الفاطميّون»، وهناك بدأ البعض يرمون الباصات بالحجارة ويقومون بحركات مسيئة للنّساء، قرّرْتُ أنا ومن معي تجاهل ذلك، وألّا نزيد من القهر الذي يتملّكنا.

كان الخطر الأكبر في منطقة اسمها الرّاموسة، إنّها نقطة تماس، حيث تتبع للنظام، فيما تتبع منطقة الرّاشدين لجيش الفتح، أو الثوّار. [xxxv] قافلة التّهجير من مضايا تقف في الرّاموسة، وقافلة أهالي الفوعة وكفريا التي يبادلون بينها وبيننا في منطقة الرّاشدين. فجأة حصل انفجار، قامت جهة ما بتفجير باص أهالي كفريّا والفوعة، احترقوا جميعاً للأسف، نساء وأطفالاً ورجالاً. كانت مأساة، ومات معها الشباب من الزّبداني ممّن هم مسؤولون عن حماية القافلة. خفْتُ وكل من في الباص كثيراً، وتوقّعنا أنّ النّظام سيقتل كلّ من في القافلة مقابل الناس الذين ماتوا بالانفجار، أو أنّهم سيعتقلوننا جميعاً، فتبادلْنا الأسماء، بحيث إن نجا أو نجت إحدانا فلتخبر ذوي الذين لم ينجوا بما حصل. [xxxvi]

---

xxxiv داعش: اختصار ل تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام

xxxv <u>معلومات عن الوضع العسكري لمنطقة الراموسة</u>، صادق عبد الرحمن، حلب الحصار ومقاومته والخروج الكبير، الجمهورية، ٢٠١٧. المصدر: الأرشيف السوري

xxxvi ذكرت تقارير إعلامية، السبت، أن أعداد ضحايا التفجير الدامي الذي استهدف تجمعا للحافلات التابعة لأهالي مدينتي كفريا والفوعة في حلب قد ارتفع إلى نحو ١٠٠ قتيل وأكثر من ٥٠٠ جريح معظمهم من المدنيين.
هذا الشرح مقتطع من تقرير بعنوان <u>«ارتفاع كبير في ضحايا مجزرة المدن الأربع»</u> عربية، سكاي نيوز، ٢٠١٧.

اتّصل زوجي، قال لي أن أحذف كلّ ما له علاقة به من الموبايل لأنّه سيتمّ اعتقالنا على الأغلب، وتأسّف منّي لأنّه ورّطني في كلّ تلك المعمعة. ثمّ قال البعض إنّ باصنا سيرجع إلى مضايا، ثم رأينا قوّات النّظام تعتلي السّطوح وتجهّز أسلحتها من رشّاشات وقنّاصات باتّجاهنا، وفي نفس الوقت بدأت المرافقة الأمميّة والهلال الأحمر بتوزيع بعض الطّعام الخفيف والمياه علينا. لم أفهم ما الذي كان يحدث، هل سنموت جميعاً، هل سيقتلوننا أمام الجميع، أم ماذا؟ بعد قليل جاءت القوّات الرّوسيّة وبدأ التّفاوض، وكانت النّتيجة أن القافلة ستستمر بالتقدم نحو منطقة الرّاشدين. استقبلنا في الرّاشدين عناصر جيش الفتح وشباب الزّبداني ممّن تمّت مبادلتهم سابقاً. ذهبت مع قريبة لي كانت معي في الباص إلى معرّة مصرين في إدلب، حيث يوجد شخص من أقارب والدي، قال لي: «روحي على بيتي مباشرة» أجبْتُه أنّي أريد أن أرى زوجي أوّلاً، فشرح لي أنّ زوجي مشغول بتأمين الباصات وسيأتيني عندما ينتهي.

كنْتُ مرهقة إلى حدّ كبير، جسدي يؤلمني، ويتملّكني النّعاس، فلم أناقش كثيراً، أردْتُ أن أرتاح، وابني أراد أن يأكل. حضّرت لنا زوجة الرجل، أم غياث، وجبة غداء فيها رزّ ولبن، ولحوم وكوسا، فانصدم ابني عندما رأى كلّ ذلك الطعام، أحسست أنّه كالخارج من كهف، كأهل الكهف، لا يدري ما في الدّنيا، لكنّه كان من أهل الحصار، لم يكن في سبات، إنّما في جوع وخوف. بكت أمّ غياث عندما رأت ما حلّ بابني، فقال لها: «لا تبكي، أنا مو يتيم، أنا بس جوعان، بدي آكل وما راح استحي منك، إنت بتقربيني» [ضحك].

مكثْتُ ليلة في منزل أمّ غياث، في اليوم التّالي سألْتُ عن زوجي، فقالوا إنّه سيأتي عندما ينتهي من عمله، غضبت وخفت من أن يكون قد مات في التفجير، لكنّه أتى بعد ساعات... كان لقاؤنا رائعاً، فرحت برؤيته حيّاً. كان قد بدأ يتشافى، يستطيع المشي مع عرجة خفيفة. أحسست أنّي ولدت من جديد، أخذني إلى معرّة النّعمان حيث كان يسكن، نزلت في بيت مجهّز إلى حدّ ما. لقد استقرّ زوجي في معرّة النعمان حيث كان طبيبُه الذي تابعه، وعملُه أيضاً. لكنّي أحسست بالوحدة بعد فترة، فلا يوجد أحد من أهالي الزبداني هناك. كنت

أيضاً بحاجة إلى عمل، فالوضع المادي كان سيّئاً. كان من الصعب إيجاد عمل في معرّة النعمان، خاصة أنّني لا أملك أوراقاً ثبوتيّة ولا شهادات، فقد بقيت في المنزل في الزبداني. هل تذكرين عندما قلت لك إنّ زوجي أراد إحراق المنزل في الزبداني بكلّ ما فيه قبل خروجنا؟ لم يستطع فعل ذلك لأنّه أصيب وقتها، وبقيت كل أوراقنا في المنزل. تجمّع معظم أهالي الزّبداني في إدلب المدينة، وتواصلْتُ مع البعض، وأمّنوا لي عملاً مع منظّمة إغاثيّة عملت فيها سابقاً في مكتبها في مضايا، لذلك لم أحتج إلى أوراقي. قرّرنا أن ننتقل إلى إدلب، وعملْتُ هناك في برنامج للدّعم النّفسي مخصّص للتخفيف من آثار العنف الذي عانى منه اليافعون واليافعات ممّن تهجّروا وتهجّرن من الزّبداني.

بعد أن استقرّينا في إدلب، طلبْتُ من أبي أن يستخرج لنا وثائق جديدة، فاضطرّ والدي إلى بيع قطعة أرض كي يستطيع دفع تكاليف الرّشاوى لإتمام المعاملات، وتيسّرت الأمور والحمد لله. كنت حاملاً وأنجبت ابني الثّاني وكانت فرحتي به كبيرة. في عام ٢٠١٩، بدأ القصف على إدلب، وعاد الكابوس القديم مرّة أخرى.[xxxvii] اقتحمت قوّات النظام الكثير من المناطق حتّى وصلوا إلى منطقة سراقب. قررّتُ الرّحيل، لأنني لم أكن جاهزة أبداً لسماع صوت الطائرة وقذائفها، أو أن أعيش الخوف مرّة أخرى. انتقلنا إلى عفرين، وما زلنا فيها حتّى الآن.

عفرين هي ملجئي، أحبّ ناسها، وأحسّ أنها صورة مصغّرة عن سوريا. أعمل هنا وأعيش تفاصيل حياتي اليوميّة كلّها في هذا المكان. أحسّ بالأمان في بيتي، لكنّني أشعر أنه ليس بيتي الحقيقي، ولا حتى المخدّة التي أنام عليها هي مخدّتي، لكنّني أنتمي إلى هنا أكثر من إدلب، فأنا أرفض أن يفرض عليّ أحد قيوداً، وأن يعلّمني ما هو الإسلام، إنّه ديني أنا وأعرف جيّداً كيف أكون مسلمة. لكنّني لن أخفي أنّي أحسّ بغصّات كبيرة هنا، ولا أستطيع أن أتحدّث عن ذلك لأسباب أمنيّة.

---

xxxvii نزح أكثر من ٢٣٥ ألف شخص خلال أسبوعين جراء التصعيد العسكري الأخير في محافظة إدلب بشمال غرب سوريا، وفق ما أعلنت الأمم المتحدة الجمعة (٢٧ كانون أول/ديسمبر ٢٠١٩)، تزامناً مع تكثيف قوات النظام وحليفتها روسيا وتيرة غاراتها على المنطقة.
هذا الشرح مقتطع من تقرير ل DW العربية بعنوان «الأمم المتحدة: نزوح ٢٣٥ ألف شخص من ادلب بسبب القصف الأخير» ٢٠١٩

أنــــــــــــه ليــس بيتــــــي الحقيقي
ولا حتــى المخــدّة التي أنام عليها هي مخدّتي

«ما بدّي إطلع من مضايا.»

قد لا أعود إلى الزّبداني أبداً.

كيـــــــــــــــــــــــــــف أعــــود إلى مكـــــــــان لــم يعـــد لي؟

لم يقل لي أحد: سأشتــــــــــــــــــــاق إليـــك،
أو سأدعو لك أن تصلي بالسّلامة!
صعدت .... كالغريبة

مشيـــــــــــــــت وابنـــي إلى تلّـــــة تطلّ على الزبّــــــداني،

ودّعت بلدي

ماذا حلّ ببيتي في الزبداني وما هي العدالة؟

دُمّر قسم كبير منه وبقيت فيه غرفة واحدة صالحة للسكن. تقطنه الآن عائلة قد دُمّر بيتها كليّا، تواصلوا معنا وسألونا إن كنّا نقبل أن يعيشوا فيه. إن البيت مسجّل باسم ابني الأكبر، وهبه إيّاه جدّه قبل أن يموت في حصار مضايا، ووافق كلّ أعمامه على ذلك. سألت ابني إن كان يريد أجرة من العائلة التي تسكن بيته، فرفض وقال إن والده كان يحبّ تلك العائلة وسيكون فرحاً في قبره إن لم يتقاض أي أجر ماديّ مقابل سكنهم في البيت.



خريطة المكان باستخدام غوغل إيرث

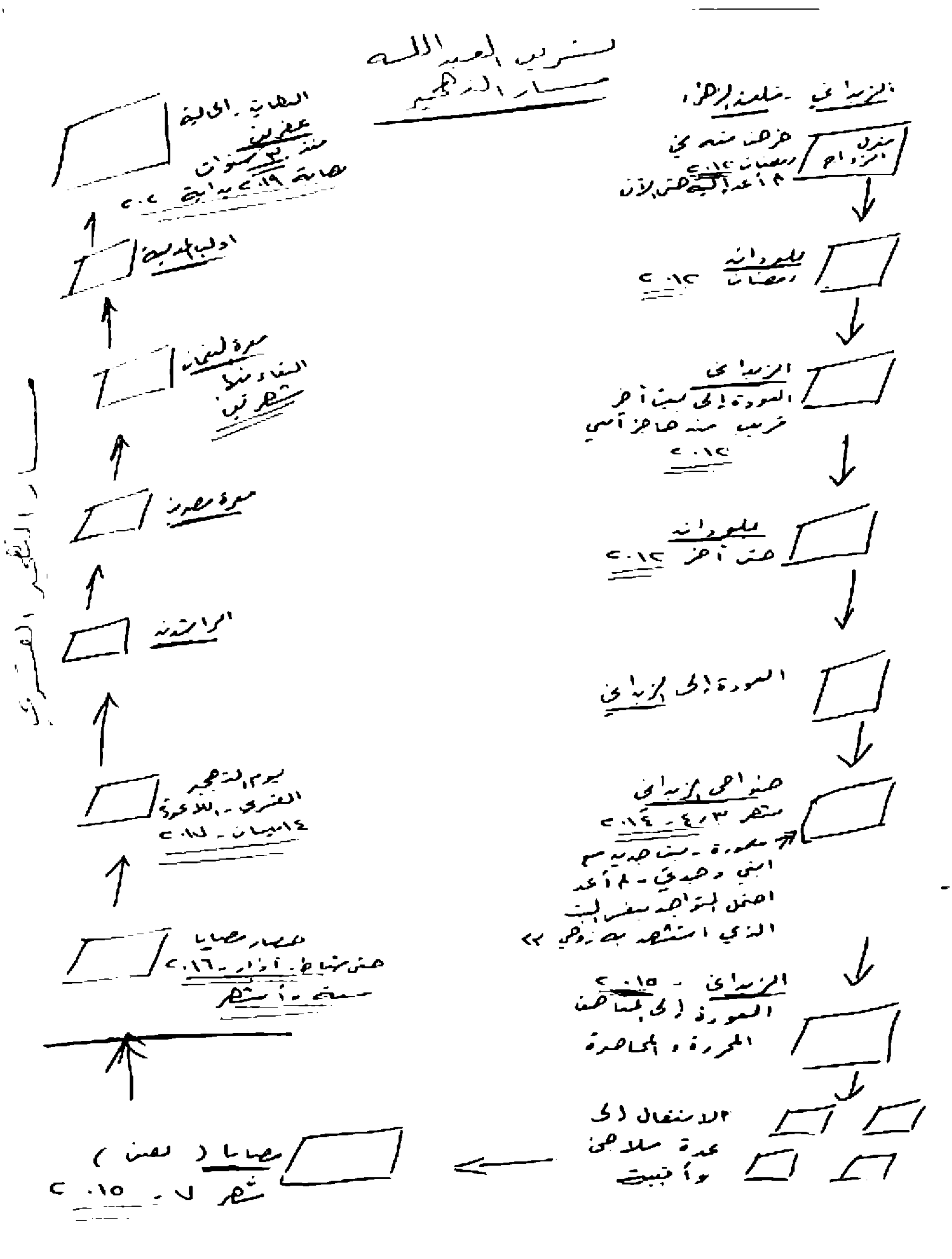
أشتاق لذلك المكان كثيراً، وأهديه أغنية فيروز «وحدن بيبقوا» أحسّ أن الزبداني مشتاقة لكلّ أبنائها وبناتها، إلى الأطفال يلعبون في الطّرقات، يغسلون وجوههم بمياه ينابيعها، إلى النّساء يتمشّين بين الحارات، ويجمعن نبتة الخبّيزة من الأراضي.

لا أعرف إن كان يمكن أن تتحقّق العدالة، أريد حضن أبي، أن أجلس معه بجانب قبر أمّي لتبادل الأحاديث معها، كما كنّا نفعل عام ٢٠١٢. كنّا نأخذ الشاي إلى قبرها مع ثلاث كاسات، فهي كانت تحبّ الشّاي أيضاً. هل يمكن أن يتحقّق ذلك؟ أريد أن تتمّ محاسبة النّظام السّوري على كلّ قطرة دمّ سالت وعلى كلّ دمعة بكيناها أنا وابني... هل يمكن أن يتحقّق ذلك؟



رسم تجريدي لأمنية نسرين بأن تعود وأبيها للجلوس أمام قبر أمّها في الزبداني للتحدّث معها وشرب الشاي

مسار تهجير نسرين العبدلله حتّى تاريخ رواية قصّتها



أريد أن يكون اسمي فيـــروز...

تاريخ سرد القصة: تموز/يوليو ٢٠٢٢

أنـا والـمكان عندمـا كنّـا سـويــــــة
أنــا وعائلتــي والاقتـحامات في عـــــام ٢٠١١
سجــاد بيتـــنا على سبـــطانــة الدّبــابــــة
كنــت مدرّســـة للطّالبات والطلّاب في مضايا...
لكنّ القنّاص كان له رأيّ آخر
أنــا وحصـــار مضـــايـــا وزواجـــــي
الجـــوع ووســائــل البــقاء في حصــار مضايا
الوداع الأخيـــر لمضايـــا والتهـجير إلى إدلب
الـنظام السّــوري وهيـــئة تحريـر الشـــام
كلاهما حرماني من إكمال دراستي
بانتظار شخـــص لا أعرفه، ليــأخذنـــــي
في طريق مجهول
بيـــن الإقـــــامة والـــــــولادة ...
بين مرسيــن وبورصـــة
أخـــي وزيارة أمـّي وعودتي إلى الريحانيّـــة
وحــــــدة وتحـــــرّش وابتـــزاز...
لكنني لم أقف مكتوفة اليدين
من أنا الآن وما علاقتي بالأماكـــــــــن
مسار تهجير فيروز حتى تاريخ رواية قصتــها

أنا والمكان عندما كنّا سويّة

أنا من مضايا، عمري ثمان وعشرون سنة. عشت معظم فترات طفولتي ومراهقتي في الزبداني، المنطقة المجاورة لبلدتي مضايا، وسكنت في بعض السّنوات في دمشق. عدت لأعيش في مضايا بعد الثّورة في ٢٠١١ لأسباب كثيرة سأذكرها كلّها إن استطعت ترتيب ذاكرتي. أمّا الآن، فأنا أعيش في تركيا، لديّ أطفال وزوج، أدرس في الجامعة وأعمل منذ بضعة أشهر مع منظّمة النّساء الآن.

سأتحدّث عن الأماكن التي عشتُها وعايشتني طوال فترة حياتي، رغم أنّي ما زلت في الثامنة والعشرين. سأتحدّث عن بيت الطّفولة... ولدت في بيت جميل كان لأمّي النّصيب الأكبر من تجميله والحفاظ عليه.

قبل أن تدخلي، دعيني أصف لك أشجار الجوز، أشجار عملاقة كانت تحيط بيتنا، تسلّقْتُ الكثير منها. كان موسم الجوز يأتي عادة مع بداية المدارس، وكم كنا نحاول ألّا نتصبّغ بحناء الجوز قبل بدء دوام المدرسة. بعد أشجار الجوز، هناك درج كما المسارح، عبارة عن ثلاث درجات ومنصّة لمدخل البيت. في الحقيقة كانت منصّة لألقي عليها أشعاري دائماً. لم أخبرك أنّني كنت موهوبة جدّاً في إلقاء الشّعر... على تلك المنصّة شجرتا سروٍ صغيرتان مقلّمتان بشكل دائري جميل يظهر اهتمام أمّي بأدقّ التّفاصيل.

تدخلين لتجدي صالوناً كبيراً تتوزّع حوله الغرف يمنة ويسرة... احتضن ذلك البيت الكثير من ذكرياتنا وذكريات طفولتنا وشقاوتنا، كما كان بداية لرحلة أبي وأمّي معاً.

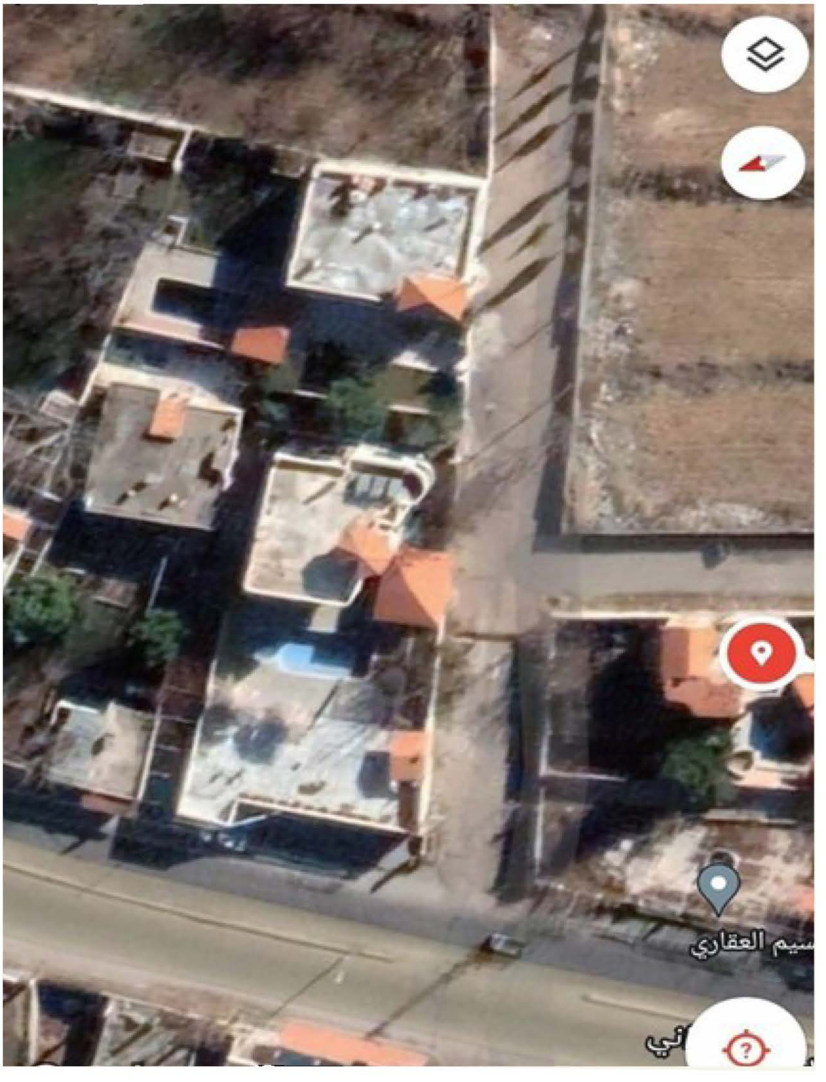
قرّر والداي زيادة مساحة البيت، عن طريق بناء طابق إضافيّ. في الرّيف لا تبنى البيوت دفعة واحدة، بل تتمّ توسعتها كلّما وسّع الله الرّزق على عباده. راقبت تفاصيل البيت الجديد بعناية، وكذلك العمّال أو «المعلمين» الذين وجدتهم قد أتقن كلّ منهم مهنته بشكل لافت. (العمّ أبو محمد، العم أبو جعفر وأبو علي) كلهم ألقيت عليهم من الشّعر الذي أحفظه، واستمعت لأغانيهم وزجلهم.

انتهى بناء البيت، كان حديثاً بمقاييس ذلك الوقت؛ أرضيّات رخاميّة وشبابك واسعة وشرفة كبيرة لها قناطر، تطلّ على سهلنا البديع. عشنا في ذاك البيت خمس سنوات أعتبرها من أجمل سنوات حياتنا، ربّما لأنّنا كنّا سويّة. لم يكن قد ذهب أحد منّا إلى دمشق للدّراسة ولم يتغرّب أيّ منا، جمعنا ذلك السّقف كما لم يجمعنا أيّ سقف بعده.

مرّت خمس سنوات ليعود الرّزق ويدقّ بابنا ويقرّر أبي مدفوعاً برغبة أمّي بناء «فيلّا» وهو مصطلح متداول للبناء المستقلّ ذي الطّوابق المتعدّدة. الفيلّا في ريفنا لا تعني فقط بناء، بل هي شيء تصنعه الأيادي لتفتخر به. أبدع أبي الذي لم يكمل تعليمه، بسبب يتمه وهو صغير، في بناء البيت، وأبدعت أمّي المدرّسة التي كرّست حياتها لعائلتها في بناء الفيلّا، فكان ذلك البيت ثمرة انسجام بينهما في زواج عمره أربعون عاماً.

سأحدّثك عن طرفة قبل أن أكمل، بينما كان أبي يحفر أساسات البيت، قرّر عمّي أنّ جدّنا الأكبر دفن كنزاً في هذه الأرض، ولم يهدأ له بال حتّى جلب رجلاً من دمشق يحمل اثنتين من العصي مصنوعتين من المعدن، عليهما أن تتعانقا عندما تجدا الكنز، لكنّني أعتقد أنّهما كانتا متخاصمتين، فلم تقتربا ولم تتعانقا أبداً|ضحك|.

سأشارك موقع بيتي معك على الخريطة لأنّني أبحث عنه وأتفقّده دائماً. هو على الأوتوستراد الرّئيسي بين دمشق وبلودان، بجانب مطعم فلوريدا. لقد أعطت الدولة اسماً لشارع بيتنا «عقبة بن نافع»، كم فرحت بهذا الاسم، فنحن في مناطق الرّيف لا نتعامل أبداً بأسماء رسميّة للشّوارع أو الحارات، وحتّى بعد أن أُطلق هذا الاسم على شارعنا، لم يتداوله أحد، لكنّني كنت فرحة به.



شاركت فيروز موقع البيت بنفسها معنا خلال العمل البحثي.

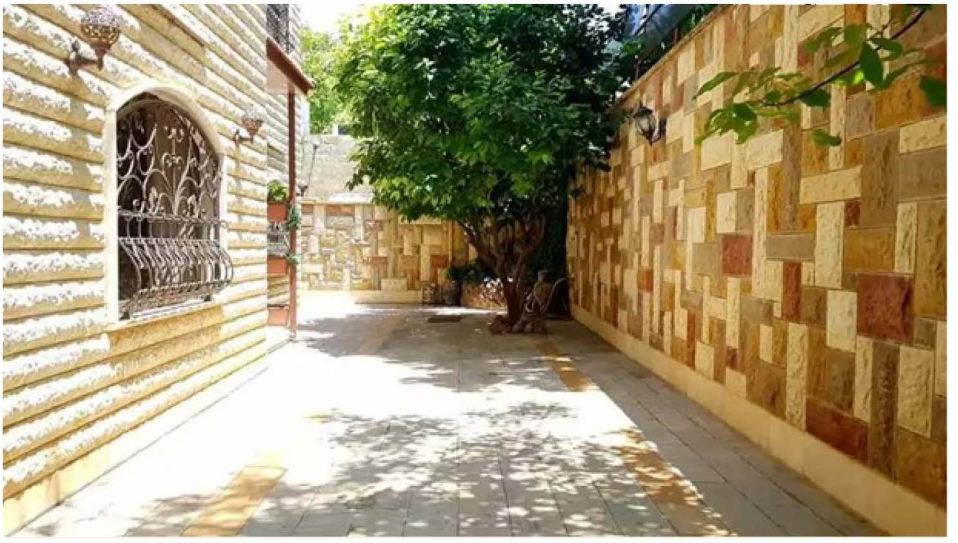
بيتنا ذاك كان جميلاً بشكل استثنائي، فيلّا من طابقين ومسبح أيضاً، نقش أبي فيه أحرفاً من أسمائنا. رفض أهلي بيعه حتى الآن، فهو بيت العائلة، على الرغم من أنّهم باعوا الكثير من الأملاك خلال الثورة، وأنّ الجيش احتلّ بيتنا لفترة طويلة وخرّب عناصره وكسّروا الكثير من زواياه، إلّا أن أهلي قرّروا الاحتفاظ به بعد أن استرجعوه. حتّى الآن، أنظر وأتأمّل صور البيت كثيراً، غرفتي، التراس، المسبح، بصراحة لا يمكن أن أرى بيتاً أجمل ولا أكثر دفئاً من بيتنا [ضحك].

عند الدخول من كراج السّيارة، ترين أمامك شجرات مانجا، خرما، مشمش وجوز. لشجرة المشمش ذكريات خاصّة لأنّني كنت أتسلّقها دائماً لأصل أحياناً إلى الطّابق الثّاني |ضحك|. بعد تلك الشّجرات ستجدين شلّالاً صناعيّاً من الحجر وحوله ورود ونباتات تفانت أمّي بزراعتها والاعتناء بها. كم كان تناول فنجان القهوة هناك سحريّاً! يبدأ البيت بصالة الاستقبال، وغرفة المعيشة «السّفرة» وهناك مجلس عربي. عندما يأتينا الضّيوف، يجلس الرّجال في صالة الاستقبال والنّساء في المجلس العربي الذي بجانبه المطبخ والحمام.

هكذا نكون قد انتهينا من الطّابق الأوّل، لنصعد درجاً قامت أمّي بتبديله أربع مرات ليأخذ الشّكل الذي أرادته ونصل إلى الطّابق الثاني فيستقبلنا «السّبَت» الذي ورثناه من جدّتي الرّابعة (جدّة، جدّة، جدّة، جدتي) وهو صندوق كبير مزخرف بالموزاييك ومطعّم بالفضّة، فوقه السّيوف العربية وسيف جدّي، وتحته مشغولات يدويّة من السّجّاد، وقطع نحاسيّة ورثناها مثل أباريق القهوة وأدوات تحميصها.

يبدأ الطّابق الثّاني بمطبخ ملتفّ ذي طابع أمريكي، ثمّ فسحة نجتمع فيها نحن الإخوة والأخوات عندما نخرج من غرفنا |فرح|، تليها مكتبة صغيرة، وتقابلها غرفتي وغرف إخوتي وأخواتي الكبار، ثمّ غرفة إخوتي الصّغار الذين كبروا الآن. قضيت وقتاً طويلاً في غرفتي ذات الحيطان الّصفراء والقرميديّة التي اخترت ألوانها بنفسي، لكنّني طلبت من أبي لاحقاً أن يغيّرها لأنّ ما مزجه الدّهّان لا يشبه الألوان التي طلبتها حينها... أمّا الآن، فأنا أعشق تلك الألوان مهما كانت قبيحة.

كنت أحبّ غرفة أختي الكبرى وأقضي ساعات طويلة من اليوم فيها، كنت أهرب إليها عندما كانت أمّي تطلب منّي البقاء في غرفتي كي أدرس |ضحك|، بصراحة كانت لها غرفة مميزة.



صورة لمدخل بيت فيروز في مضايا، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.



إطلالة من شرفة غرفة أخت فيروز، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.



صورة للباب الرئيـسي لبيـت فيروز في مضايا، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.

عندما نجحت في الصّف التّاسع ونجحت أختي في صفّ البكالوريا، أقام لنا أهلي حفلة عند المسبح، كم أحبّ تلك الحفلة وكم كانت سعادتي عارمة حينها، فقد أحسست لأوّل مرّة أنّني محور لمناسبة سعيدة صاخبة. في تلك الأيّام كنت فيروز التي تفعل كلّ شيء بصمت ولا تعارض أحداً، تبكي بسرعة وحسّاسة إلى أبعد الحدود، بل إنّني كنت فتاة غير اجتماعيّة إلى حدّ ما، ليس لي إلّا دراستي وكتبي، حتّى أعمال البيت لم أكن أتدخّل فيها. الآن أدرك كم كانت أيّاماً جميلة وكلّها رفاهية، أو قد تكون طبيعيّة لفتاة في عمري لكنّني إذا ما قارنتها بما حصل لاحقاً، فهي حتماً أيّام ملؤها الأمان والحبّ والبساطة، وأنا أشكر أهلي كثيراً على تلك الأيّام واللّحظات، وتلك الحفلة الرّائعة لأنّني لاحقاً لن أحظى بأيّة احتفالات حتّى عند زواجي...



صورة لمسبح بيت فيروز، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.

أمّا مضايا، وعلى الرّغم أنّني كنت أعيش فيها، إلّا أنني لم أنخرط في جوّها أو أتعرّف عليها في طفولتي. كان والدي يخاف علينا من بعض المخاطر فيها، فقد كان فيها الكثير من أعمال التّهريب، فهي منطقة حدوديّة مع لبنان، لذلك كنّا أنا وإخوتي ندرس في مدرسة في الزبداني. درست في مدرسة الزبداني للفتيات، كان لزاماً علينا أن نأخذ حافلة كلّ يوم في الذّهاب والإياب منها وإليها. تعدّ سنة البكالوريا سنة مصيريّة لكلّ طالب وطالبة في

سوريا، فكيف لطالبة من الرّيف، يعرفها الجميع ويترقّبون نتائجها، "ابنة فلان حصلت على كذا وابن فلان جمّع كذا» كان هذا الحديث يستمرّ لفترة طويلة بعد إعلان النتائج، الأمر الذي جعل هذه السّنة معياراً للنّجاح أو الفشل على مختلف المستويات والأصعدة، لذا كنّا نجهد في البحث عن مدرّسين متميّزين ومدرّسات متميّزات. وعندما علمت بانتقال مدرّس مبدع إلى ثانوية مضايا انتقلت إليها. لم يكن ذاك الانتقال سهلاً عليّ في البداية، فقد عاملتني الطّالبات والطلّاب وكأنّني قد أتيت من بلد آخر. يبدو أنّ لباسي كان مختلفاً، إضافة إلى أنّني كنت مجتهدة جدّاً في الدّراسة ومن عائلة معروفة، فلم يتقبلني ويتقبّلوني في البداية بشكل جيّد، لكنّ تلك التّجربة صقلت شيئاً ما في شخصيّتي التي بدأت تتغيّر وتزداد قوّة، خاصّة أنني كنت في مدرسة مختلطة فيها شباب وبنات لأوّل مرّة.

كم كانت أيّاماً جميلة وكلـّهـــــا
رفـاهيـــــة

كـــــم كـان تنـــاول فنجـــان القـهـــــــــــوة **هـــــنـــــــاك**
ســحـــريــّــــــــاً !

فـيـــــلاّ من طابقيـــــــــن **ومسبـــــــــح** أيضاً،
نقـش أبـــي فيـــه **أحرفـــــاً من أســـــمائـنـــــا**

جمعنـــــــــا ذلـك السّــــــــقـف
كمـــا لـم يجمعنا أيّ سقــــــــف بعــــــده.

شجـــــرات
مانجـــــــا،
خـرمــــــا،
مشـــمـش
وجــــــوز

بصــــــــــــراحة لا يمكــن أن أرى بيتـــــاً **أجمـــــــــل** ولا **أكثــــــر دفئـــــاً**

من بيتـــنـــــــــا

أنا وعائلتي والاقتحامات في عام ٢٠١١

لقد تابعت مع إخوتي وأخواتي وأهلي ثورات الرّبيع العربي قبل أن تبدأ الثّورة في سوريا، فأنا من عائلة قد نال بعض أفرادها نصيباً كبيراً من الاعتقال والتّهجير في أحداث الثّمانينات، وتربّينا نحن الأطفال على الخوف من النّظام السّوري ومن قدرته على الظّلم والقهر. أبي الذي عاصر النّظام السّوري واعتُقل في الثّمانينات لإجبار أخيه على تسليم نفسه، كان فرحاً بما يحدث في الدّول العربيّة، لكنّه كان متوجّساً من حدوث ثورة في سوريا وكان يقول «أنتو ما بتعرفوا مع مين عم تتعاملوا» لإدراكه حجم القسوة والعنف الذي سيتلقّاه الشّعب السّوري لو خرج إلى الشّارع مطالباً بإسقاط هذا النّظام.

في عام ٢٠١١ كنت طالبة في جامعة دمشق، كان يجب أن أستيقظ وإخوتي باكراً حوالي الخامسة، فبيتنا متطرّف وبعيد، ونحتاج إلى وقت لتجهيز أنفسنا والمضيّ إلى جامعاتنا ومدارسنا. وفي اليوم السّادس من شهر أيّار/ مايو عام ٢٠١١، رأيت الجيش والسّيّارات تتجمّع حول البيت، اقتحموه بشكل عنيف، لم أكن أنا أو إخوتي قد ارتدينا ثيابنا بعد. كانت أوّل تجربة لنا مع الاقتحامات، لا يطرقون الباب، بل يقفزون عن الجدران، وهذا ما جعلنا غير قادرات أو قادرين على التقاط أنفاسنا أو استجماع أفكارنا لفهم ما يحدث. كان يتقدّمهم شخص يضع لثاماً على وجهه، فيما بعد أصبح يطلَق عليه المُخبر، وهو شخص مدني يرافق قوّات الجيش ليدلّهم على البيوت، «هاد بيت فلان وهون بيعيش فلان.» دخلوا بأحذيتهم العسكريّة وأصواتهم العالية، لم نرَ كيف اقتادوا أبي، مباشرة وضعوا «كنزة البيجاما» معكوسة على رأسه لمنعه من الرؤية، صرخت: «أبي» قال عسكري «هلق بيرجع» لكنّه لم يعد إلا بعد ثلاثة أشهر.

تجوّلوا في البيت، فتّشوا كل شيء بهمجيّة، سرقوا كلّ ما خفّ وزنه وزادت قيمته.

سأل الضّابط أمّي: «مانكن خايفين؟» أجابت: « ليش بدنا نخاف!»

فأجاب باستغراب: «كيف عايشين بهيك بيت؟ وبدكن ثورة؟ أنتو بتعرفوا العالم كيف عايشة؟»

لم تجب أمّي على سؤاله، فقد كان همّها أن تعرف مصير أبي. بدأت أمّي مباشرة بالاتّصال بمعارفنا ممّن يستطيعون التدخّل لإخراج أبي من المعتقل أو معرفة ماذا سيحصل له، وبقينا في البيت لمدّة خمسة أيّام كاملة حتّى انتهت الحملة. منعتنا أمّي في تلك الأيّام من التحرّك أو حتّى من إشعال ضوء في البيت، خافت علينا نحن الفتيات بشكل خاصّ، حتّى إنّها طلبت من أحد الأقارب أن يأتي ويأخذنا، لكنّنا لم نذهب. كذلك طلبت أمّي من أخي أن يبقى في دمشق خوفاً من أن يتمّ اعتقاله هو أيضاً.

وبعد شهر من نهاية الحملة، جاءنا الاقتحام الثّاني، وخلاله اعتقلوا أخي، وأصبح أبي وأخي في المعتقل. كم بكت أمّي وكم طلبت منهم أن يأخذوا كلّ شيء ويتركوا لها ابنها، لم أرها منهارة كما كانت حينها. اكتأبنا جميعاً على حالنا وحال أبي وأخي اللذين لا نعرف عنهما شيئاً، وانتقلنا حينها لمدّة عشرة أيّام إلى بلودان لنبتعد قليلاً عن البيت، فقد كثرت الاقتحامات عليه لوجوده في واجهة مضايا. عدنا إلى البيت، وبعد أيّام خرج أبي من المعتقل، كانت فرحتي كبيرة لكنّ صدمتي أكبر، فأبي الذي يزن مائة كيلوغرام وطوله فارع، خرج نحيلاً بطريقة غريبة، مقهوراً، صامتاً، لم يحدّثنا عن أيّ شيء حصل معه في المعتقل. على عكس أخي الذي خرج بعد أربعة أشهر من اعتقاله، كان حاله صعباً، لكنّه تحدّث كثيراً عمّا حصل معه، ربّما لأنّه كان الاعتقال الأوّل له.

لقد حدّدت موقفي بعد خروج أبي من المعتقل، فلا حجّة لي ألّا أقف ضدّ الظّلم، أنا مع الثورة وضدّ النّظام، وسأبدأ بالمشاركة في المظاهرات... لن أسكت بعد الآن.

سجّاد بيتنا على سبطانة الدّبابة

في شباط/ فبراير من عام ٢٠١٢، شنّت قوّات النّظام أوّل حملة عسكريّة على منطقة مضايا، تركنا البيت واستأجرنا منزلاً في بلودان مع عائلة خالتي وعائلة أخرى. كان البرد قارساً في ذلك المنزل غير المدفأ في شهر شباط المعروف ببرده الشديد وثلجه في مناطقنا. علمنا أنّ الجيش قد استقرّ في بيتنا خلال الحملة، فانتظرنا حتّى انتهائها، ظنّاً منّا أنّ عناصر الجيش سيغادرونه، لكنهم لم يفعلوا. ذهب والدي ووالدتي إلى البيت وتحدّثا مع عناصر الجيش

عـن سـبب بقائهـم، وقـالا لهـم إنّنـا نريـد أن نعـود إلى البيـت، فأجابوهمـا أنّ هـذا البيـت كان يسـكنه مسـلّحون. قالـت لهـم أمّـي إنّ هـذا الـكلام كـذب وإننـا نحـن العائلـة مـن كنّـا نسـكن البيت، فقال لها أحد العناصر: «كلمة تانية بوجّه الدّبّابة على البيت»... سكتت أمّي وقالت لهم إنها لم تعد تريد شيئاً، وخرجت هي وأبي. اضطررنا بعدها للانتقال إلى منزل في نفس منطقة مضايا، وكان أبي في محاولات مستمرّة لإيجاد طريقة لإخراج الجيش من البيت، وبعد عدد كبير من المحاولات ودفع الأموال الطائلة لمن توسّطوا لحلّ تلك المشكلة، خرج منه عناصر الجيش.

أصابنا الذّهول من منظر البيت عند عودتنا، رأينا الدّبّابة تخرج وسجّاد بيتنا على سبطانتها. وجدنا البيت فارغاً تقريباً من كلّ أغراضنا ومفروشاتنا وصورنا وملابسنا، طاولة الطّعام في الخارج محروقة، زوايا البيت فارغة، الحيطان مليئة بعبارات انتصار الجيش السّوري. سرقوا كل النّحاسيّات والتّحف التي كان أبي قد ورثها أو جمعها، وأحرقوا كلّ ما عجزوا عن حمله. تركوا فقط جزءاً من الكتب، أمّا الجزء الآخر فقد أحرقوه وتدفّأوا به.

أحد العساكر عرض على أمّي أن تشتري منه الأغطية التي سرقها من البيت، قالت له: وهل تبيعني أغراضي؟ فقال لها: نعم! كبتت قهرها واشترت منه بعض أغطيتها.

نحن هنا في الشّهر السّادس أو السّابع من ٢٠١٢، في تلك الفترة كنت ما أزال قادرة على الذّهاب إلى دمشق، فالطّريق إليها كان ما يزال مفتوحاً. علمت أنّ هناك سوقاً في دمشق تُباع فيه الأغراض المنهوبة من قبل الجيش السوري والأمن، ذهبت إليه، أبحث عن تحف ونحاسيّات بيتنا، فوجدت طاحونة القهوة النّحاسيّة، اشتريتها بثلاثة آلاف ليرة سوريّة، عدت إلى البيت وقلت لأبي وشعور النصر يعتريني «استرجعتلك غرض بتحبّه».

كان وضع بيتنا مزرياً، يحتاج إلى تصليحات كثيرة ومن الصّعب أن نعيش فيه مع كلّ الخراب الذي خلّفه عناصر الجيش، فعدنا إلى المنزل الذي كنّا قد استأجرناه سابقاً في مضايا، لكنّ أمي بقيت تذهب كلّ يوم إلى بيتنا في محاولة ترميم ما يمكن ترميمه أو إحضار عمّال لتصليحه. كانت تعود ليلاً لتنام معنا فقط، لقد تأذّت نفسيّاً كثيراً، ممّا حدث في البيت، وصار محتّماً عليها الذّهاب إليه يومياً وإلّا شعرت بالضيق، وكأنّ قطعة من روحها قد أُخذت منها.

ثورتي، اعتقالي الأوّل ثمّ المصالحة مع الوطن

أصبح من الصّعب الذّهاب إلى دمشق يوميّاً، لذا أقمتُ في سكن للفتيات تابع لوزارة الأوقاف في منطقة كفر سوسة في دمشق. كان السّكن مؤلّفاً من عدّة طوابق، الطّابق الأوّل يضمّ الإدارة والمكتبة، والثّاني لطالبات المدارس والثّالث لنا نحن الطّالبات. كان لزاماً علينا أن نتقيّد بلباس معيّن، فلا يجوز ارتداء البنطال حتّى أثناء النوم، ويجب أن نلتزم بقواعد صارمة للاستيقاظ والنّوم للقيام بالفروض الدّينيّة التي تتوافق فقط مع نهج «القبيسيّات.» لم أستطع الاستمرار تحت هذا الضّغط، لذا عدت للبحث عن سكن في دمشق، فوجدت بعض زميلاتي يسكنّ في بلدة المليحة القريبة من دمشق. كانت الخدمات فيها شبه معدومة، سكنت في منزل عربي صغير، فوضوي التّصميم وليس فيه صرف صحّي. لم أستطع إكمال أسبوع واحد، وانتقلت إلى منزل آخر في منطقة المزّة، وهو آخر منزل سكنته في دمشق. تشتهر منطقة المزّة بالأوتوستراد العريض والأبنية الدمشقيّة الجميلة، ولكن خلف تلك الأبنية كانت آلام السوريّين والسوريّات تمتدّ وتختبئ في بيوت صغيرة، كان الأوتوستراد واجهة للفقر والتّعب الذي كنت أجهله عن أهلي وبلدي. تعرّفت على طالبة في الجامعة يعمل أخوها مع الشّباب النّشطاء، وكم كنت فخورة بمساعدتي لهم. كانت أدوارنا نحن النّساء غير واضحة، ولكنّها مهمّة لقدرتنا على عبور الحواجز العسكريّة والأمنيّة حينها، بينما كان ذلك عصيّاً على الشّباب.[xxxviii] لم أستطع المضّي في مساعدة النشطاء بسبب مداهمات قوّات الأمن للمناطق التي كانوا فيها. كانت هناك حملات عسكرية على مختلف المناطق في دمشق وريفها، ومن ضمنها منطقة الهامة التي ذهب شبّان من بلدتنا وسكنوا فيها للتّنسيق مع باقي الرّيف الدمشقي.

نسيت أن أخبرك عن اعتقالي، لا أستطيع تذكّر الأحداث بشكل متسلسل، لكن في نهاية الشّهر الثالث من عام ٢٠١٢، قرّرنا أنا ومجموعة من الطّلّاب والطالبات رفع علم الثّورة على مبنى كليّة الزّراعة في دمشق. لم يكن لدينا الوعي الكافي بالمخاطر التي يمكن أن نواجهها

xxxviii كان التدقيق الأمني على الرجال والشباب أشد منه على النساء والفتيات عند المرور على الحواجز العسكريّة والأمنية وخاصّة في بدايات الحراك في سوريا.

لقيامنا بمثل هذا الفعل، لم تكن لدينا حتّى خطّة للهرب. اعتقلتني قوّات الأمن مباشرة، وأخذوني إلى مكتب عميد الكلّيّة. تظاهرت بأنّني مصابة بالدّوار كمحاولة للمماطلة، وتعاطف معي العميد قليلاً، واتّصل وأخبر أهلي بأنّه سيتمّ اعتقالي، وفعلاً اقتادوني إلى فرع الأمن الجوّي.

كنت أعلم أنّ اعتقالي سيكون صادماً لأهلي، لكن وفي نفس الوقت، كنت مرتاحة قليلاً لعلمي أنّ أبي لن يتوانَ عن أيّة محاولة لإخراجي. حقّق معي شابّان، أحدهما اسمه علاء والآخر قصي، اكتشفت لاحقاً أنّهما طالبان في الكليّة، كان هدفهما أن أعطي اسماً من أسماء الطّلّاب والطّالبات اللواتي شاركن معي، وخاصة الطّالبات. يريدون اسم طالبة أخرى، كنت متوترة كثيراً وخلطت الأسماء ببعضها وأعطيتهم أسماء غير صحيحة.

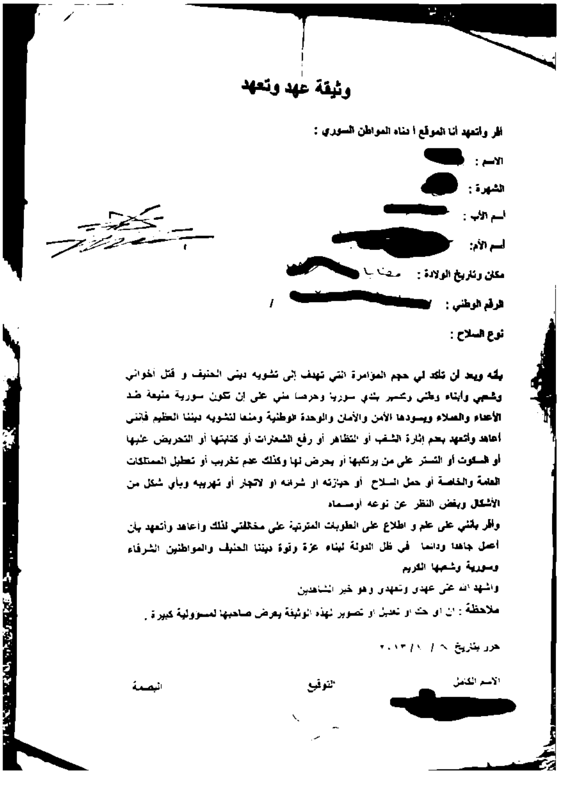
كانا يوجّهان لي جملاً قاسية لإخافتي، مثل: «إنت بتعرفي إنه مجرّد دخلتِ لعنّا شو راح يصير فيكي؟ ما حدا راح يتطلّع فيكي أو يقلّك مرحبا»، وجملة أخرى «بتعرفي شو ممكن نعمل فيكي قبل ما نرجّعك لأبوكي؟»

كم كان بشعاً وقاسياً ذاك الكلام، وكم كان وتراً حسّاساً ذلك الذي ضربوا عليه. وضعوني في غرفة منفردة طيلة شهر ونصف وقبل أن أخرج استدعاني عميد الفرع الأمني إلى مكتبه المليء بالكنبات الجلديّة، كان ممنوعاً أن أرفع رأسي أو أنظر إليه «نزّلي راسك»، كنت ما أزال ساذجة في تلك الفترة، فقد طلبت منه أن نتناقش، فأطلق عليّ خطبة رنّانة بأنّه لن يتناقش مع من أنكرت النّعمة، نعمة التّعليم المجّاني في الجامعات السّوريّة، وأنّه محبط بأنّ طالبة جامعيّة مثلي قد غُرّر بها، وقبل أن أخرج من مكتبه طلب منّي أن أتعاون معهم. قبل إخلاء سبيلي وقّعت على ورقة بيضاء لا أدري ما الذي كُتب عليها. لاحقاً عندما وصلت عند أهلي، أخبرتهم بكلّ ما حدث، فطلبوا منّي أن أنسى أمر الجامعة. لم يعد مسموحاً لي الذّهاب إليها، خوفاً عليّ من أن يُفرض عليّ أي تعاون أمني أو أن أُعتقل مرّة أخرى. دفع أبي حوالي عشرة آلاف دولار كرشوة لخروجي، لأنّه يعلم قسوة المعتقل وأفرع الأمن، خاصّة على النّساء.

فعلاً، بقيت في المنزل الذي استأجرناه في مضايا مع أهلي، وحاولت نسيان الدراسة مبدئيّاً، وتعرّفت في تلك الفترة التي هي نهاية عام ٢٠١٢ على شابّ وسيم من حمص سمعت الكثير عن بطولاته، هذا الشاب أصبح زوجي فيما بعد. في أحد الأيام من عام ٢٠١٣ في أواخر الشهر العاشر، كنت ذاهبة مع أميّ إلى دمشق لشراء بعض الأغراض من أجل خطبتي، وكنّا نتوقّف عند كل حاجز، أعتقد أنّ عدد الحواجز بين مضايا ودمشق كان قريباً من عشرين حاجزاً أو نقطة تفتيش. كان حاجز التكيّة أهمّها، وفيه غرفة لتفتيش النّساء. أنزلونا للتّفتيش وأخذت امرأة متطوّعة مع الأمن موبايلي لتفتشه. لم يكن عليه شيء، لكن للصّدفة رأت صورة واتساب لطفل يرتدي إشارباً مكتوب عليه «لا إله إلا الله» ثم وجدت صورة لقالب حلوى مكتوب عليه كلمة «حرّية.» قرّرت أن توقفني، كانت محتدّة بشدّة، ترجّتها أمي أن تتركنا وشأننا، فردّت عليها بشكل مسيء، فهجمتُ عليها وأمسكت بياقة بدلتها العسكريّة وطلبت منها أن تتحدّث مع أمّي باحترام، هنا جنّ جنونها وأرسلتني وأمّي إلى الضّابط.

نظر الضّابط إلى أوراقنا وبدأ بخطبته العظيمة حول كوني طالبة هندسة، وأنّني يجب أن أكون أكثر وعياً. وفي تلك الأثناء اتّصل به شخص من عائلتي البعيدة، تاجر مخدّرات، كنّا نتحاشى الكلام معه، لكنّه خرج من السّجن مع بداية الثّورة، وصار يرعى ما عُرف وقتها ب "المصالحات.» سمعت حديثهما وفهمت أنّه لا يمكن إخراجي إلّا عن طريق مصالحة أو مبادلة مقابل قطعتين من السّلاح. ساءني كثيراً أنّ من يتوسّط لخروجي هو تاجر مخدّرات وأنّ أبي بالتّأكيد قد اضطرّ إلى طلب تدخّله لإخراجي من تلك المحنة. عادت أمّي إلى مضايا وأخذوني أنا إلى دمشق، إلى القصر الجمهوري في منطقة الروضة حيث تتمّ المصالحات.
كنت الفتاة الوحيدة هناك، أمّا الباقي فكلّهم شباب وكان بعضهم من بلدتي. دُهشت لرؤيتهم، فالمصالحة مع النّظام تعني أن الشّخص سيعترف بخيانته للوطن ويطلب الصّلح. طلبوا منّا تعبئة استمارات، ثمّ دخل العميد وسلّم علينا، وبدأ خطبته بأنّه هو نفسه معارض للحكومة وأنّ أوّل مظاهرة شارك فيها كان بعمر الخامسة عشر. قال لنا إنّنا قد فهمنا معنى الثّورة بشكل خاطئ، وأنّ الثّورات تقوم لإصلاح البلد وليس لإفساده.

لا أدري ما الذي جرى لي، وكيف قلت له: «الشعب اللي انضرب عليه كيماوي ما كانوا فاسدين ولا عصابات مسلّحة، كانوا مدنيين» قال لي: «نعترف بهذا الخطأ الذي أجبرنا على خسارة ترسانة الكيماوي». لقد اعترف أنّهم من ضرب الكيماوي، لا أدري إن كان قد قالها عرضاً أو زلّ بها لسانه، لكنّني أقول هذه القصة لكلّ من أقابله، هذا الضابط قد اعترف باستخدام النظام للسلاح الكيماوي. وقّعنا جميعاً على أوراق المصالحة، أعتقد أنّه ما تزال لديّ نسخة منها. أرسلوا الشّباب إلى مضايا وطلبوا منّي الانتظار، انتظرت بضع ساعات، ثمّ أفرجوا عنّي. عند عودتي، كان أهلي وخطيبي بانتظاري، لا لون في وجه أبي، لم أره بمثل ذلك العجز من قبل، أمّا أمّي فكانت غاضبة جدا منّي، وقالت إنّي ممنوعة من الحركة خارج مضايا. لقد توقّعت ردّ الفعل ذاك من أهلي، خاصّة أنّ شباب الضّيعة الذين عادوا قبلي قد نشروا ما قد حدث وكيف تحدّثت مع العميد. بدأت أحسّ في تلك المرحلة أنّي لم أعد فيروز الهادئة الخجولة، بل فيروز القويّة التي تدافع عن نفسها وعن الآخرين، وفرحت لهذا التّغيير في شخصيّتي.



وثيقة عهد وتعهد

اقر واتعهد أنا الموقع ادناه المواطن السوري :

الاسم : [redacted]

الشهرة : [redacted]

اسم الأب : [redacted]

اسم الأم: [redacted]

مكان وتاريخ الولادة : مضايا [redacted]

الرقم الوطني : [redacted] /

نوع السلاح :

بانه وبعد ان تأكد لي حجم المؤامرة التي تهدف إلى تشويه ديني الحنيف و قتل أخواني وشعبي وأبناء وطني وتدمير بلدي سوريا وحرصا مني على ان تكون سورية منيعة ضد الأعداء والعملاء ويسودها الأمن والأمان والوحدة الوطنية ومنعا لتشويه ديننا العظيم فانني اعاهد واتعهد بعدم إثارة الشغب أو التظاهر أو رفع الشعارات أو كتابتها أو التحريض عليها أو السكوت أو التستر على من يرتكبها أو يحرض لها وكذلك عدم تخريب أو تعطيل الممتلكات العامة والخاصة أو حمل السلاح أو حيازته او شرائه او لاتجار أو تهريبه وبأي شكل من الأشكال وبغض النظر عن نوعه أومسماه

واقر بانني على علم و اطلاع على العقوبات المترتبة على مخالفتي لذلك وأعاهد واتعهد بان أعمل جاهدا ودائما في ظل الدولة لبناء عزة وقوة ديننا الحنيف والمواطنين الشرفاء وسورية وشعبها الكريم

واشهد الله على عهدي وتعهدي وهو خير الشاهدين

ملاحظة : ان اي حك او تعديل او تصوير لهذه الوثيقة يعرض صاحبها لمسؤولية كبيرة .

حرر بتاريخ ٨ / ١ / ٢٠١٣

الاسم الكامل [redacted] التوقيع البصمة

صورة عن وثيقة المصالحة و التّعهّد التي وقّعت عليها فيروز لإطلاق سراحها، شاركتها معنا خلال العمل البحثي



رسم تجريدي لحالة فيروز عندما واجهت العميد

كنت مدرّسة للطّالبات والطّلّاب في مضايا...
لكنّ القنّاص كان له رأيّ آخر

حاولت أن أكون فاعلة في الفترة التي قضيتها في مضايا. كان واضحاً أنّ المستوى التّعليمي للأطفال يتدهور نتيجة الأوضاع بشكل عامّ، لذلك تطوّعت أحياناً بإعطاء الدروس في المدارس، وأحياناً أخرى أعطيت دروساً للأطفال في منزلي. كانت فترة جميلة، أحبّني الأطفال واكتسبت سمعة جيّدة كمُعلّمة، صرت أدرّس مع مجموعة من الشّابّات والشّبّان المعارضين للنّظام في معهد أنشأناه لدعم الطّلّاب والطّالبات في جميع المراحل الدراسيّة بقيت أقوم بذلك حتّى نهاية شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام ٢٠١٣، إذ كنت في أحد أيّام هذا الشّهر في طريق عودتي إلى المنزل، ولم يكن الطريق آمناً، فالجبل الشرقي لمضايا تحت سيطرة قوّات النّظام السّوري وقوّات حزب الله، وكنت أدري أنّ هناك قنّاصاً وأتحاشى أن أكون في مرماه. يبدو أنّني كنت أتحاشاه نفسيّاً فقط، أقنع نفسي أنّي بأمان، لكنّ القناص في ذلك اليوم قرّر أن يطلق رصاصته، وأصابني في بطني.

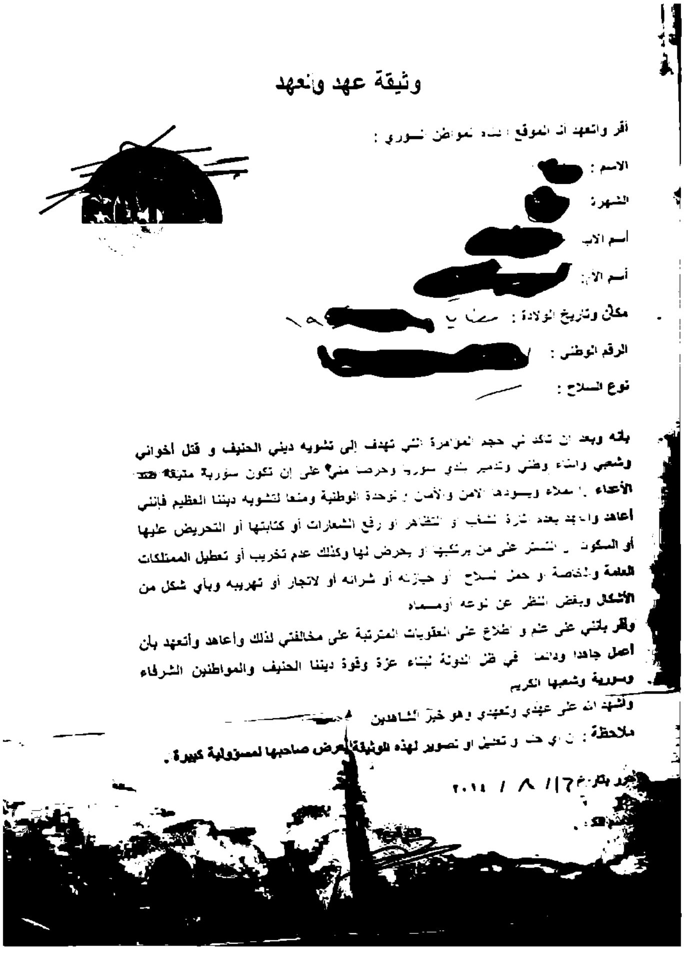
سمع النّاس أنّ القنّاص قد ضرب، وكان خطيبي في بيت أهلي، لقد أحبّه أهلي كابن لهم وهو أحبّهم كثيراً، كان يمضي وقته في منزلنا، حتى لو لم أكن موجودة. هرعوا جميعاً إلى الشّارع، حاول خطيبي حملي لكنّه لم يتحمّل منظر الدّماء التي كانت تغطّيني، فحملني أبي، أمّا أنا فكان الوجع الذي أحسّ به رهيباً، حارقاً، وأذكر أنّني طلبت منهم أيّ مخدّر لتخفيف الألم. استيقظت في المشفى الميداني الذي كان تحت الأرض، وسمعت أنّ الرصاصة قد دخلت أمعائي وأنّي كنت بحاجة إلى عمليّة فتح كامل للبطن. كان هناك نقص في الدّم، وفي التّعقيم، فالمشفى غير مجهّز بشكل جيّد، لكنّ الطّبيب الذي كان هناك، وهو من درعا، عاد من الولايات المتّحدة عندما بدأت الثورة، لخدمة أهل بلده. أجرى لي العمليّة ضمن الإمكانيّات الموجودة، وتكلّلت العمليّة بالنّجاح. لم أتعاف جيّداً بعد العمليّة بسبب نقص الأدوية، فقرّر أبي أن يأخذني إلى مشفى في دمشق، وكانت تلك الفكرة صعبة التّحقيق في

ذلك الوقت الذي صار فيه الذّهاب إلى دمشق ممنوعاً ومحفوفاً بالكثير من المخاطر. اضطرّ إلى التّواصل مع رجال المصالحة، وهم من أسوأ النّاس الذين استغلّوا الأوضاع وبرزوا في تلك المرحلة. سمحوا لي بالتنقّل عبر الحواجز، وقضيت فترة خمسة عشر يوماً في مشفى يافا في منطقة المزّة في دمشق. بقيت أمّي معي في تلك الفترة، لكنّنا واجهنا مشكلة عناصر الأمن الذين علموا أنّي أصبت برصاصة وجاؤوا ليحقّقوا معي، فقالت لهم أمّي إنّ منطقتنا فيها الكثير من الثّارات وإنّ رصاصة قد أصابتني بالخطأ.

عدنا بعد خمسة عشر يوماً إلى مضايا، وكنّا بحاجة إلى واسطة كبيرة أيضاً للانتقال عبر الحواجز. تعبت كثيراً خلال فترة التّعافي، فعمليّة البطن تحتاج إلى فترة طويلة للتّشافي، وجرحي كان بشعاً وكبيراً. بكيت عندما رأيته أوّل مرة ورأيت شكل القطب، وللتّخفيف عنّي قالت لي الممرّضة حينها أنّي سأنسى هذا الوجع وشكل بطني حين أحبل وأنجب الأطفال، فهذا لا شيء أمام الحمل والولادة. أرعبني كلامها ولم يخفّف عنّي أبداً |ضحك|. حصلت مضاعفات للإصابة وتعبتُ صحيّاً حتى بعد ثمانية أشهر، فاضطرّ أبي للتواصل مع رجال المصالحة مرّة أخرى وأصدروا ورقة باسمي، تشبه تماماً تلك التي وقّعت عليها سابقاً عند احتجازي. كان لتلك الورقة تأثير سحريّ على الحواجز العسكريّة والأمنيّة، واستطعت الذّهاب بها إلى دمشق أكثر من مرّة لعلاج المضاعفات.



رسـم تجريدي لحالة فيروز عندما أصابتها رصاصة القنّاص



وثيقة عهد وتعهد

أقر وأتعهد أنا الموقع أدناه المواطن السوري :

الاسم : [redacted]

الشهرة : [redacted]

اسم الاب : [redacted]

اسم الام : [redacted]

مكان وتاريخ الولادة : [redacted]

الرقم الوطني : [redacted]

نوع السلاح :

بأنه وبعد أن تأكد لي حجم المؤامرة التي تهدف إلى تشويه ديني الحنيف و قتل أخواني وشعبي وأبناء وطني وتدمير بلدي سورية وحرصاً مني على أن تكون سورية متيقظة ضد الأعداء والعملاء ويسودها الامن والأمان والوحدة الوطنية ومنعا لتشويه ديننا العظيم فإنني أعاهد وأتعهد بعدم إثارة الشغب أو التظاهر أو رفع الشعارات أو كتابتها أو التحريض عليها أو السكوت والتستر على من يرتكبها أو يحرض لها وكذلك عدم تخريب أو تعطيل الممتلكات العامة والخاصة أو حمل السلاح أو حيازته أو شرائه أو الاتجار أو تهريبه وبأي شكل من الأشكال وبغض النظر عن نوعه أو مسماه

وأقر بأنني على علم واطلاع على العقوبات المترتبة على مخالفتي لذلك وأعاهد وأتعهد بأن أعمل جاهدا ودائما في ظل الدولة لبناء عزة وقوة ديننا الحنيف والمواطنين الشرفاء وسورية وشعبها الكريم

والله على عهدي وتعهدي وهو خير الشاهدين

ملاحظة : أي حك أو تعديل أو تصوير لهذه الوثيقة يعرض صاحبها لمسؤولية كبيرة .

حرر بتاريخ ٦/ ٨ / ٢٠١٤

صورة عن وثيقة المصالحة أو التعهّد التي وقعت عليها فيروز لتسهيل حركتها على الحواجز الأمنيّة والعسكريّة خلال فترة علاج إصابتها، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.

بدأت بالتّحسن بعد فترة، وعدت لأمارس التّدريس وأكمل ما كنت أقوم به، لكن في نهاية عام ٢٠١٤ سقطت قذيفة أمام منزلنا فأصيب أبي ببعض الشّظايا التي استقرت أخطرها في العصب البصري. لم يستطع أحد من الكادر الطبي الموجود في منطقتنا أن يعالج تلك الإصابة، فكان الحلّ الوحيد أن يذهب أبي إلى تركيا لتلقّي العلاج المناسب. باع شقّة كان يملكها، وطلب منّي أن أذهب معه لأنّي أتقن الإنجليزيّة. اتّفقنا مع أحد الأشخاص لنقلنا عبر الطّريق النّظامي إلى الحدود السّورية دون أن يتمّ تفتيش أسمائنا على الحواجز،

ودفعنا له المال طبعاً. وصلنا إلى الحدود اللّبنانيّة في منطقة المصنع، وكم كانت صدمتي كبيرة بالعدد المهول من السّوريّات والسّوريّين هناك، والمعاملة المهينة والمذلّة لنا من قبل طاقم العمل اللّبناني. تعرّضت لمواقف بشعة ورأيت مواقف صعبة إنسانياً؛ عائلات، نساء، وأطفالاً ينتظرون لساعات طويلة في برد الشهر الأوّل من العام. وقفت امرأة عجوز من منطقة المزّة في ذلك الطّابور الطّويل، تحمل حجزها الفندقيّ والألف دولار لتريها للضّابط، [xxxix] لم يلتفت إليها أبداً، وعندما طلبت كرسيّاً لتجلس أجابها الضّابط: «ما معك بنت حلوة، تطلبلك.»

كان هناك أيضاً شابٌ من درعا ينتظر من اللّيلة السابقة وعندما جاء دوره، ورغم أنّ أوراقه كاملة قال له الضّابط: «أنت ارجع ع سوريا.» كم كانت هذه الجملة محبطة، ثمرة عفنة لانتظار وتعب وتحمّل كلّ ذلك الوقت. قال له أبي: «لا ترجع حاول مرّة تانية» لكنّه كان متعباً فعاد، وعلمنا لاحقاً أنّه تمّ اعتقاله على أحد الحواجز السّوريّة. أيضاً أذكر ذلك الشّاعر «فريد» الذي كان ينتظر الموافقة للذّهاب إلى الإمارات، كانت فرصة بالنّسبة له للفوز بجائزة الشّارقة للشّعر، ظلّ صامتاً يتأمّل النّاس بلا أيّ كلمة، فات موعد طيّارته كما فات موعدنا أيضاً. اضطررنا للحجز مرّة أخرى وانتظرنا مدة اثنتين وعشرين ساعة حتّى سمحوا لنا بالدّخول، ونمنا في بيت أحد الأقارب لليلة واحدة ثم سافرنا إلى مرسين، حيث نزلنا في منزل قريبٍ لأبي.

كانت اللّغة هي أوّل ما صدمني في تركيّا، لم نستفد من إتقاني للّغة الإنجليزيّة|ضحك| فلا أحد هناك يتحدّثها، ولا أحد يريد أو تريد التحدّث بغير اللّغة التّركيّة. بقينا أنا وأبي مدة خمسة أشهر حتّى تمّ العلاج. لم يكن الوضع ورديّاً بالنّسبة للسّوريّين والسّوريّات هناك، لكن لم يكن سيّئاً إذا ما قارنّاه بالوضع الحالي، لذلك فكّر أبي أن يبدأ عملاً بالشراكة مع أحد الأقارب هناك، لكنّ الأخير احتال على أبي. في تلك الفترة كان معظم السّوريّين والسّوريّات يتحدّثون عن الذّهاب إلى أوربا عن طريق البحر، فكّرنا بذلك، لكنّ والدتي اتّصلت بأبي لتخبره أنّ الضّابط سهيل الذي كان على الحاجز القريب من بيتنا يسأل عنه

---

xxxix هذه كانت شروط دخول السوريات والسوريين إلى لبنان في تلك الفترة.

وعن البيت. هذا السؤال كان إشارة على احتمال قوّي بأن يقوم الضّابط بالاستيلاء على البيت.

بين أن نسافر إلى أوروبا ونخسر البيت، أو نعود إلى جحيم الحصار والقصف ونحتفظ به، اخترنا الثّاني وعدنا. طلب أبي أن أعود قبله لأرى وضع الطّرقات، وبالفعل، عدت قبله ثمّ لحق بي بعد أسابيع.

أنا وحصار مضايا وزواجي

عدت من تركيا إلى مضايا في نهاية الشّهر السّادس من عام ٢٠١٥. كان كلّ شيء مختلفاً، فملامح الحصار القويّة بدأت تلقي بحملها على النّاس، شحّ في الموادّ الغذائيّة وغلاء في الأسعار، إضافة إلى منع النّاس من التحرّك خارج مضايا، بل إنّ كلّ من معه هويّة من الزبداني كان أو كانت تُجبر على الدّخول إلى مضايا والبقاء فيها. كانت أمّي معروفة بمونتها الشّتويّة وبالكمّيات الكبيرة التي كانت تصنعها كي تكفينا طوال الشّتاء، لكن كلّ تلك المؤونة قد استخدمتها لسدّ حاجتنا في الطّعام، وسدّ حاجة القادمات والقادمين من جوبر أو من الزبداني، ممّن سكنوا لدينا لبعض الوقت.

في تلك الفترة، قرّر أبي وأمي وباقي إخوتي، أن يعودوا إلى بيت العائلة لأسباب قد تجدينها غريبة، ولكنّها استراتيجيّة في ذلك الوقت. بدأت سرقة البيوت تزداد، فكان والداي يُفضّلان البقاء في بيتهما لحمايته. كذلك بنت قوّات النّظام السّوري حاجزاً جديداً مقابلاً لبيتنا، فأصبح بين حاجزين، وبانتقال أهلي إلى هناك ورشوة عناصر النّظام على الحاجز استطاع أبي أن يؤمّن بعض الموادّ الغذائيّة، وأن يحول دون أن تحتلّ قوّات النّظام بيتنا مرّة أخرى. أمّا أنا وأختي وأخي، فبقينا في المنزل المستأجَر داخل مضايا، واستطاع أبي استصدار أوراق لنا تسمح بالتنقّل عبر الحواجز بصفة معلّمة، إذ كانت أختي تعلّم الأطفال أيضاً. خلال تنقّلنا، وخاصّة أنا، كنت أخبّئ الكثير من الموادّ الغذائيّة تحت ثيابي لأنّي كنت نحيفة، أضع طعاماً في منطقة بطني وصدري، وجزمتي وحتى تحت الحجاب، واستغليّت أنّ تلك الحواجز

لا تفتّش النّساء، فكنا نأخذ بعض الأطعمة من بيت أهلي بهذه الطّريقة إلى منطقتنا التي بدأ الطّعام فيها يصبح رفاهية. لم يكن كلّ ذلك سهلاً بالطبع، لا المرور عبر الحواجز ولا الخوف أو الرعب المرافق للانتقال تحت القصف المستمرّ، لكن كان علينا أن نفعل ذلك لنستمرّ في الحياة ونساعد النّاس. في تلك الأيّام أحسست أنّ شخصيتي قويّة، وأنّ لي هدفاً في الحياة، علماً أنّ أمّي كانت حزينة لمصيري وعدم إكمالي لدراستي الجامعيّة، لكنّي لم أكن حزينة، بل كنت أجد أنّ ما أقوم به على بساطته أهمّ من إكمال دراستي.

لم أستطع الاستمرار في مهمّة نقل الأطعمة، لأنّ أحد الأشخاص المستفيدين من وضع الحصار قد أبلغ الحواجز أنّ هاتين المرأتين (أنا وأختي) تقومان بتهريب الموادّ الغذائيّة خلال تنقّلهما. جاء أحد العناصر إلى بيتنا وقال لأبي إما أن تبقى الفتاتان هنا أو أن تدخلا إلى البلدة ولن تراهما مجدّداً. بقيت أختي في بيت أهلي وقرّرت أنا العودة إلى داخل مضايا، إلى الحصار حيث أخي وخطيبي. كان ذلك آخر لقاء لي مع أبي الذي طلب منّي حينها أن أبقى معه لكنّي رفضت، فكّرت بأخي وخطيبي، من سيكون معهما؟ من سيساعدهما ويطبخ لهما؟ وفكّرت بكلّ ما كنت أقوم به من مهامّ إنسانيّة... ودخلت إلى الحصار.
للحصار حياة لا تشبه تلك التي نعرفها، سؤال دائم عن الطّعام، وجوه شاحبة في كلّ مكان. كنت ما زلت مدرّسة، أرسل معظم الأهالي أبناءهم وبناتهم إلى المدارس ليتجنّبوا سؤالهم عن الطّعام وبكاءهم من الجوع لبضع ساعات. كانت مهمّتي وزميلاتي التّخفيف عن الأطفال، لكنّني كنت جائعة أيضاً، فكيف أقوم بذلك؟ ابتكرت حصّة مدرسيّة أسميتها حصّة الطعام، نجمع فيها بعض الموادّ الغذائيّة أو الطّبخ من العائلات التي مازال لديها بعضه ونقسمه بالتّساوي على الأطفال.
في كانون الأوّل/ ديسمبر من عام ٢٠١٥ أخبرت أهلي أنّي أريد الزّواج، رفض أهلي هذا القرار في البداية، فكيف سأتزوج في الحصار وبدونهما؟ ثم رضيا خوفاً من أن يحدث لي شيء خلال الحصار والقصف. لدينا مثل شعبي يقول «عرس المجانين بكوانين» [xl] فكيف أن يكون العرس في كانون الأوّل وفي منطقة حرب!

---

xl هذا المثل الشعبي يُستخدم للدلالة على شدّة البرد في شهري كانون الأول/ ديسمبر وكانون الثاني/ يناير.

تمنّيت دائماً أن يكون عرسي استثنائياً وهكذا كان. حصل الزواج وكلّ تحضيراته بطريقة خارجة عن المألوف أو التّقليد الذي اعتدنا عليه. بدأت أجمع بعض قطع الثّياب التي يُفترض لكلّ عروس أن تحصل على الكثير منها. صديقة لي قالت إنّها ستتكفّل بمكياجي، وأخرى بشعري، استأجرت بدلة عرس، أما «جهاز العرس» فقرّرنا أن يكون طعاماً. اشتريت، كيلو رز بسبعة عشر ألف ليرة، كيلو برغل بعشرين ألف ليرة، رأس ثوم، بعض الملح وكيلو حمّص، ووضعتها في أماكن متفرّقة في المنزل الذي استأجرناه أنا وزوجي لنستقرّ فيه، بحيث إذا دخل سارق وسرق ألّا يسرق كلّ شيء دفعة واحدة. عند وصولنا إلى المنزل، كان الحرامي يخرج، وقد وجد كلّ شيء ولم يتبقّ إلا كيس الحمّص الذي وقع منه وبدأت بالتقاط حبّاته من على الأرض وأنا أبكي... لماذا أخذ كلّ شيء؟ لو أخذ حاجته فقط لما حزنت، لكن حتّى الملح والثّوم؟ ما أصعب سرقة طعام الجائع! لقد اكتفينا بكيلو الحمّص أنا وزوجي وأخي لمدّة أسبوع كامل، وبعدها كان يجب أن نجد وسيلة أخرى لتأمين الطّعام.

كان منزلي الجديد، رغم قساوة الظّروف، حانياً علينا، فيه حديقة صغيرة زرعناها ببعض بذور الرّشاد والجرجير. زرعناها في صناديق من الفلّين، كانت هذه الاستراتيجية المتّبعة لدى أغلب من عاشوا الحصار، الزراعة في أي شيء وفي أي مكان. كان الحصول على البذور هو المشكلة، إذ ارتفع سعرها كثيراً وصار تجّار الحصار المتعاملين مع حزب الله هم من يقومون بتهريبها وإدخالها إلى منطقة الحصار.

الجوع ووسائل البقاء في حصار مضايا

بدأ الجوع يصبح واقعاً يوميّاً، وزني كان حوالي أربعين كيلو غراماً، كنّا بدأنا كباقي الناس نبحث عن أوراق الأشجار أو النّباتات التي يمكن أن نأكلها. جرّبنا ورق الزيتون لكنّه كان مؤذياً وفيه مادة قابضة أدّت لمرض البعض ممّن تناولوه. أمّا أنا وبما أنّني درست الهندسة الزراعيّة، فأخذت موضوع إيجاد نبات صالح للأكل على عاتقي. وفي يوم من الأيّام، كنت أمشي في الشّارع ورأيت نبتة صبّار في بيت أحدهم، كانت كبيرة جدّاً ولم ينتبه لها أحد. أخذت أوراقاً منها كانت مليئة بمادّة مخاطيّة سميكة، غليتها وأكلناها أنا وأخي وزوجي. كان

كلّ منّا يتخيّل أنّ طعم عصارة الأوراق يشبه طعم أكلة ما، أخي يقول إنّها مثل طعم الفول، وزوجي يقول إنها كالبازلّاء. لم تؤثّر علينا صحيّاً، أخبرت بعض الأصدقاء والصّديقات عنها، جرّبها البعض واستطاعوا أكلها، بينما سبّبت بعض آلام المعدة لآخرين وأخريات. أكلنا وجبة في اليوم من أوراق الصّبّار لمدّة أيّام، لكن لم يتبقّ شيء من النّبتة، ولا يوجد أيّ بديل للأكل، فتواصل أخي مع شخص من قوّات حزب الله واتّفق معه أن يبيعه سيارته مقابل ثلاثة كيلوغرامات من البازلّاء، كيسين صغيرين من الخبز اليابس، وأربعة كيلوغرامات من الرز، أربعة كيلوغرامات من البرغل، كيلوغرامين من حليب الأطفال. كان ما حصلنا عليه كنزاً، ونسينا أنّه لم يكن يساوي شيئاً من قيمة السّيّارة الحقيقيّة، لكن بكلّ الأحوال لم يكن البنزين متوفّراً لاستخدام السّيّارة، حتّى أنّ النّاس بدأوا تصنيع بنزين من أقفاص البلاستيك السّوداء، لا أدري كيف، لكن أصبح من لديه أقفاص بلاستيكيّة سوداء ملكاً.



صورة لطعام مصنوع من المواد الغذائيّة التي حصلوا عليها بعد بيع السّيّارة، شاركتها معنا فيروز خلال العمل البحثي.

قمنا بتقسيم الطّعام في حصص، وتشاركناه مع باقي العائلات المحتاجة، خاصّة حليب الأطفال، وبعض البرغل والرّز. استطعنا أن نصمد مدّة ثلاثة أو أربعة أسابيع بما تبقّى لدينا من موادّ. هنا كنت قد علمت أنّني حبلى، كان الحبل صعباً عليّ في تلك الظّروف الإنسانيّة. أتذكّر أنّني في بعض الأشهر كنت فقط مستلقية طوال النهار أشرب الماء

الذي فيه بعض السكّر، أو شوربة بهارات وملح. حدث ذلك بعد أن قامت الأمم المتّحدة والهلال الأحمر بإدخال بعض المعونات بعد الحملة الإعلاميّة الكبيرة التي حدثت للضّغط لفكّ حصار مضايا، فقد مات الكثير من الجوع، مات جارنا الذي كان يسكن فوقنا جوعاً. دخلت سلل من المعونات فيها رزّ وبرغل، ربّ البندورة وعلبة زيت وفاصولياء. لم تكن تلك المواد خيراً علينا، فبعد أشهر من شرب الماء وأكل النباتات، كانت تلك الموادّ ثقيلة على الأمعاء، سبّبت للكثيرين وللكثيرات انسداداً في الأمعاء. أنا أيضاً تضايقت منها كثيراً وخاصّة أنّ لديّ إصابة سابقة في البطن، فلم آكل منها. مرضت وفقدت كلّ طاقتي، فسجّلوا اسمي على قائمة تبادل المرضى الذي بدأ يحصل ضمن «اتفاقيّة المدن الأربع.» لم نتوقّع ان يأخذوني، لأنّ معظم الحالات التي كانت تتمّ المبادلة عليها كانت تحتاج إلى واسطة كبيرة، ونحن ليست لدينا هذه الواسطة، لكن وبعد أيام، جاء إلينا أحدهم وطلب منّي ومن زوجي أن نحضّر أنفسنا لأنّنا سنخرج اليوم. كان الخبر صاعقاً، لم ندر ما نأخذ وما نترك، أخذت معي كتاباً اسمه «كلّ جاسوس أمير» كان ممنوعاً في سوريا، وكتاب أهداه لي أبي عن قواعد اللّغة الإنجليزيّة، لم نأخذ معنا حتّى أوراقنا فقد خفنا أن يتم إيقافنا على الحواجز أو أن يتمّ اعتقالنا.

الوداع الأخير لمضايا والتّهجير إلى إدلب

في نيسان/ أبريل من عام ٢٠١٦، لا أتذكّر اليوم بالتّحديد، ركبت في باص اللّاعودة، رأيت سهل مضايا، كان محروقاً، حرقته قوّات النظام وحزب الله خوفاً من تواجد الثوّار فيه. تذكّرت كيف كان أخضراً في أيّام الرّبيع، لكنّ قذائف كثيرة نزلت عليه وأحرقته. كنت أتوقّع لسبب ما أن أرى الأشجار فيه، أشجار المشمش والكرز والتّفّاح، لكنّه كان أسوداً مثل أيّامنا. أوقفونا عند أوّل حاجز وصعد إلى الباص أشخاص يتحدّثون باللّهجة اللّبنانيّة، أخذوا أسماءنا وقالوا لنا إن هذا الخروج بلا عودة وأعطونا علب عصير كرتونيّة، ثم قالوا إنّ هذه آخر فرصة لمن يريد أو تريد العودة إلى دمشق. نزل بعض النّاس، لكنّني علمت لاحقاً أنّهم وأنهنّ واجهن صعوبات كثيرة، فالكلّ فيه مرض أو إصابة ولم تستقبلهم المشافي

بسرعة كافية هناك في دمشق.
توقّعت أن يمرّ الباص بدمشق، وأنّي سأودّعها بنظرة أخيرة، لكنّ القافلة كان لها مسار آخر، ذهبنا من طريق التلّ إلى حمص، ثمّ بانياس وصولاً إلى قلعة المضيق في إدلب. بقينا في الباص لمدّة يوم كامل، لم تكن معاملة الهلال الأحمر الذي رافقنا جيّدة، فنحن مرضى ومصابون ومصابات وحوامل، لكن لا توجد أيّة مساعدات أو وسائل راحة، لم نتوقّف عند أيّ استراحة، تعبت كثيراً، فقد كنت حبلى وإصابتي كانت ما تزال تؤلمني. كنت أقف ثمّ أجلس كلّ بضع ساعات لكي أحرّك عضلات جسدي، وبقيت على تلك الحال لمدة اثنين وعشرين ساعة.
وصلنا إلى إدلب، وهناك كانت الصّدمة التّالية، ظننت أنّه سيتمّ نقلنا إلى نقطة طبّيّة أو مشفى، لكنّهم أخذونا إلى مدرسة ليس فيها حمّامات. كان الحمّام أهمّ شيء بالنّسبة لي كامرأة حبلى ومصابة. رأيت الكثير من المصابين والحالات الصّحيّة المتدهورة، لم أستطع تحمّل الوضع، وقلت لزوجي إنّي أريد الذّهاب إلى أيّ منزل فيه حمّام لأغسل شعري على الأقلّ. التقينا بشابّ كان على معرفة بزوجي وتفاجأ بوجودنا، لم يكن لديه علم، فاستضافنا في بيته في بنّش لثلاثة أيّام. عندما استرحنا، نزلنا لنمشي في الشّوارع، شعرت وكأنّي قادمة من كوكب آخر: سيّارات تسير في الطّرقات، طعام وخضروات وفاكهة في المحلّات، ورائحة شواء اللّحم في كلّ مكان. كان كلّ شيء صادماً، أين كنت؟ أين أنا الآن؟ مشينا والذّهول يملأ أعيننا، حتّى إننا كنا سنشتري موزة واحدة ظنّاً منّا أنّ الأسعار مرتفعة كما كانت في الحصار.
انتقلنا بعدها إلى بيت عائلة في بنّش سافر أولادهم واستشهد أحدهم، فاستضافونا دون أن يأخذوا أجراً منّا. أمّا أنا فذهبت وحدي إلى مشفى بنّش، وتابعت حالتي الصّحّيّة طبية هناك. كان قد أصابني استسقاء في الكليتين، وصفت لي الأدوية ووضعت لي خطّة لتناول الأغذية، بحيث أبدأ بالخفيف منها بما يتناسب مع أمعائي وحالة الجوع التي كنت أعيشها في مضايا. ولدت طفلي الأوّل في تشرين الأوّل/ أكتوبر من عام ٢٠١٦.
لم أخبرك عن منزل بنّش الذي احتضنني سنة ونصفاً، لقد كان منزلاً ضمن منزل العائلة الأكبر. كانت صاحبة المنزل تسكن في الطّابق الأوّل مع زوجها ونحن سكنّا في الطّابق الثّاني

الذي يعتبر جزءاً من المنزل. كانت صاحبته تخطّط أن يكون هذا القسم لابنها الشّهيد، ولكن شاءت الأقدار أن نقطنه نحن. أشعرني وجود تلك المرأة بالأمان الذي فقدته لسنوات، وساعدتني طبيعة أهل المنطقة الطيّبة على الشّعور بالانتماء. لم أكن أرغب حتّى في الرّحيل عنها، كانت منطقة هادئة وأهلها مثقّفون ومثقّفات.

استبشرت خيراً عندما علمت أنّ إدلب فيها جامعة إدلب الحرّة التي تتبع لحكومة الإنقاذ[xli] وقد أسّسها مجموعة من الأساتذة الجامعيّين ممّن انشقّوا عن جامعات النّظام السّوري. افتتحوا فيها بداية اختصاصات مثل الزّراعة، ثمّ المعلوماتيّة، ثمّ الطّبّ والتّمريض، أي الاختصاصات التي كانت تفيد المنطقة. كان التّعامل في هذه الجامعة سلبيّاً، أقساطها غالية، وفرع الزّراعة فيها للذّكور فقط، فاخترت الذّهاب إلى جامعة حلب الحرّة، رغم بعدها عنّي ساعتين واضطراري لركوب حافلتين للوصول إليها.

أخبرت أختي التي كانت تدرس الطّبّ، وكانت ما تزال في مضايا، عن الجامعات هنا، فقرّرت أن تأتي إلى إدلب هي وابنتها التي كان عمرها سنة ونصفاً، لكن تمّ اعتقالهما على أحد الحواجز بتهمة أنّ زوجها الذي استشهد عام ٢٠١٣ كان مع الثّوار. كم أرهقني وعذّبني اعتقال أختي وابنتها، وكم تكلّف أهلي نقوداً لإخراجها من فرع الأمن الذي بقيت فيه ستّة أشهر. دفع أبي حوالي ستّة آلاف دولار لإخراجها إلى سجن عدرا، وحوالي أربعة عشر ألف دولار حتى خرجت من سجن عدرا بعد سنة. أمّا ابنتها فقد أخذتها منها منظّمة SOS، وعندما خرجت أختي من المعتقل عانت الويلات لاسترجاع ابنتها التي كان قد أصبح عمرها ثلاث سنوات. قاست الطّفلة كثيراً في تلك المنظّمة وما تزال حتى الآن تعاني من مشاكل نفسيّة ناتجة عن فترة انفصالها عن أمّها وسوء المعاملة التي تعرّضت لها.

---

xli نشأت الحكومة في ظل تعقيدات عاشتها المنطقة وتدخلات دولية وتجاذبات داخلية، أبرزها سيطرة "تحرير الشام" على مفاصلها بشكل غير مباشر، واستمرار عمل "الحكومة السورية المؤقتة". وبين تضارب الاعتبارات، بين ضرورة الحكومة لإنقاذ إدلب وبين تشكيلها من قبل القائد العسكري "هيئة تحرير الشام"، "أبو محمد الجولاني"، لبسط نفوذه بشكل خفي في المنطقة، أعلن عن تشكيل "حكومة الإنقاذ" في الشمال السوري، في ٢ من تشرين الثاني ٢٠١٧.
هذا الشرح مقتطع من مقال بعنوان «حكومة الإنقاذ.. من التأسيس إلى السيطرة على إدلب»، عنب بلدي، ٢٠١٩.



صورة لأحد باصات التهجير من مضايا، شاركتها معنا فيروز خلال العمل البحثي.

النّظام السّوري وهيئة تحرير الشّام
كلاهما حرماني من إكمال دراستي

قرّرت بعد ولادتي أن أبدأ بدراسة الهندسة المعلوماتيّة في جامعة حلب الحرّة التي كانت تابعة للحكومة السّوريّة المؤقّتة.[xlii] كان خياراً مقبولًا، فقد كنت أحلم بإكمال دراستي، حتّى لو غيّرت الاختصاص. كنت أترك ابني عند زوجي، وأذهب كلّ يوم من بنّش إلى معرّة مصرين ثمّ إلى منطقة الدّانة وبالتّحديد إلى مكان اسمه دير حسّان، أخذ ذلك الطّريق من وقتي يوميّاً ساعتين ذهاباً ومثلها إياباً، لكنّي كنت مصرّة على الإكمال، واستمرّيت في ذلك حتّى جاء وقت امتحانات السّنة الأولى عام ٢٠١٧.

في تلك الفترة، كان أخي قد جاء إلى إدلب في آخر قافلة من مضايا. كم فرحت بقدومه ووصوله بالسّلامة، فقد كنت أعيش هواجس كثيرة حول مصيره. كان متحمّساً جدّاً وقرّر أن يفتتح مكتباً مع أصدقائه لتوثيق أسماء المهجّرين والمهجّرات من مضايا، لكنّ هيئة تحرير الشّام المسيطرة في إدلب لم يعجبها ذلك النّشاط، فاعتقلوا أخي بعد عدّة أشهر

---

xlii الحكومة السورية المؤقتة في البداية تم تسميتها الحكومة الانتقالية السورية هي الحكومة البديلة في سوريا والتي تم تشكيلها عن طريق مجموعة من المعارضة والائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية.
في مؤتمر عقد في إسطنبول في ١٩ مارس ٢٠١٣، قام أعضاء الائتلاف الوطني بانتخاب غسان هيتو كرئيس وزراء للحكومة المؤقتة في سوريا. وأعلن هيتو أن الحكومة التكنوقراطية التي ستشكل برأسها ما بين ١٠ إلى ١٢ وزيرًا. وسيتم اختيار وزير الدفاع عن طريق الجيش السوري الحر.

من وصوله، وطلبوا من زوجي زيارتهم لشرب «فنجان قهوة» واعتقلوه أيضاً.[xliii] بقيت وحدي، أخي وزوجي في معتقل هيئة تحرير الشّام، وأنا حبلى مجدّداً وهذه المرّة بتوأم. صُدمت بخبر حبلي، وبكيت كثيراً، فأنا في وضع صحّيّ ونفسيّ صعب. لم أكن أعلم شيئاً عن الصّحّة الإنجابيّة، حتّى الطّبيبة التي كنت أتردّد إلى عيادتها لم تخبرني شيئاً عن طرق منع الحمل، بل اكتفت بأن تقول لي: لا يوجد لديّ إباضة طالما أنّني مرضع.

حتّى الجامعة تمّ إغلاقها من قبل الهيئة بحجّة أنّ فيها مخالفات شرعيّة، وسرقوا تجهيزات الجامعة واعتقلوا بعض الطلّاب الذين تظاهروا احتجاجاً على قرار إغلاق الجامعة. حرمني النّظام السّوري من إكمال تعليمي وكذلك فعلت الهيئة. أنا وحدي الآن في وجه كلّ تلك المصاعب، حتّى المرأة التي كنت أعيش معها ومع زوجها قرّرت السفر، وصار صعباً أن أبقى أنا وطفلي مع زوجها في المنزل. وعلاوة على ذلك، لم يكن وضعي الصّحّي جيّداً، فقد أصابني مرّة أخرى استسقاء في الكليتين، ولم يكن جسمي قد تعافى تماماً من كلّ ما حدث سابقاً.

بانتظار شخص لا أعرفه ليأخذني في طريق مجهول

كانت قد بدأت حملة عسكريّة قويّة من قبل النّظام السّوري وحلفائه على مناطق إدلب، بهدف استرداد مطار «أبو الظهور» في الشهر الأوّل من عام ٢٠١٨، قصف شديد على تفتناز، النّظام يقترب من منطقة سراقب، وبدأ النّزوح من تلك المناطق إلى بنّش وباقي مناطق إدلب.[xliv] لم يكن من المقبول أبداً أن أبقى في تلك المنطقة مع كل هذا الرّعب والخوف وعدم الأمان. بحثت عن طريق تهريب إلى تركيّا، وطلبت من أهلي مبلغ ثلاثة آلاف دولار لأعطيها للمهرّب. ركبت وابني في سيّارة لتأخذنا إلى منطقة «أطمة» حيث مكاتب التّهريب. رأيت لافتة مكتوب عليها «تهريب مضمون إلى تركيا»، ضحكت في نفسي وتساءلت إن

---

xliii تستخدم عناصر الأمن التابعة للحكومة السورية عادة هذه العبارة «بدنا نشرب معك فنجان قهوة» عند استدعائهم لشخص ما إلى الفرع الأمني، ودلالتها عند الشعب السوري أن الشخصيّة التي استُدعيت سيتمّ اعتقالها.

xliv وكان مطار أبو الظهور وقع في سبتمبر/أيلول ٢٠١٥ تحت سيطرة فصائل المعارضة، وهو آخر مركز عسكري لقوات النظام في إدلب حينها.
هذا الشرح مقتطع من خبر بعنوان «قوات النظام تعلن السيطرة على مطار أبو الظهور بإدلب»، الجزيرة،٢٠١٨.

كان هناك تهريب مضمون فعلاً. حاولت أن أسأل الرّجل الذي يقلّني «أخي متأكّد من الطّريق؟»، ليجيب: «إي أختي هاد الطريق ما فيه مشي، بس خمس دقائق». كانت القذائف تنهال علينا كالمطر، وصلنا بخير وانتظرت شخصاً لا أعرف من هو ليأخذني في طريق ما، كنت خائفة ومتعبة، لكن وجب عليّ الاستمرار، فمن خلفي الدّمار والقصف، ومن أمامي المجهول.

وصلت حوالي التّاسعة ليلاً مع عشر نساء واثني عشر طفلاً وطفلة وامرأتين عجوزين إحداهنّ لا تستطيع السّير والأخرى مريضة. قلت في نفسي: «قد يكون المهرّب صادقاً، العجوزان لا تستطيعان السّير لذلك اختارتا طريق الخمس دقائق»، ومشينا إلى بيت المهرّب الكائن في منطقة حدوديّة. كانت الخطّة أن تأتي سيّارة لتقطع بنا الحدود إلى تركيا، وكنت أقول إنّه من المستحيل أن يكذب المهرّب علينا، فلا يمكن للنّساء الكبيرات في السّنّ أن يمشين لمسافات طويلة على الأقدام، ليتّضح لي فيما بعد أنّ وجود النّساء المسنّات كان جزءاً من احتيال المهرّب علينا. جاءت شاحنة صغيرة حُشرنا فيها مع أولادنا حتّى وصلنا إلى منطقة زراعيّة، أنزلونا فيها وقالوا إنّ علينا المشي وعدم إصدار أيّ صوت، حتّى إنّ المهرّب وزّع علينا دواء منوّماً لنعطيه لأطفالنا، لكنّني رفضت إعطاءه لطفلي، فأنا لا أدري ما كان ذاك الدّواء. جلسنا في أرض زراعيّة فيها أشجار زيتون، ونظرت حولي فلم أجد النّساء الكبيرات في السّنّ بيننا.

قال لنا المهرّب إنّنا سنمشي مدّة خمس دقائق وستأتي سيّارة أخرى لتقلّنا، امتدّت الخمس دقائق لتصبح خمس ساعات، مشينا فيها بطريق صاعد وتربة محروثة. تعبت كثيراً، وقلت للمهرّب إنّي مريضة وحبلى فلم يستمع إلي. بعد الأرض المحروثة كان هناك القفز عن جدار عال، وبعد الجدار أصبح الطّريق منحدراً، وزادت الصّعوبة، فعليّ أن أحمي ابني من المنحدر والشّوك، وأن أبقى مع المجموعة. زلّت قدمي ووقعت في خندق، كنت منهكة، كتمت ألمي وصعدت منه، فلن يلتفت إليّ أحد، وسيتركونني وحدي لأواجه مصيري. حاولوا أخذ ابني عنيّ لمساعدتي لكنّي خفت ولم أقبل، أعطيتهم حقيبتي فقط التي حملتها على ظهري، ثمّ سرقوها لاحقاً.



رسم تجريدي لحالة فيروز وابنها خلال رحلة التهريب إلى تركيا

وصلنا في الرّابعة فجراً إلى منطقة كلّها مياه متجمّدة، فقد كنّا في شهر شباط/ فبراير من عام ٢٠١٨، كان البرد قارساً، أشار لنا المهرّب إلى مكان فيه أضواء وقال إنها الرّيحانيّة، وهنا جاء ضابط تركي معه كلاب، أخذ نقوداً من المهرّب، خاف الأطفال من الكلاب وبدؤوا بالبكاء والصراخ، بدأت أنا بالبكاء أيضاً من شدّة البرد والتّعب والقهر.

مشينا حتّى وصلنا إلى بيت معتم في الريحانيّة، فمن غير المسموح إشعال الإضاءة كي لا تكتشف الشرطة التّركيّة أمرنا. كان همّ المهرب أن يتّصل بالمجموعة الجديدة القادمة ليخبرها أنّنا وصلنا بخير، وطلب منّا أن نعطي شهادة لهم. أنا لم أتحمّل الوضع في تلك اللّحظة وبدأت بالكلام بصوت عال، أشتمهم وألعنهم. طلبوا منّي السّكوت أكثر من مرّة ولم أستطع، أفرغت ما في صدري من كبت وقهر.

ذهبت بعدها إلى بيت عائلة أعرفها في الرّيحانيّة وبقيت أقلّ من يوم ريثما استصدر لنا المهرّب إقامات «كمليك» مزوّرة، ثمّ صعدنا في باص بقينا فيه أربعاً وعشرين ساعة حتّى وصلنا إلى إسطنبول ودفعنا مائتين وخمسين دولاراً. وضعونا في عبّارة أوصلتني إلى بورصة، كلّ ذلك دون أيّة استراحة أو طعام، فقط قارورة مياه لي ولابني. وصلت إلى بورصة فاستقبلني أخي الصّغير الذي كان يعيش هناك، ضممته بقوّة وأعطيته ابني وقلت له: «شيل عنّي ما عاد فيني حيل».

بين الإقامة والولادة... بين مرسين وبورصة

ترك أخي السّكن الشّبابي الذي كان يعيش فيه، واستأجرنا سويّة منزلاً صغيراً في حيّ شعبي، اشتريت له أشياء بسيطة: صحنين، ملعقتين وبعض الأدوات الأساسيّة. وفّرنا لاحقاً بعض النّقود من راتب أخي لاستكمال بعض الفرش وأدوات المطبخ. ارتحت لوجودي عند أخي، لكنّني كنت متعبة ومصدومة من كلّ شيء، عليّ الآن أن أبدأ من الصّفر في مكان جديد، وهمّ أخي وزوجي المعتقلَين عند هيئة تحرير الشّام قد أثقل كاهلي، استمرّيت بالاتّصال مع كثير من الأشخاص في إدلب وأعطوني وعوداً زائفة بخروجهما القريب من المعتقل.

كان عليّ أن أفكّر في وضعي الآني، إذ أصبحت في شهري السّابع من الحمل، عليّ التحرّك

لاستخراج إقامة لي في بورصة، لكن حين ذهبت للبدء بالمعاملة اكتشفت أنّ إقامتي السّابقة التي استصدرتها عندما جئت مع والدي إلى مرسين كانت ما تزال صالحة، وهذا يعني أنّه عليّ الذّهاب إلى مرسين لاستصدار بدل ضائع عنها. ذهبت إلى مرسين، واستصدرت صورة عن الكمليك (بطاقة الحماية المؤقتة) لكن في تلك الفترة صدر قرار يقضي بأنّنا كسوريّات وسوريّين علينا الحصول على إذن سفر للتنقّل بين المدن التّركيّة، فبدأت بمعاملة إذن السّفر إلى بورصة وحصلت عليها، احتاج كلّ ذلك إلى الكثير من المال الذي لم يكن معي منه شيء.

كانت حالتي النّفسيّة سيّئة جدّاً في تلك الفترة، فأنا لم أتعافَ بعدُ من الخسارات التي عشتها، من الحصار، التهجير ولا رحلة التّهريب إلى تركيا، أضيفي إلى ذلك حالتي الصّحيّة التي لم تكن مستقرّة أبداً، والتي تأثّرت بالحمل وبقلقي على زوجي وأخي. ذهبت إلى مستشفى للولادة في بورصة، لأحجز موعداً لعمليّة القيصريّة، لكنّهم رفضوا وطلبوا مني أن ألد ولادة طبيعيّة. شرحت لهم مرارًا وتكراراً أنّه ممنوع عليّ أن ألد طبيعيّاً بسبب ولادتي السّابقة وبسبب إصابتي، وبعد الكثير من الأخذ والرّدّ وافقوا. بعدها قالوا لي إنّه من غير المسموح أن ألد في مشفى في بورصة طالما أنّ إقامتي من مرسين، وهنا بدأت حالتي الصّحيّة تتدهور وعانيت من نزف متكرّر، فتدخّلت جارتي التّركيّة وتحدّثت مع المستشفى وأقنعتهم أنّ حالتي صعبة، وأنّ إرسالي لألد وحدي في مرسين هو فعل غير إنسانيّ.

ولدت توأمَيّ الجميلتين، كانتا بصحّة ضعيفة، إحداهما وزنها كيلوغرامين والأخرى أقلّ بقليل. في المستشفى رافقتني امرأة سوريّة التقيت بها مرّة في جوبر. بقيت معي ثلاثة أيّام كاملة. كم كانت صعبة وقاسية تلك الأيّام؛ أن أكون قد ولدت حديثاً في مكان تتعمّد بعض الممرّضات فيه إهمالي لأنّني سوريّة. حتى إنّ إحداهنّ طلبت من مرافقتي أن تنظّف الغرفة لقولها «أنا لا أنظّف غرف السّوريّات.» كانت المعاملة عنصريّة بطريقة مقيتة، ولم أكن قد تعلّمت اللّغة التّركيّة بعد، فلم أستطع الرّدّ أو المطالبة بحقّي. بعد خروجي من المستشفى أخذت عهداً على نفسي أن أساعد أيّ امرأة بحاجة للرّعاية، ساعدت الكثيرات من النّساء اللّاتي أعرفهنّ أو لا أعرفهنّ، تطوّعت للذّهاب معهنّ ونمت أحياناً في

المستشفى لحين تحسّن وضعهنّ، فقد أتقنت المصطلحات المُستخدمة هناك رغبة منّي فقط في ألّا تتعرّض امرأة سوريّة أخرى لما تعرّضت له.
أصيب توأماي باليرقان، وبدأت رحلة المشافي لعلاجهما حتّى تحسّنت حالهما. في نهاية الشّهر السّادس من عام ٢٠١٨ جاءني خبر خروج زوجي من المعتقل، وأخيراً خبر مفرح. خرج زوجي مصدوماً من كلّ ما حصل له، ومن معرفته بصعوبات التّهريب التي عانيتها إلى تركيا، ومن أنّني ولدت توأمين قرّرت أن أذهب إليه مع أطفالي إلى إدلب، بقيت معه أسبوعاً هناك، إلى أن جاءه تهديد بأنّ عليه الخروج من إدلب فوراً. اتّجهنا إلى عفرين، استأجرنا بداية بيتاً لأستاذ كرديّ كان قد قرّر الانتقال إلى حلب لأسباب كثيرة. لقد كان من الصعب إيجاد منزل نستأجره من صاحبه، ففي تلك الفترة وللأسف كانت القيادات تتقاسم بيوت النّاس في عفرين بشكل مخزٍ وبشع. اطمئنّ ذلك الأستاذ لنا وعلم أنّنا لا نتمي لأحد وارتاح لذلك، عاملنا بكلّ لطف وكنّا نحوّل له أجرة المنزل كلّ ستة أشهر إلى حلب حيث استقرّ.

أخي وزيارة أمّي وعودتي إلى الرّيحانيّة

بقيت في عفرين لمدّة ستّة أشهر، قرّرت بعدها أن أعود إلى تركيّا، لكن قبل سفري بأسبوع علمنا أنّ الهيئة قد أصدرت حكماً بالإعدام على أخي وذلك بتاريخ ١٠ \ ١٢ \ ٢٠١٨. كان خبراً صاعقاً حصلنا عليه من المرصد السّوري لحقوق الإنسان. أردت الذّهاب إلى إدلب، لكن كان هناك احتمال كبير أن يتمّ اعتقالي لاستدراج زوجي الذي طلبته الهيئة كذلك وهدّدته بالاعتقال.
أخبرت أمّي عن وضع أخي، كانت في دمشق، لم تتحمّل الخبر، وقرّرت أن تأتي إلى إدلب، وفعلاً جاءت عبر رحلة شاقّة من دمشق إلى حلب، عفرين ثمّ إدلب، وبقيت شهراً كاملاً في إدلب تحاول جهدها لإخراج أخي وإبطال حكم الإعدام. استطاعت أمّي أخيراً أن ترى أخي وتطمئنّ عليه وعادت بعدها إلى دمشق. في خضمّ كلّ ذلك استطعت أن التقيها بعد طول فراق ليوم واحد فقط، لم تكن قد التقت بأطفالي بعد، فرحْت لرؤيتها، لكنّها كانت متعبة

وقلقة وكان تركيزها منصبّاً على خروج أخي من المعتقل وضمان سلامته.

لم أستطع البقاء في عفرين، فقد كان الاقتتال بين الفصائل فيها شديداً. لم يستطع زوجي أن يرافقني إلى تركيا بسبب صعوبة التّهريب، فذهبت مع أطفالي إلى الرّيحانيّة، فأخي الذي كان في بورصة كان قد عاد إلى سوريا لعدم تحمّله ظروف العمل والمعاملة القاسية. بقيت في الرّيحانيّة وحدي مع أطفالي لمدّة ستّة أشهر كاملة، عملت فيها في دار للأيتام مقابل أن أسكن في إحدى غرف الدار.

كنت أدرّس الأطفال هناك، كم كان وضعهم صعباً، معظمهم أيتام الأب، كانوا في حالة نفسيّة صعبة ويعانون من التبوّل اللّاإرادي. كانت أمهاتهنّ معهنّ، الأرامل اللّواتي لا يريد أحد التّعامل معهنّ. كنّ يتصبّرن، وكان الجانب الدّيني مهمّاً لذلك في حياتهنّ. لم تكن برامج الدّعم النّفسي شائعة في تلك المرحلة هناك، ولا أدري إن تغيّر الوضع الآن أم لا. تعلمّت كثيراً من تلك التّجربة، صرت أتفهّم أوضاع النّساء أكثر، وأميّز مظالم المجتمع عليهنّ، خاصّة الأرامل، فكنّ فئة غير محبّبة وموصومة بأنّ نساءها يركضن خلف أيّ مساعدة أو معونة، لم يكن أحد يريد أن يفهم لماذا وكيف يعشن أيامهنّ أو مدى صعوبة أن يكنّ أمّهات لأطفال يتامى في وضع حرب وصراع.

أمّا أنا، فكنت بحاجة إلى عمل أجني منه بعض النّقود، فقد كان عملي يؤمّن لي المسكن والمأكل فقط. إضافة إلى ذلك، لم يملك اطفالي سوى الوثيقة البيضاء[xlv] التي أصبح من غير القانونيّ التّعامل بها، وأنا أملك صورة عن كمليك قديم من مرسين، وعند صدور حزمة من القرارات توجّب على كل شخص التّواجد في ولايته حصراً، وإلا تمّ ترحيله، اضطررت للذّهاب مع أطفالي إلى مرسين والبدء مرّة أخرى من الصّفر.

---

xlv وثيقة تُمنح من قبل إدارة الهجرة في تركيا قبل تسليم الكيملك الأصفر الذي يعتبر بطاقة حماية مؤقتة للسوريين والسوريات.

وحدة وتحرّش وابتزاز... لكنّي لم أقف مكتوفة اليدين

أنا الآن في مرسين في عام ٢٠٢٠، مع أطفالي الصّغار في منزل صغير أو كما يقال له «استديو» يفتقر لضوء الشّمس.. باشرت في البحث عن عمل، فكم ساءني أنّي اضطررت لطلب المال من أهلي في البدايات وهم في وضع مادّي صعب ويتنقلون من بيت إلى آخر، لكن لم يكن لديّ حلّ آخر.

خفت في مرسين، خفت من الوحدة، زاد شعوري بالقلق من الموت وحيدة. رافقني هذا الشّعور منذ أن تهجّرت إلى إدلب، خفت من الآذان في حالات الموت، خاصّة عندما كانوا يقولون إنّ الشّخص مجهول الهويّة، وخفت من قراءة النّعوات. كانت تلك الأحداث تحفّز خوفاً داخلياً حاولت إخفاءه، أن أموت بعيدة عن بيتي وأهلي. ازداد خوفي في مرسين، فأنا وحيدة تماماً، في بلد لا أتقن لغته، ولا أعرف فيه أحداً، إن متّ سأترك خلفي ثلاثة أطفال لا قريب أو قريبة لهم.

تقدّمت على كثير من الوظائف، طلبوني للمقابلة في واحدة منها وكانت الوظيفة محرّرة لمنصّة أخبار. لم تكن لديّ خبرة في التّحرير لكنّني كنت واثقة من قدرتي على التّعلم بسرعة. وافقوا على توظيفي، باشرت العمل وتعلّمت بسرعة كيفيّة استخدام «الوورد برس» وبدأت أقوم ببعض التصميمات أيضاً، فقد تعلّمت ذلك في بعض الأشهر التي قضيتها في هندسة المعلوماتيّة في جامعة حلب.

كانت البداية جيّدة، لكنّ مدير تحرير المنصّة لم يعجبه أن تكون علاقتي معه مهنيّة فقط، كانت نظرته لي أنّي امرأة وحيدة وضعيفة، وسألبّي ما يريده مني. لم أستطع تحمّل التّحرّش اللّفظي والكتابي الذي كنت أتلقّاه منه، فتركت الوظيفة، لكنّني لم أسلم منه حتّى بعد قيامي بذلك. وردتني منه مائتا مكالمة أحياناً في اليوم الواحد، تجاهلتها كلّها، ثمّ صار يبتزني بصور لي حصل عليها عندما أخطأت وأعطيته إيميلي وكلمة السّرّ عندما وصلني بمنصّة التّحرير. لقد نسيت بعدها أن أغيّر كلمة السّرّ وصار عنده وصول إلى بريدي الإلكتروني، ووصل إلى موبايلي، وابتزني بكلّ ذلك. خفت كثيراً وتعبت نفسيّاً وصرت أتناول

دواء مهدّئاً، لكنّني لم أسكت، ذهبت إلى القائم مقام في مرسين، وإلى الشّرطة، لكنّهم لم يهتمّوا كثيراً، وتجاهلوا القضيّة كوني سوريّة.
تواصلت مع محاميّة، واضطررت أن أدفع مبلغ خمسة آلاف ليرة تركيّة أخذته من أهلي بعد أن أخبرتهم بالقصّة كاملة. اختلفت كلّ المعاملة عندما أصبحت قصّتي مع المحاميّة الّتي قامت بجمع كلّ الأدلّة على جهاز تخزين «فلاشة». دخلنا معاً إلى مقرّ الشّرطة وقدّمنا البلاغ، فاستدعوا مدير التّحرير وسجنوه. تواصل أهله مع أهلي كثيراً كي أسقط البلاغ، وحدثت الكثير من التفاصيل المزعجة، لكنّ مساندة أهلي لي وثقتهم بي ومعهم زوجي أراحتني كثيراً. تخلّصت من هذه القصّة المزعجة، علماً أنّ الدّعوة ما زالت قائمة، لكنّه كتب تعهّداً بعدم الاقتراب منّي أو التّواصل معي. انتصرت عليه، رغم شعوري بالضّعف في كثير من اللّحظات.

كرهت البقاء في مرسين بعد كلّ ما حدث، وعدت لأبحث عن عمل، وقدّمت على وظائف خارج مرسين، جاءني قبول لإحداها في أنطاكيا، فرحت كثيراً، وذهبت لاستئجار منزل لي ولأطفالي هناك، لكنّني بعد ذلك لم أحصل على فرصة العمل. كم كان متعباً شعور الضّياع، وعدم الأمان والتّعب الذي لا نهاية له.
تواصل زوجي مع عائلة يعرفها في أورفة، فنصحوه أن أنتقل إلى هناك، حيث المعيشة أرخص والجوّ الاجتماعي مقبول. انتقلت إلى أورفة عام ٢٠٢٠، ومع كلّ بداية حاولت أن أكون أقوى. استأجرت منزلاً كان مؤلّفاً من ثلاث غرف تدخلها أشّعة الشّمس. لم أكن أدرك سابقاً أهمّيّة ذلك الضّوء في حياتنا إلا بعد رحلة مريرة في المنازل والأماكن المعتمة. كان المنزل مطلّاً على حديقة جميلة وهادئة، وأغلب السّكّان في الحيّ من اللاجئين واللاجئات أمثالي فكان سهلاً أن نفهم جروح بعضنا البعض. شعرت في تلك المنطقة أنّي قريبة من سوريا، من بلدي، من العادات والتّقاليد الجميلة والنّخوة لدى شبّان وشابّات سوريا. تيسّر حال زوجي واستطاع بعد أشهر أن يصل إلى أورفة.

عندما تنفّست الصّعداء، قدّمت امتحان «اليوز»، وهو امتحان القبول في الجامعات التّركيّة للأجانب، يعتمد على الرّياضيات والمنطق، وهو المطلوب للتّقديم على الجامعة. نجحت فيه، وها أنا الآن أدرس العلوم السّياسيّة، كان ترتيبي هذه السّنة التّاسعة على دفعتي... اتركوني في مكان فيه بعض الاستقرار، وسترون ماذا يمكن أن أفعل |ضحك|.

من أنا الآن وما علاقتي بالأماكن؟

أنا الآن امرأة واثقة من نفسها، لديّ طموح كبير أريد ان أحقّقه. لديّ هدف أن أتقن اللّغة الإنجليزيّة، أن أتخرّج من الجامعة وأصبح باحثة متمكّنة. لأوّل مرّة أحسّ أنّني قادرة أن أضع هدفاً ثمّ أسعى إليه، بعد أن أجبرتني الظّروف الصّعبة في السّنوات السّابقة أن أجاريها لأنقذ نفسي فقط.

أسافر إلى جامعتي في ماردين، وأعود إلى أورفة، إلى منزلي البسيط والصّغير. أرتاح في هذا المنزل علما أنّه لا يشبه بيت أهلي من ناحية المساحة، أو الأثاث، أو الرّاحة، أو الدفء، لكنّه منزل يجمعني وعائلتي. بدأت فيه بتكوين مسار جديد لحياتي، الدّراسة والعمل، فزوجي لا يستطيع العمل لعدم حصوله على إقامة حتّى الآن. أشعر ببعض الانتماء والامتنان بنفس الوقت، فها أنا قادرة على البدء من جديد.

لم تدم حالة الاستقرار التي صنعناها لأنفسنا في أورفة، أصبح طفلي في الصّفّ الأوّل ولم تستقبله أيّ مدرسة حكوميّة. كان من الصّعب وضعه في مدرسة خاصّة لغلاء الأقساط، وزوجي حاول مراراً الذّهاب إلى دائرة الهجرة لاستصدار الأوراق، لكنّ معاملتهم كانت سيّئة جدّاً حتى إنّهم مزّقوا الورقة التي كانوا قد أعطوه إيّاها كورقة أوّلية لاستصدار الكمليك. وهكذا وضعتنا الظّروف أمام خيارين لا ثالث لهما: إمّا العودة إلى مرسين، وبذلك أخسر جامعتي لبعدها كثيراً عن المكان، أو الانتقال إلى ماردين حيث كانت إدارة المدينة ما تزال تصدر إقامات للّاجئين واللّاجئات السّوريّات، وبذلك أستطيع إكمال دراستي. كان خيار ماردين هو الأفضل، جهّزت أوراقي وقدّمت على دائرة الهجرة. هذه المرّة لست بحاجة لسماسرة، أصبحت أعرف القوانين وأتحدّث اللّغة ولو جزئيّاً. انتظرت بضع دقائق على غير

العـادة في بـاقي الولايـات، حيـث كنّـا ندفـع أمـوالاً فقـط لحجـز الـدّور ونقـف بالسّـاعات لأجـل ذلـك. دخلـت، قدّمـت أوراقي، قـال لي الموظـف بعـد دقائـق: «لقـد انتقلـت إقامتـك وإقامـات الأطفـال، وتسـتطيعين حجـز موعـد مـن أجـل زوجـك.» نظـرت لـه وقلـت: «هكـذا فقـط!!!» لـم أسـتطع منـع نفسـي مـن البـكاء، سـألني مسـتغرباً، قلـت لـه: "شـكراً لأنّـك عاملتـني كإنسـانة» وخرجـت. طـوال الطّريـق كنـت أفكّـر بكلّ مـا حـدث معـي، بالفعـل لـم تكـن أيّ معاملـة تلقّيتهـا تـرقى لأن تكـون إنسـانيّة في أيّ فصـل مـن فصـول رحلـتي. انتقلـت إلى ماردين، واسـتصدر زوجي إقامـة مـع حفـظ الكرامـة.

كيف تتحقّق عدالتك وعدالة المكان؟

قـام أهـلي بإصـلاح بيتنـا قـدر الإمـكان، يؤجّرونـه في الصّيـف ويسـكنونه في الشّـتاء. أصبـح مصـدراً للـرّزق، بعـد أن كان بيتـاً للعائلـة والحـبّ والحنـان. أنظـر إلى صـوره الآن فأحـسّ أنّ البيـت قـد كـبر عمريّـاً، للبيـوت أرواح مثلنـا، تحـسّ وتكـبر، وتحـزن. لقـد تعـب بيـت أهـلي وبانـت عليـه ملامـح التّقـدّم في العمـر. كـم أشـتاق أن أمسـك المطرقـة عـلى البـاب الخـارجي لأطـرق بـاب البيـت، أحضرهـا أبي مـن بلغاريـا حينهـا وهـي عـلى شـكل وجـه إنسـان. كلّ زاويـة في ذلـك البيـت لهـا حكايـة. أشـتاق إلى النّـوم فيـه، إلى الحديـث مـع أخـتي في غرفتهـا. غريبـة علاقتنـا مـع الأماكـن، أحـسّ أحيانـاً أنّهـا قـد تكـون أقـوى مـن علاقـتي مـع الأشـخاص، أحـسّ أنّ بيـتي يريـد أنّ يضمّـني، يريـد أن يبـكي عـلى كتفـي وأن أبـكي عـلى كتفـه.

أتذكّـره دائمـاً، ولا يغيـب عـن بـالي، كلّمـا سـمعت فـيروز ونـصري شـمس الدّيـن، أتذكّـره وأهـلي وإخـوتي وأخـواتي وابتسـم. (يـا جبـل البعيـد خلفـك حباينـا)[xlvi] هـذه الأغنيـة تشـبه حالنـا كثـيراً.

العدالـة الـتي أراهـا أو أتمنّاهـا قـد تختلـف عـن العدالـة الـتي تطلبهـا أو يطلبهـا غـيري. بالنّسـبة لي، أن نعـود إلى أرضنـا، أن يتغـير النّظـام السّـياسي، ويتعاقـب رؤوسـه، ألا نخـاف مـن أيّـة ملاحقـات أمنيّـة. ولكـن، هـل سـيتحقّق ذلـك؟ أخـاف أن نعـود بعـد التّغيـير السّـياسي، وأن

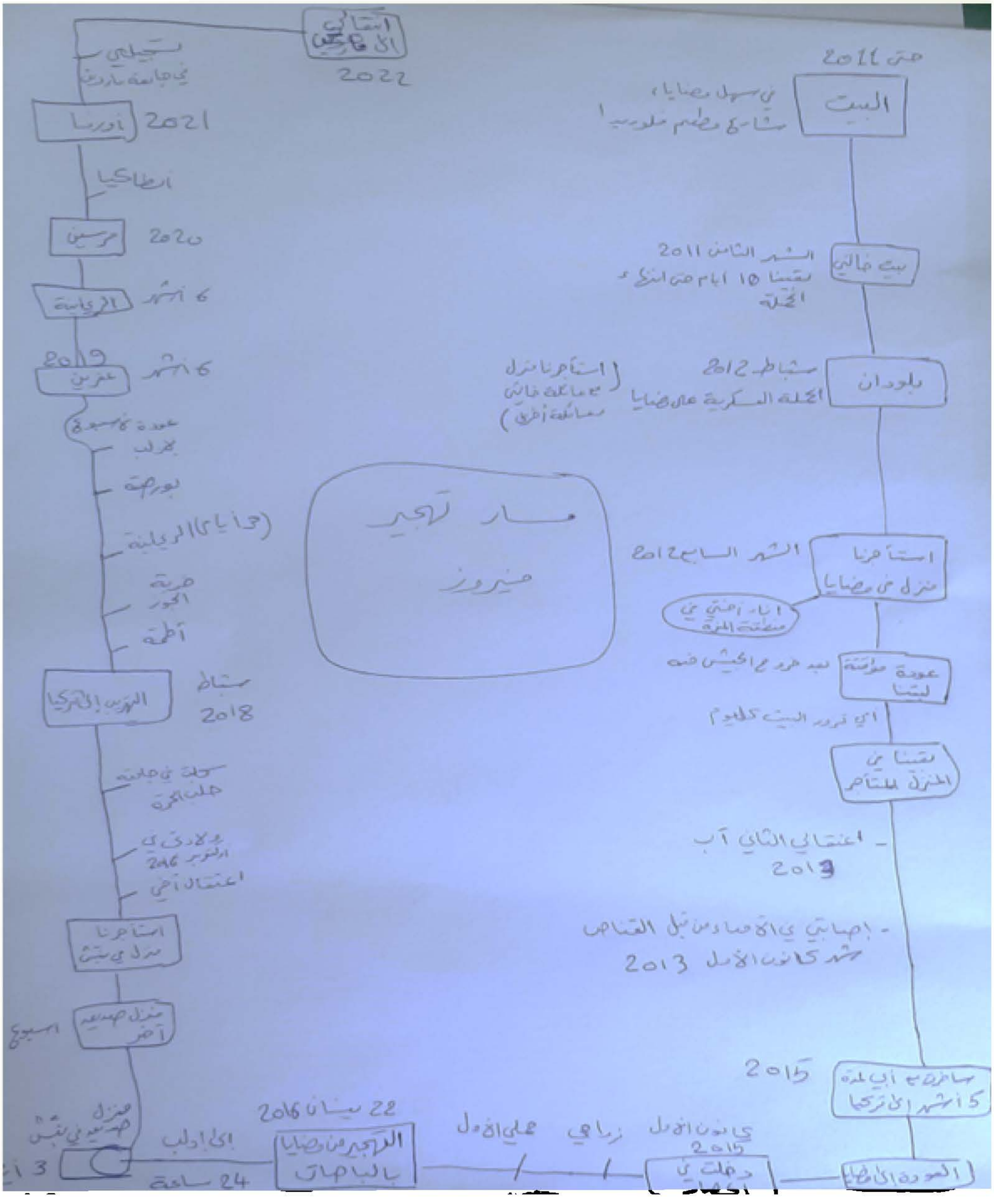
xlvi أغنيـة لفيروز تغني فيها لبيوت وأشخاص لم يعد بإمكانها الالتقاء بهم أو العيش معهم.

نعيش مثلاً لمدّة سنة دون خوف من المداهمات أو الملاحقات، ثمّ يتغيّر شيء ما ونعود لنفس الدّوّامة، ليس لديّ ثقة بأنّ ما حصل لن يتكرّر.

أريد مكاناً أستقر فيه مع أولادي حاليّاً، تعبنا من الانتقال بين المنازل، أنا أستطيع التّأقلم وأجبر نفسي عليه، لكنّ أطفالي يتأثّرون كثيراً كلّما انتقلنا من مكان إلى آخر. اكتشفت مؤخّراً أنّ ابني لديه اضطراب نفسي متعلّق بتغيير المكان، يتعب نفسيّاً كثيراً، وتبقى ذكرياته متعلّقة بالمكان السّابق. من السّهل جدّاً هنا في تركيا أن يأتي صاحب المنزل ليطلب منّا الخروج بعد أسابيع، دائماً بحجّة تزويجه لأحد أبنائه. وحتى لو كان عقدنا سنويّاً، فلا حلّ أمامنا سوى الخروج والانتقال إلى مكان آخر.

أنا وأطفالي نكره المنازل الجديدة، لا نريد منزلاً جديداً بعد الآن... أتمنّى لو أنّ أطفالي يستطيعون رؤية البيت الذي تربّيت أنا فيه. أريد أن أعود إلى ذلك المكان، لا شيء يمكن أن يعوّض ذلك الشّعور. أنا ممتنّة للكثير من المدن التي عشت فيها بعد التّهجير: بنّش، الريحانيّة وأورفة، لكن كلّها روابط مؤقّتة لا تاريخ لها.

مسار تهجير فيروز حتى تاريخ رواية قصّتها



أريد أن يكون اسمي الدمشقيّة ...

تاريخ سرد القصّة: آب/ أغسطس ٢٠٢٢

هل تقولين عنّي أميّة؟
أنا والمكان عندما كنّا سوية
أنا في بداية عام ٢٠١١
القصف في شهر شباط
«قصفة شباط» والنّزوح الأوّل
وبدأت رحلة النّزوح والتّنقّل
كنت أزور لبنان كسائحة،
أمّا الآن فأنا نازحة
كنتُ عشرين امرأة في نفس الوقت
تعبي بين محاولات للاستقرار
ومحاولات للسّفر
بيت لحفظ الكرامة
للبيوت أرواح تذهب بذهاب أصحابها
مسار تهجير الدمشقيّة
حتّى تاريخ رواية قصّتها

هل تقولين عنّي أميّة؟

أنا امرأة من الزّبداني، كنت أسكن في وسط البلد، ولدت وعشت في الزّبداني، ثمّ انتقلْنا عندما كنت في الصّف الأوّل إلى الشام، إلى منطقة الميدان حيث كان يعمل والدي. عشْتُ طفولتي ومراهقتي بين منطقتَي الميدان والصّالحيّة حيث عائلة أمّي، ثمّ عدْتُ إلى الزّبداني عندما زوّجتني أمّي وأنا في السّابعة عشرة وعادت كلّ عائلتي معي.[xlvii]

كنت طالبة متميّزة في المدرسة وأحبّ الدّراسة كثيراً، كانت مدرّسة العلوم تقول لي إنّني سأصبح عالمة ذرّة وإنّها ستزورني في المبنى الذي سأعمل فيه لتذكّرني أنّها تنبّأت بذلك. تلك المُدرّسة امتنعت عن التّحدّث إليّ لمدّة ثلاثة أشهر عندما كنت في الصفّ الحادي عشر، فقد علمتْ أنّني مخطوبة وسأتزوّج قريباً. رفضتْ أن تتحدّث معي أو أن تصلّح لي أوراق المذاكرات والامتحان، كانت تنظر إليّ وتقول: «ما راح ضيّع جهدي معك، خلص راح تتزوّجي، هدمتِ حالك وضيّعتِ مستقبلك.» حتّى إنّها نعتتْ أهلي بالمجانين، خاصّة أنّ وضعنا المادّي كان جيّداً، لم تتقبّل قرارهم بتزويجي مبكّراً، فأنا لم أكن عبئاً ماديّاً عليهم. عندما كانت تقول لي هذه الكلمات، كنت أعود حزينة وغاضبة إلى البيت، وأمتنع عن رؤية خطيبي لفترة، لكنّه أصبح زوجي ووالد بناتي الخمس فيما بعد.

تزوّجت وانتقلت إلى الزّبداني لأعيش مع زوجي. أمّي قرّرت الانتقال معي أيضاً لأنّها تعلم أنّني طفلة وغير قادرة على إدارة بيتي وحدي. بدأتُ بإنجاب بناتي، الواحدة تلو الأخرى. في يوم من الأيّام، كانت ابنتي الثانية في الصّف الثّاني الابتدائيّ، وقد وزّعوا على الطّالبات بطاقات ليكتبْنَ فيها أسماء الأم والأب ومهنة كلّ منهما. جاءتْ ابنتي وحدّثتني أنّ والدة إحدى الطّالبتين اللّتين معها في نفس المقعد الدّراسي طبيبة ووالدة الأخرى مهندسة، بينما هي كتبت أنّ أمّها أمّيّة. صعقني الموقف، أنا التي كنْتُ من أشطر الطّالبات، أنا التي أدرّسُ بناتي جمعياً وأتابعهنّ في دروسهنّ، أنا في نظرهنّ أمّيّة؟

---

xlvii امتنعت الدمشقيّة عن ذكر عنوان بيتها في الزبداني لحماية من تبقّى من عائلتها هناك.

بدأت البحث عن معاهد خاصّة في الزّبداني لتقديم البكالوريا بفرعها الأدبيّ بعد انقطاع عن الدّراسة دام سبعة عشر عاماً، أي في سنّ الخامسة والثلاثين. رُفِضْتُ من كلّ المعاهد لأنّني متزوّجة، لم تكن هناك أيّ امرأة في الزبداني متزوّجة وتعيد البكالوريا، لم يكن ذلك اعتياديّاً، بل مستكراً، فلا يجب خلط المتزوّجات مع العازبات. استقبلني معهدٌ واحد كان قد بدأ حديثاً وتسعى إدارته لاستقطاب الطّالبات. قلتُ لهم إنّ لديّ ثلاثة شروط ووافقوا عليها: أريد الجلوس في المقعد الأوّل ولا أريد أحداً بجانبي، وسأؤدّي الصّلاة في مواعيدها، ولن أحضر صفوف الجغرافيا ولا التّاريخ ولا التّربية الوطنيّة، فلا وقت لديّ لذلك.

بكيت كثيراً في الأيام والأشهر الأولى، لم أتذكّر شيئاً من علمي السّابق، شعرتُ أنّ المنهاج التّعليمي هو فوق طاقتي. عانيتُ كذلك من الضّغط المجتمعي، كنتُ أسمع عبارة «بعد ما شاب ودّوه عالكتّاب»[xlviii] كثيراً، أو أنّه عليّ أن أكون مع أولادي وفي بيتي، لا أن أدرس. لكنّني واصلت الذّهاب إلى المعهد كلّ يوم، ودعمني زوجي إذ كان يقلّني بسيّارته، كما تلقّيت دعماً ودلالاً من أهلي وحماتي.

في الشّهر السّابق للامتحانات، قرّرْتُ أن أعزل نفسي في غرفة في الطّابق الثّاني من بيتي، أستقبل فقط الطّعام الذي تعدّه إحدى بناتي. قدّمت الامتحان، نجحت وكنت الأولى على المعهد، ذهبْتُ إلى ابنتي وقلْتُ لها: «بعد راح تقولي عنّي أميّة؟».

أردْتُ أن أدرس الصّحافة، أردْتُ أن أكتب وأعبّر عن الكثير من القضايا والأفكار التي تشغل رأسي، لكنّ أختي كانت معارضة لذلك واستمرّت في إقناع زوجي أنّ هذه المهنة لا فائدة منها في سوريا. كان الخيار الثّاني المفضّل لديّ هو الأدب الإنجليزي. درسْتُ هذا التّخصّص أنا وابنتي الكبرى سويّة، كنّا في سنوات مختلفة لكنّنا في نفس الكلّيّة. بقيْتُ في الجامعة ثمانية سنوات، فقد أنجبْتُ ابنتي الخامسة خلال دراستي، ولم أتخرّج إذ بقيت لديّ مادّتان، لم أستطع تقديم امتحانهما بسبب الأحداث في سوريا.

---

xlviii مثل شعبي يشير إلى شخص يقوم أو تقوم بفعل ما مثل الدّراسة، لا يتناسب مع العمر وذلك بحسب رأي المجتمع.

أريد أن أخبرك شيئاً، بعد أن نجحت في البكالوريا وكنْتُ أوّل امرأة متزوّجة تدرس في معهد خاصّ في الزّبداني، فتحتْ معظم المعاهد شعبة خاصّة للمتزوّجات، أذكر أنّ أربعين امرأة سجّلن في السّنة اللّاحقة.



رسم تجريدي يمثّل الدمشقيّة وهي تدرس في المعهد

أنا والمكان عندما كنّا سويّة

عندما تزوّجت وانتقلت مع زوجي إلى الزّبداني، عشنا في بيت أهل زوجي القديم، وانتقلوا هم إلى بيت جديد. كان البيت صغيراً، فيه غرفتان وموزّع رئيسي، موقعه جميل لأنّه على الشّارع العامّ، وأنا بصفتي اجتماعيّة جدّاً أحبْبت أنّني أرى الجميع وأسلّم عليهم/نّ ويسلّمون ويسلّمن عليّ كل يوم. لكنّ سقف البيت كان رقيقاً، وفي الصيف كان الجوّ فيه حارقاً. أمضيْتُ الكثير من أيّام الصّيف في بيت أهلي أو أهل زوجي. قمْنا بتجديد البيت بعد سنوات، وأصبح فيه ثلاث طوابق، طابق للبنات مع «ترّاس» (شرفة)، وطابق للضّيوف، والأوّل للعائلة. أحببته كثيراً، خاصّة بعد التّجديد، وكان مكاني المفضّل هو الموزّع الرّئيسي، حيث النّباتات والرّوائح العطرة. زرعت نبتة الكاوتشوك، شتلات اللّيمون التي كنت آخذها من بيت أمي «ملكة اللّيمون»، قبل أن تبدأ الاحداث كنّا ما زلنا نقوم باللّمسات الأخيرة من طلاء للأبواب وغير ذلك، فجاءت الحرب ودمّرت البيت وأبوابه.

مع كلّ حبي لبيتي، لكنّ بيت أهلي هو المفضّل لديّ، لقد قضيت فيه أياماً كثيرة، حتّى وأنا متزوّجة. أحبّ الجمعات التي كانت تُقام فيه والتي أشهرها جمعة «الحرّاق بإصبعه»، [xlix] أمّي شاميّة كما أخبرْتُك، كانت تطبخ هذه الأكلة في «حلّة» كبيرة لأنّها توزّع منها على كلّ بيت في حارتها. أحبّ أيّام فرك «الكشك» عند أمّي، إذ ندعو النّساء لمساعدتنا، ونحضّر الأطعمة والفواكه لهنّ. كنّا نفرك حوالي ثلاثين كيلوغراماً من الكشك ونضعها على سطح البيت حتّى تجفّ. أحبّ بيت أهلي كثيراً، نعم تعلقّت به أكثر من بيتي، وعلاقتي بأهلي كانت أقوى من علاقتي مع أهل بيتي، أحببتهم كثيراً... وما زلت.
في بيت أهلي، حقل كبير، قطعة من الجنّة، كنْتُ أذهب إليه كلّ مساء مع عائلتي سيراً على الأقدام. لكنّني بعد أن تعلّمت قيادة السّيّارة عقب نجاحي في البكالوريا، اشتريْتُ سيّارة وصرت آخذ الجميع إلى هناك بسيّارتي. بنى أخي هناك مكاناً يتّسع لجمعاتنا، وكان الغداء هناك كلّ يوم جمعة، بين سواقي المياه وفي ظلّ عريشة العنب.

---

xlix أكلة مشهورة في سوريا وخاصّة في مدينة دمشق.

لقد ظُلِمت كثيراً في البداية عندما تزوّجت وانتقلت إلى الزبداني، تغيّر كلّ شيء في حياتي، من فتاة همّها العلم والدّراسة، لا تفقه شيئاً في أشغال المنزل، إلى امرأة متزوّجة عليها إدارة بيت كامل والقيام بكلّ أعماله. لقد كنت مكسورة، أيقظتني كلمة ابنتي «أنّني أمّيّة» ودرسْتُ وتفوّقْتُ، وأصبحْتُ مثالاً للمرأة القويّة. ثمّ امتلكْتُ سيّارة وصرْتُ أذهب حيثما أريد، أصبحْتُ قويّة على الرغم من كلّ شيء، وكنت أعمل أيضاً، أردت أن أساعد زوجي، أعتقد أنّي أردت أن أكونَ سندَه، فأنا لم أنجبْ له صبيّاً ليساعده، أردْتُ أن أكون ذلك الصّبيّ، وأردت أن أكون إنسانة فاعلة. أعطيْتُ الدروس الخصوصيّة في اللّغة الإنجليزيّة للفتيات في فترتَي الصّباح والظّهيرة، وللطّلاّب الشّباب في فترة المساء. لم أخف أبداً من الجنس الآخر، ولم أسمح يوما لأحد من الرّجال أو الشّباب بتوجيه كلمة لي في الشّارع، كنْتُ قويّة، وكان الطّلاّب من أعمار بناتي، فلم تكن لديّ أي مشكلة في تعليمهم. كانت بعض المدارس الحكومية تستدعيني كذلك للتّعليم في حال غياب بعض المدرّسات لأيّام قليلة. كنت أجني حوالي خمسة وعشرين ألف ليرة سورية في الشّهر، لم يكن بالمبلغ القليل حينذاك.



رسم تجريدي لتجمّع النساء في بيت والدة الدمشقيّة لصنع الكشك

كان مكاني المفضّل هو الموزّع الرّئيسي، حيث النّباتات
والرّوائح العطرة.

أمضيْـــــتُ الكثيـــــــــــــــــــــــــــــــــــــر من أيّام الصّيف في بيت أهــــــــــــــلي
أو أهل زوجـــــــــــــي

الحـــــــــــرّاق
بإصبــــــــعه

في بيت أهلي، **حقل كبير،**
قطعــــــــــــــة من الجنــــــــــــــــّة

أحبّ بيت أهلي كثيراً، نعم تعلقّت به أكثر من بيتي

الكشـــــــــــك

نبتـــــة الكـــــاوتشـــــــوك...
شتلات اللّيمون

أصبــــــــــــحْتُ قويّـــــــــــــة على الرغم من كلّ شيء

لقد كنت مكســـــــورة، أيقظتـــــــني كلمة ابنتي
«أنّني أمّيّة»
ودرسْـــــــــــتُ وتفوّقْـــــــــــــــتُ

أنا في بداية عام ٢٠١١

قبل بداية الأحداث في ذلك العام، أتذكّر حادثة اختطاف طفل من الزّبداني (هاني برهان) في الأشهر الأولى[1] خرج الطّلاب من المدارس يوميّاً للمطالبة بحقّ الطّفل هاني ومحاسبة من ارتكبوا جريمة اختطافه وقتله. تجمّعوا يوميّاً وحملوا اللّافتات وساروا بها من منطقة "المحطّة «إلى منطقة "السّرايا». كان ذلك الفعل خطيراً عليهم وجديداً علينا، مظاهرة طلّابية بجانب المحطّة، تلك المنطقة المليئة بمراكز الخدمات الحكوميّة. طلبتْ مديرة المدرسة من المدرّسات محاولة منع الطّلّاب من القيام بتلك المظاهرات وذلك بالمشي معهم بعد انتهاء الدّوام المدرسيّ وإيصال كلّ منهم إلى بيته للتأكّد من عدم تجمّعهم. لكنّ الطّلّاب كانوا بطريقة ما يتجمّعون بعد ذلك ويقومون بالمظاهرات المطالِبة بحقّ صديقهم وزميلهم هاني.

ثمّ في الشّهر الثّالث حصلتْ أحداث درعا، وقامت على إثرها الكثير من المظاهرات في الزبداني. حمل المتظاهرون شتلات الزّيتون في إحدى المرّات على ما أذكر تضامناً مع درعا. لكنّ الفترة السّلميّة للمظاهرات لم تستمّر طويلاً، ففي إحدى المظاهرات قام أحدهم بإطلاق النّار على شابّ من الزبداني وكذلك الأمر على أحد عناصر قوى الأمن. أنا متيقّنة أنّ من فعل ذلك كان هدفه أن تتسلّح تلك المظاهرات، لا أدري إن كانت جداول أعمال «أجندات» داخليّة أم خارجيّة. خِفْنا جميعاً، وخرج المثقّفون من الزبداني على الإعلام للتّحذير من التّسليح، ونوّه بعضهم أنّ من سيحمل بندقيّة اليوم سيجد الدبّابة على باب بيته غداً، وهو ما حصل فعلاً. امتعضْتُ كثيراً عندما حمل بعض الشّباب السّلاح، وأدركْتُ أنّ منحى الثورة سيتغيّر، كنتُ أقوم عندها بأعمال سأصفها بالإنسانيّة، أساعد زوجة معتقل حامل وستلد، أو أساعد عائلات المعتقلين والفقراء وأطفالهم بالمعونات الغذائيّة والنّقود.

---

1 تحول اختطاف الطفل "هاني برهان" ومقتله إلى قضية اجتماعية أثارت الرأي العام في سوريا، ما دفع مجموعة من المتعاطفين معه إلى تأسيس مجموعات عديدة على موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك" أشهرها: "نطلب محاسبة المسؤولين المقصرين في قضية قتل الطفل هاني برهان"، "مجموعة الشهيد الطفل هاني برهان - معا للقصاص من القتلة".
هذا الشرح مقتطع من تقرير بعنوان « اختطاف ومقتل الطفل "هاني".. جريمة تهز أرجاء سوريا»، نوّارة، جريدة نورت الالكترونية، ١١، آذار، ٢٠١١.

بدأت المداهمات اليوميّة والحملات العسكريّة على الزبداني، كانت أقساها مداهمات عسكريّة وأمنيّة حدثت في أحد الأشهر الأخيرة من عام ٢٠١١ واستمرّت لمدّة خمسة عشر يوماً. منعوا الأهالي من الخروج، اصطفّت الدبّابة على باب بيتي، اختبأ الرّجال خوفاً من الاعتقال، وخرجنا نحن النساء لإحضار احتياجات البيت.
كنت أشارك ما أطبخه مع جنود النّظام ممّن تمركزوا قرب بيتي. كانوا صغاراً، ينامون في البرد، طبخت لهم كلّ أنواع «الكبّة»، وما أدراكِ كم هي شهيّة تلك الكبّة التي أطبخها. أرسلت لهم الأغطية والطّعام أكثر من مرّة، كان بيتي ما يزال مليئاً بالطّعام والمؤونة، وكنْتُ قادرة على هذا الفعل.

مرضت إحدى الطّفلات في إحدى الليالي، قلت لزوجي إنّي سآخذها إلى منزل أحد الأطبّاء، فرفض وقال إنّي مجنونة، فالخروج في ذلك الوضع ليلاً هو ضرب من الجنون. كان محقّاً، فالكهرباء مقطوعة عن كلّ المناطق، والدبّابات والحواجز في كلّ حارة. أصرّيْت وقلت إنّي ذاهبة مهما حصل. عرضَتْ عليّ إحدى الطّفلات أن ترافقني وأختها المريضة، رفضْتُ وقلتُ لها «إذا صار شي، ما في داعي نموت كلنا، أنا وإختك وبس.» سألني عسكريّ عند أوّل حاجز عن وجهتي، أجبته أن ابنتي مريضة وطلبْتُ منه الصّعود معي لمساعدتي على باقي الحواجز، قال لي: «لا تكتّري حكي، في شي دكتور هلّأ فاتح؟» فأخبرته أنّي ذاهبة إلى منزل طبيب في منطقة الفيلّات. تركني أمرّ، وقفْتُ كلّ خمس دقائق على حاجز، وخفت كثيراً عندما رأيت ساحة المحطّة مليئة بالدبّابات، كنت أدّعي القوّة «مُسترجلة»[li] لكنّ الأنثى في داخلي كانت مرعوبة جداً، أيّ خطأ منّي، مسار خاطئ، إشارة ضوء خاطئة من سيّارتي ثمنها حياتي وابنتي. وصلت إلى الطبيب، أعطاني الأدوية اللّازمة، وعدْتُ ليلاً من نفس الطّريق.

li صفة تُطلق على المرأة التي تقوم بأفعال يُصنفها المجتمع على أنّها خاصة بالرجال ولا يعترف بها كخصائص متعلّقة بالشخصية التي تقوم بها بغضّ النظر عن الجنس أو النوع الاجتماعي، مثل حمل الأشياء الثقيلة، اللعب على الأشجار، إظهار القوّة، عدم الخوف، التحدّث بصوت عالٍ، إبداء الرأي في المساحات العامّة...إلخ وقد تُطلقها المرأة على نفسها أيضا.



رسم تجريدي لحالة الدمشقيّة وهي تحاول إيصال ابنتها إلى الطبيب ليلاً

القصف في شهر شباط «قصفة شباط» [lii] والنزّوح الأوّل

تصاعدت الأحداث بين الطّرفين مع بدء حملة النّظام على الزبداني في شهر شباط/ فبراير ٢٠١٢، حملة عنيفة جدّاً، خرج بسببها معظم أهالي الزبداني من بيوتهم. كانت القذائف تمطر علينا من كلّ صوب، وبيتي كان في الواجهة مقابل الدّبّابة.

في يوم لا أنساه، كنّا أنا وبناتي الثّلاث وزوجي في البيت، وكانت ابنتاي الكبيرتان اللتان تدرسان في الجامعة في دمشق، في شقّة استأجرْتُها لهما خوفاً عليهما من الذّهاب والإياب في هذه الأوضاع المُرعبة. سمعنا صوتاً قويّاً وشاهدنا ضوءاً شديداً في بيتنا، ركضْنا واختبأنا جميعاً في غرفتي، طلبْتُ من زوجي أن يفصل الكهرباء منعاً لاحتراق البيت، ظنّاً منّي أنّ علبة الكهرباء قد انفجرت. بينما كان زوجي ينزل الدّرج، اشتعل شيء آخر أمامه، فعلمْنا أنّها ليستْ علبة الكهرباء، كان صاروخٌ كبير قد سقط في بيت جيراننا. بكينا جميعنا من الصّدمة والخوف، لكن كان علينا التّصرّف بسرعة، فالمدفعيّة مقابل بيتي ويمكن أن ترمي بقذيفتها في أيّ لحظة. كان ملجؤنا الوحيد هو بيت أهل زوجي المقابل لنا، بيني وبينهم شارع. إنّه أكثر أماناً لأنّه في الجهة المعاكسة للقذائف. وقفت في باب بيتي، وحماتي على باب بيتها، كانت مهمّتي أن أرسل لها الفتيات، ليعبرْن الشارع فتمسكهنّ حماتي وتدخلهنّ إلى دارها، ولأفعل ذلك كان عليّ أن استغلّ فترة تجهيز العسكري للقذيفة القادمة لأفتح باب البيت وأرسل الفتيات، فتاة تلو الأخرى، فتاة بين القذيفة والأخرى.

بقيْتُ أنا في بيتي، فزوجي تمكّن من الذهاب أوّلاً لمساعدة الفتيات، لمدّة نصف ساعة، في الظّلام، فالكهرباء مقطوعة منذ أشهر، وزادت فترات انقطاعها خلال القصف. «تشاهدْتُ» [liii] على روحي، بعد أن أصّر زوجي على هروبي إليهم، وقطعْتُ الشّارع ووصلْتُ

---

lii قصفة شباط، هو المصطلح الذي استخدمته الدمشقية للتعبير عن حدث معيّن ومؤثّر يتعلّق بقصف قوّات النظام السوري لمنطقة الزبداني.

liii أي قالت: أشهدُ أنّ لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله، وهو ما يجب أن تقوله كمسلمة عند إحساسها باقتراب أجلها.

إلى بيتهم. بقيْنا عند بيت أهل زوجي مدّة خمسة أو ستّة أيّام، فبيتي تهدّم منه قسم كبير ومن الصّعب الرّجوع إليه، والقذائف ما زالت تنهال. كان عددنا كبيراً، ولجأ إلينا الكثير من الجيران، فأصبح العدد حوالي ثلاثين شخصاً في مكان واحد. سقطت إحدى القذائف في حديقة المطبخ فيما كنّا نجهّز الطّعام، فهربنا جميعاً إلى الدّاخل، إلّا والد زوجي، لم يتحرّك من على الأريكة التي كان ممدّاً عليها، رفض أن يتحرّك، كم استغربت سلوكه حينها. بعدها قرّرنا أنا وزوجي وبناتي الذّهاب إلى منطقة وادي غزال في بلودان وكان النّزوح الأوّل.

صعدنا إلى بلودان بسيّارتي، ومعنا أخت زوجي. كانت الوجهة إلى إحدى الفيلّات في بلودان. اتّصل زوجي بصاحبها وهو صديقه، وطلب منه أن نقيم فيها لبعض الوقت. كان عددنا كبيراً في سيّارة واحدة، والطّريق صعب، وأمامنا سيّارة لتكشف الطّريق وتتأكّد من قدرتنا على العبور. وصلنا هناك، كم أتذكّر البرد، كنا في شهر شباط، ومناطقنا باردة جدّاً كما تعلمين في هذا الوقت، ولا توجد أيّ أغطية شتويّة، حيث يستأجر هذه الفيلّا أناس من الخليج صيفاً ويتركونها شتاء، فلا أغطية ولا سجّاد ولا مدافئ. كم بردنا! تغطّينا بشراشف صيفيّة ونمْنا على الأرض، فلم يكن يوجد إلا أريكتان.

كان البرد والجوع أقسى من القصف، وممّا زاد الأمر سوءاً نزول قذيفة بجانب الفيلّا، علماً أنّ بلودان كانت غير مستهدفة، لكنّ النّظام قد عَلم أنّ أهالي الزبداني يُخرجون نساءهم وأطفالهم إلى بلودان، فصارت المراقبة عليها شديدة. لم نستطع أن نشعل ضوءاً في المنزل أو ضوء السّيّارة ليلاً. لم يكن معظم أهالي بلودان راضين عن نزوح أهالي الزبداني إليهم، فقد أرادوا أن تبقى منطقتهم آمنة... كنّا نطلب فقط أن يعاملونا بإنسانيّة. عندما نزلت القذيفة بجانب الفيلّا، أُصيبت ابنتي التي كانت في الصفّ العاشر بنوبة هلع، ازدادت دقّات قلبها وصَعُبَ عليها التّنفّس. أخذناها بسيّارتنا دون أن نشعل الأضواء، كان الوقت ليلاً وتعذبّنا كثيراً حتى وصلنا إلى طبيب في منزله.

عالجها حينها، لكن منذ ذلك اليوم وابنتي مصابة بالتهاب الأعصاب. تزوّجت لاحقاً وأنجبت طفلاً لديه نفس المرض، لم نجد لها علاجاً حتّى في الجامعة الأمريكيّة في بيروت.



رسـم تجريدي للدمشقيّة وهي تهرّب بناتها إلى بيت حماتها في الجهة المقابلة خوفاً من القذائف

وبدأت رحلة النّزوح والتّنقّل

ظللنا في وادي غزال مدّة أسبوع، ثم أُعلنت هدنة، فعدنا إلى بيتنا في الزبداني، وكانت حالته صادمة؛ فكلّ النّوافذ مكسّرة، لكن كان عليّ أن أتأقلم. لم تستمرّ الهدنة طويلاً وبدأت الاختراقات من الطّرفين وعادت القذائف لتنهال علينا بين الفينة والأخرى. قرّرت أن أذهب إلى دمشق، واستأجرنا منزلاً بالقرب من بيت جدّي لأمّي في منطقة المهاجرين. ذهبتْ معي أمّي وزوجة أخي وبقينا هناك مدّة شهر، حتّى تمّ إعلان هدنة ثانية، فعدْنا إلى الزبداني. لكنّ القصف تجدّد بعد أيّام، فانتقلْنا في الشّهر الرّابع أو الخامس من عام ٢٠١٢ إلى منزل في بلودان استأجرتْه أختي وعشنا فيه سويّة.

اشتدّ القصف على الزبداني، وصار الوضع خطيراً جدّاً على من تبقّى من عائلتنا الممتدّة هناك، فجاؤوا جميعاً إلى بلودان. أريد أن أخبرك أنّي لم أكن راضية عن الطّريقة التي أخذنا بها المنازل هناك؛ كنّا في البداية نتّصل مع صاحب المنزل ونأخذ إذنه في استضافة عائلة لوقت قصير، حتّى مع أخذ الإذن كنّا نضطرّ إلى كسر الأقفال والدّخول لعدم وجود مفاتيح، لكنْ عندما اشتدّ القصف، اقتحمنا بعض الشّقق في نفس البناية دون إذن، كان تصرّفاً إسعافيّاً، لكنّني لا أحبّه.
انتقلت عائلة أهلي، وأهل زوجي وأخته، أمّا نحن، فذهبنا إلى فيلّا كان زوجي قد عمل في بنائها في التّسعينات، اتّصل بصاحبها وأخذ الإذن. بقينا هناك ثلاثة أشهر، كانت مجهّزة بكلّ شيء، حتى أنّه كان فيها مسبح في الطّابق الثّالث، كان فيها منظار استخدمناه أحياناً لمعرفة مواقع القصف في الزبداني، وللاطمئنان على بيتنا. كنّا نستطيع رؤية كل الزبداني من تلك الفيلّا. كان قاسياً أن تري مدينتك تُقصف يوميّاً وأنت عاجزة عن فعل أيّ شيء إلّا حماية نفسك. خلال تلك الفترة كانت الهدن تحدث من حين إلى آخر، لمدّة يوم واحد، وأحياناً لساعات. في تلك الأوقات كنّا نذهب مسرعين إلى بيتنا لإحضار بعض الأغراض ونعود إلى بلودان قبل انتهاء الهدنة، وأحياناً كنّا نسير بين القذائف. بقينا هناك ومرّ «العيد

الصّغير/ عيد الفطر» ثمّ جاء في عيد الأضحى جميع أفراد عائلاتنا الممتدّة وقضوا الوقت معنا. لم نكن في أمان تامّ، فكان الرصاص يصل إلينا أحياناً، فنختبئ حتّى يتوقّف الاشتباك. كم كنت خائفة في تلك الأيام! كانت منطقة بلودان أكثر أماناً من الزبداني، لكنّ أهل بلودان كانوا غير مرتاحين بوجودنا، وكنت أسمع الكثير من الكلام البذيء والجارح، خاصّة بعد أن توفّي شابّ مسيحيّ من بلودان بقذيفة، فوضعوا كلّ اللّوم على أهالي الزبداني وطالبوا بخروجهم من بلودان. كنت أخاف على بناتي، أخاف من الاغتصاب، كان ذلك هاجسي طوال الوقت، نعم أنا امرأة قويّة لكن من الدّاخل لديّ خوف شديد أن يحدث أيّ شيء لبناتي. أخذت هذا الخوف عن أمّي، كانت دائماً تتحدّث عن هذا الموضوع، وتغضب منّي إذا ما أرسلت بناتي في رحلة وتذكّرني دائماً بإمكانية تعرضهنّ للاغتصاب في أيّ مكان. حاولت دائماً أن أترك الحريّة لبناتي، لكنّ وساوس أمّي قد دخلت عقلي، فكنْتُ أراقبهنّ حيثما كنّ وأخاف عليهنّ، حتى إنّي تنصّتُّ عليهنّ في كثير من الأحيان عندما كنّ يلعبن مع صديقاتهنّ في البيت. زرعت أمّي فيّ هذا الخوف منذ أن كنت صغيرة، مع أنّي لم أتعرّض لشيء، لكن هذه الهواجس سكنتني، فكيف لي أن أهدأ في هذا الوضع غير الآمن أبداً؟ دفعني الخوف أن أطلب من زوجي بشكل يومي تقريباً أن يذهب بنا إلى لبنان، خاصّة بعد أن وصل القصف إلى بلودان في عيد الأضحى، وعادت ابنتاي الصّغيرتان إلى البكاء، ردّدن نفس الجملة التي قالتاها في الزبداني: «نحنا ما بدنا نموت.»

وافق زوجي، أخذ ابنتي الصّغيرتين وسيّارتي وذهب إلى لبنان لاستكشاف الوضع، وبقيت مع بناتي في بلودان. لحقنا به أنا وابنة واحدة بعد عشرين يوماً، بقيت ابنتان في بلودان: الابنة رقم ثلاثة كانت في صفّ البكالوريا، وابنتي الكبرى في الجامعة. لم أخبرك شيئاً، أنا فعلت بابنتي الكبرى ما فعلته أمّي بي، لا أدري لماذا، زوّجتها بعمر السابعة عشرة، أنجبت طفلة بقيت معها ستّة أيّام ثمّ أخذتها منها عائلة زوجها وتطلّقت، بقيت ابنتي على أمل أن ترى طفلتها.

لكنّني الآن تغيّرت كثيراً، لا أقبل بأيّ زواج قبل الخامسة أو السادسة والعشرين من عمرها. كان من الصّعب أن تبقى الابنتان وحدهما في الفيلّا، قمْنا بعمليّة تبادل. ذهبت أختُ زوجي

مع صبيانها الأربعة إلى الفيلّا، وسكنتْ ابنتاي في البناية حيث بيت أهل زوجي - نعم أخت زوجي لديها أربعة صبيان وأنا لم أنجب صبيّاً واحداً... لديّ الكثير من العقد في حياتي... استطاعت ابنتي الكبرى أن تلتقي بطفلتها، لكنّ الطّفلة رفضتها، فهي لا تعرفها أبداً. اتّصلتْ ابنتي وقالت إنّها تريد اللّحاق بنا وحدث ذلك في تمّوز/ يوليو من عام ٢٠١٣.

كنت أزور لبنان كسائحة، أمّا الآن فأنا نازحة

جمّعتُ بعض الأغراض الضّروريّة ووضعْتُها في الحقائب، مررْت وابنتي على حاجز التّكيّة وبدأ تحقيق الحاجز معنا: لماذا أنت ذاهبة إلى لبنان؟ أين بناتك الأخريات؟ أين زوجك؟ ثمّ قال لي أحد العناصر إنّه يعرف زوجي ومكان عمله أيضاً، وذكر اسم العائلة التي كان زوجي يعمل لديها في لبنان. خفْتُ كثيراً وبدأت هواجس الاعتقال والاغتصاب تسيطر على أفكاري. استمرّ في تحقيقه، وتحدّث بأسلوب فيه استهزاء، لكنّه في النّهاية سمح لنا بالعبور. ركبنا في ميكرو (باص صغير الحجم)، وانطلقنا إلى لبنان. أراد السّائق أن يفتح معي حديثاً أكثر من مرّة، لكنّي صددْتُه وقلت له: «اتركني بحالي مشان الله». كانت مشاعري متداخلة، مختلطة ومتناقضة... هل أفرح لخروجي من ذلك الوضع المزري؟ أم أبكي على وطن لم يعدْ لي؟ هل أنا في حلم أم أنّها الحقيقة المرّة؟ أنا تركْتُ بيتي، تركْتُ الزبداني، تلك هي الحقيقة التي واجهت نفسي بها على طول الطّريق. كم عبرتُ ذاك الطريق إلى لبنان من صيف إلى الذي يليه، كنت أذهب كسائحة، أمّا الآن، ماذا أنا؟ نازحة؟ لاجئة؟ وإلى متى؟

وصلت إلى المنزل الذي استأجره زوجي في منطقة «القرعون»، وجدت غسّالة وبرّاداً مستعملَين لكنّهما كانا بحالة جيّدة. نظرت إلى الأرائك وإلى اهترائهنّ فغضبْتُ وبدأْتُ بالصّراخ بأنّنا يجب أن نقوم باستبدالها على الفور. في داخلي كنت على دراية أنّي أفرّغ من مشاعر الغضب والخوف والقهر، خاصّة أنّي تركت ابنتين في سوريا وحدهما في ظروف استثنائيّة. في نفس الوقت كنْتُ مرتاحة أنّي وصلْتُ عند زوجي. كان قد بدأ يعمل مباشرة في ورشات البناء عند العائلة التي ذكرها لي العسكري عند الحاجز، واستأجر ذلك المنزل.

أستطيع القول إنّ مأساتي الثّانية بدأت بانتقالي إلى لبنان سأخبرك بعد قليل عن عملي وإنجازاتي وعن بناتي، لكنّ المأساة تأتي من الذّلّ الذي أحسسْتُ به هنا. يقولون: «أن يذلّك القريب أسهل من أن يذلّك الغريب» لا لا، هذا المثل غير صحيح، لقد تعرّضت للذّلّ من أهل بلدي في سوريا، على الحواجز، وفي بلودان، أثناء القصف، والنزوح من مكان إلى آخر، لكنّ القهر والذّلّ هنا من نوع آخر؛ أن يجعلك البعض تشعرين وكأنّك حشرة، لا قيمة لك مهما فعلت. أنا زوّجت بناتي في لبنان وعندي ثلاثة أصهار وثلاثة أحفاد لبنانيّين، لكنّي أقول هذا الكلام أمامهم، وقلته في عملي أكثر من مرّة. لا أستطيع السّكوت والتّظاهر بأنّ الحياة ورديّة هنا.

أحياناً أفكّر بطريقة مختلفة؛ هل لديهم الحقّ بالنّظر إلينا بهذه الطّريقة البشعة؟ أتساءل، لو كنت أنا من أهالي بلودان أو كنت لبنانيّة، هل سأعامل أهالي الزبداني والسّوريّين والسّوريّات بفوقيّة كما فعل الكثيرون والكثيرات معي؟ لا أدري.

..... وكـــــــــــــــان النّــزوح الأوّل

كــــــم بردنــــــــا!
تغطّينا بشراشف صيفيّة ونمْنا على الأرض

هـــــــل أفــرح لخـــــــروجي من ذلك الوضــع المــزري؟
أم أبكــــــي على وطــــــن لم يعدْ لــــــــــــــــــي؟

كان قاسيــــــــاً
أن ترى مدينتــــك تُقصف يوميّـــاً
وأنت عاجــــــــزة عن فعل أيّ شيء **إلّا حماية نفسك**

اقتحمنـــــا بعض الشّقـــق في نفس البناية دون إذن،
كان تصرّفاً إسعافيّاً، لكنّني لا أحبّه.

«نحنا ما بدنا نموت»

كنْتُ عشرين امرأة في نفس الوقت

أخذْتُ بناتي لأسجّلهنّ في المدرسة، سألوني هناك عن عملي ودراستي، بعد أسبوع تواصلوا معي ليخبروني أنّ مدرسة خاصّة بحاجة إلى مدرّسات لغة عربيّة للصّفّ التّاسع. قلت نعم، لكن أنا درست الأدب الإنجليزي في سوريا، فقال المدير: «إنتو السّوريّين شاطرين بالعربي.» فعلاً، ذهبْتُ إلى هناك واجتزْتُ ثلاثة امتحانات في اللغة العربيّة وبدأت بالتّدريس. كانت ساعات قليلة في الأسبوع وكان الأجر قليلاً أيضاً (حوالي مائة دولار). عملت معي ابنتي التي كانت تدرس الصّحافة في سوريا ودرّست اللّغة العربيّة لطلّاب وطالبات البكالوريا، وأنا أصبحت بعد عدّة أشهر منسّقة للّغة العربيّة في تلك المدرسة. بعد أربعة أشهر قال لي مدير المدرسة إنّ إحدى المنظّمات الدّوليّة World Vision تبحث عن مدرّسة لمادّة العلوم، فوافقْتُ مباشرة وطلبت أيضاً أن تعملَ ابنتي التي درست الأدب الإنجليزي معي، وتمّ الأمر.

بعد فترة تعرّضت لموقف غير محبّب في المدرسة الخاصّة، فتركناها أنا وابنتي وبقيت أعمل مع المنظّمة الدّوليّة فقط. كانت ابنة المدير من الطّالبات الضّعيفات في اللّغة العربيّة، لذلك كان عليها حضور صفوف إضافيّة. وفي إحدى المرّات رفضت الدّخول إلى الدّرس، وقالت إنّها تحدّثت مع أمّها وهي من أعطتها وصديقاتها الإذن بعدم حضور الدّرس، ثمّ جاء والدها المدير ورأى الطّالبات خارج الصّفّ فغضب منيّ، أخبرته بما حدث لكنّه قال: «مش راح تخلص هالسّنة؟» في تلميح إلى انتهاء عقدي. غضبْت من قوله ذاك وقدّمْتُ استقالتي مباشرة، وخرجت ابنتي معي. طلب منها المدير أن تبقى، فما حدث معي لا يخصّها، لكنّها رفضت، وخرجنا نحن الاثنتان. أرسل لي مبلغاً مستحقّاً قدره سبعمائة دولار أمريكيّ، فرفضته لأنّني أنا التي تركْتُ العمل، وحسب النّظام الدّاخلي للمدرسة يجب ألّا آخذ أتعابي. ثمّ أعاد إرساله مرّة أخرى فرفضته مجدّداً وطلب منّي الجميع أن أوافق فالمبلغ كبير، لكنّي أحسسْت أنّ في قبوله تنازل عن كرامتي «المبلغ محرز بس نقفت عليّ كرامتي» |ضحك|

تلقّيت تدريبات في الدّعم النّفسي في المنظّمة الدّوليّة، وعملت معهم لمدّة ثماني سنوات، كنت في أربع منها مديرة لمدرسة تستقبل طلّاباً وطالبات من ستّة مخيّمات للعائلات السّوريّة. كنت المديرة، والمستشارة، ومن تحلّ المشاكل بين المخيّمات وبين الشّاويش[liv] وأهالي المخيّم. كان يجب أن أقوم بذلك وإلّا مُنع الطلّاب والطّالبات من القدوم إلى المدرسة. أحسسْت وكأنّني مختارة المنطقة، حتّى رئيس البلديّة لم يستطع التّدخّل في عملي، كنت إنسانة مهمّة في تلك السّنوات.

بعدها، قالوا لي في المنظمة بأنّه لا يحقّ لي كسوريّة أن أكون في الفريق الإداريّ وأنّني أستطيع أن أكون معلّمة فقط. حزنت كثيراً وأحسست أنّ هذا القرار طائفيّ وعنصريّ في آن معاً، لكنّي رضيت بالعمل، وعلّمت لمدّة أربع سنوات لاحقة. عملت في نفس الوقت مع منظّمة Mercy Corps في مجال الإغاثة وجمع البيانات ومع منظّمة ثالثة كمديرة مركز للدّعم النّفسيّ.

أرهقني كلّ هذا العمل، دائماً لديّ دوامان قبل وبعد الظهر وفي أيام العطل، وفي نفس الوقت لديّ خمس فتيات اثنتان منهنّ مخطوبتان. كنت أصنع المؤونة كذلك، بكلّ أنواعها كما في سوريا، كنت نسخة عن أمي في هذا المجال، كلّ سنة أموّن مائة كيلو من المكدوس، خمسين كيلو لبن أصنعه من الحليب بعد ترويبه، سبعين كيلو من الزيتون، ملوخية، بامية، مائة كيلو فول للتفريز، مائة كيلو بازلاء للتفريز، ثمانية صناديق من البندورة لصنع رُبّ البندورة، ثلاثين مرطباناً من مربى فواكه مختلفة. إضافة إلى ذلك، فقد حكْتُ الملابس الصوفيّة لبناتي. تعبت كثيراً وأصبت بالتهاب الكبد مع تعرّضي لكل تلك الضّغوطات، ثمّ شفيت منه لاحقاً. أتعبني التّعليم بشكل خاصّ، لذلك أخبرت أحد زملائي أنّي لا أستطيع الاستمرار، فرشّحني لمنظّمة أخرى تريد افتتاح روضة وتبحث عن مديرة. كنت أقوم بكلّ تلك الأعمال على الرغم من أنّ وضع زوجي المادّي كان جيّداً، وجميع بناتي يعملن، لكنّني

---

liv الشاويش هو لقب من يملك السلطة في المخيم، قد يكون هو مالك الأرض أو مستأجرها الذي يؤجر الخيم للاجئين واللاجئات، وهو المسؤول عن شؤون المخيم.

أردت دائماً أن أكون سنداً لزوجي وابنه الذي لم يأتِ. والسبب الآخر، أنّ الوضع الاقتصادي في لبنان صعب ومتقلّب جدّاً، خاصّة بالنّسبة للعائلات السّوريّة، وأنا لا أريد في أيّ لحظة أن أطرق باب جمعيّة ما لأخذ المعونات طالما أنّ لديّ وعائلتي القدرة على العمل.

تعبي بين محاولات للاستقرار ومحاولات للسّفر

لم أستمرّ كمديرة للرّوضة لفترة طويلة لأنّني سوريّة، وعدت لأعلّم مرّة أخرى. كنت مرهقة ومُجبرة في نفس الوقت على الاستمرار في العمل والبحث عن أشغال أخرى. بين عامي ٢٠١٥ و٢٠١٦ ادّخرنا مبلغاً جيّداً، وكانت خطّتنا أن نسافر من لبنان. ومع أنّ وضعنا المادّيّ كان مقبولا إلا أنّنا لم نستطع تحمّل العنصريّة من البعض. كم كلّفتنا محاولات السّفر، وكم فشلنا! وعدَنا أحدهم في المحاولة الأولى بتأمين جوازات وتأشيرات سفر للجميع مقابل مبلغ عشرة آلاف دولار أمريكي، دفعناها له ثمّ اختفى. بعدها دفعنا مبلغاً كبيراً وقدره ثلاثون ألف دولار ليسافر زوجي وابنتي إلى تركيّا ومنها إلى ألمانيا، كانت لديّ ثلاث فتيات فوق سنّ الثامنة عشر، لكنّنا قرّرنا أن تذهب اثنتان فقط، فالثالثة كانت مخطوبة وستتزوّج قريباً في لبنان.

عند مكتب الأختام في المطار، انتبه الضّابط أنّ جواز سفر زوجي صادر من مدينة حماه بينما جوازا ابنتيّ صادران من مدينة دمشق. شكّ في الأمر، تحقّق من جواز سفر زوجي فلم يجد له رقماً في نظام جوازات النّظام السّوريّ. أخذوا زوجي إلى السّجن بتهمة تزوير جواز السّفر، أمّا ابنتاي فقد سمح لهما الضّابط بصعود الطّيارة. احتارت الفتاتان، إحداهما رفضت السّفر دون والدها، أمّا الثّانية فأرادت السّفر وكانت واثقة أنني قادرة على إخراج والدها من السّجن. قال لهما الضّابط إنّ عليهما أن تقرّرا سريعاً، فالطائرة ستحلّق قريباً، قرّرتا البقاء وعادتا إليّ بكل الحقائب والنّقود التي كانت معهما.

تعرّضتا في طريق العودة إلى محاولة خطف من قبل سائق التّاكسي، لكنّ إحداهما أحسنت التّصرّف وتظاهرت بأنّها تتحدّث مع والدها وأنّها أرسلت له صورة رقم التّاكسي، فأوقف السّائق سيارته بعد أن أخذ طريقاً مختلفاً عن الطّريق المعتاد، وطلب منهما النّزول. لم تخبراني بما حدث لهما في طريق العودة إلّا بعد أسبوع، هجم هاجس الاغتصاب إلى مخيّلتي، بكيت، صرخت، عاتبتهما لعدم طلبهما منّي أن أذهب وآخذهما من المطار، انهلت بالضّرب على جسدي في استغراب تامّ من الفتاتين، هما تعلمان مخاوفي لكنّهما سالمتان وقويّتان ولم يحدث لهما شيء، فلمَ كلّ هذا الانفعال؟ مجرّد التّفكير بأنّ شيئاً كان سيحدث لهما دفعني للانهيار، ليس بيدي حيلة، هذه أنا.

تطوّعت ابنتي الكبرى في مسألة إخراج والدها من السّجن، على مدار شهر ونصف نزلت يوميّاً إلى بيروت، لم توكّل محامياً، فعلت كلّ شيء بيدها، واستطاعت أن تُعيده إلينا رغم كلّ الصعوبات وخيبات الأمل الّتي واجهتها. بعد أن أصبح زوجي بيننا، قلت للجميع إنّ موضوع السفر قد انتهى أمره، لن نحاول مرّة أخرى، فلقد خسرنا كلّ ما جمعناه بعرقنا وتعبنا، وملفّ السّفر الخاصّ بنا في الأمم المتّحدة عالق في دائرة الهجرة كما قالوا ويقولون دائماً. كان الحلّ بالنّسبة لي أن نستقرّ قدر الإمكان في لبنان، فنحن عالقون هنا، لا رجعة إلى سوريا ولا سفر من لبنان. سأدّخر كل قرش من دخل كلّ منا، ثمّ نشتري قطعة أرض ونبني بيتاً لنا، هذا ما سنفعله.[١٧]

بيت لحفظ الكرامة

بعد عمل كثير ومتعب أنا وزوجي وبعض بناتي، استطعنا أن ندّخر بعض المال. في عام ٢٠١٧ تواصلنا مع رئيس البلديّة وأعطى موافقته على بيع محضر الأرض. تشاركنا نحن وبيت أهل زوجي على بناء منزل لنتقاسم المصاريف ونبقى بالقرب من بعضنا البعض. أخذت الطّابق الأرضيّ مع الحديقة الأماميّة، وأخذ بيت أهل زوجي الطّابق الثّاني مع الحديقة الخلفيّة. إنّه منزل صغير بمساحة بيتي الذي في الزبداني، يتشابهان فقط في المساحة، حتّى

١٧ شرحت الدمشقيّة عن وضع الشراء والتملك للسوريين والسوريّات في لبنان: لا نستطيع في لبنان كسوريّات وسوريّين أن نتملّك أرضاً أو عقاراً، لكن يمكن أن كتابة وكالة عامّة لشخص موثوق وتُجدّد الوكالة كلّ خمس سنوات. يستطيع السوري أن يتملّك أرضا في حالة واحدة وهي أن يشتري ٢٤٠٠ سهم. أما بوضعنا فبالكاد استطعنا شراء ٥٠٠ متر مربع وبالشّراكة مع أخت زوجي، لكل منّا ٢٥٠ متر مربع.

إنّ ابنتي طلبت أن نعطيها منه خمسين متراً لها ولزوجها.

بعد أنّ بنينا هذا المنزل، فعل معظم أقاربنا ما فعلناه، اشتروا محاضر الأراضي بوكالة عامّة، وتشاركت كل ثلاث أو أربع عائلات على بناء منزل لهم، وصار كلّ الشارع تقريباً للعائلة الممتدّة وتفرّعاتها. أصبحت لدينا منازل تأوينا، لكن دون أيّة خدمات، فلا إنارة، ولا صرفاً صحيّاً ولا زفتاً للطّريق. لم تقدّم البلديّة أيّة خدمات لنا على الرّغم من وعدهم بذلك عندما اشترينا الأرض. طلب زوجي من أصحاب كلّ منزل أن يقدّموا مبلغ ألف دولار كي يستطيع تمديد الكهرباء وحفر المجاري الصّحيّة. كلّ ذلك استغرق وقتاً طويلاً، لكنّ الرّجال وزوجي والعمّال قاموا بكلّ شيء. بقي موضوع تزفيت الطّريق، لم نستطع القيام به فكلفته تصل إلى خمسين ألف دولار، فتأقلم كلّ منّا بطريقته مع الطّريق التّرابي، أنا أضع أكياس النايلون حول حذائي في الشتاء، ولديّ ممسحتان في السّيّارة، فلن أدخل على طلّابي والوحل يغطّي قدمَيّ وملابسي، أما في الصّيف فأستخدم قماشاً لتنظيف الغبار.

لا أشعر بأيّ انتماء لهذا المنزل، إنّه لي، نعم… لكن كلّ شيء آخر ليس لي ولا يحبّني، أو يشبهني. لا أشعر بانتماء إلى المنطقة ولا إلى لبنان، ولا أدري لو سافرت إلى أوروبا إن كنت سأشعر بأيّ انتماء…بنيت هذا البيت لحفظ كرامتي وكرامة العائلة، فلا أحد يجبرني على الخروج، ولا شعور بالتّهديد المستمرّ بالإخلاء أو بزيادة على الإيجار لا نستطيع دفعها.

أردت منزلاً لي لأنّي تعبت، وهدّني المرض. راتبي الآن مائة وخمسون دولاراً بسبب الأزمات المتالية هنا وانخفاض قيمة العملة اللبنانيّة. ادفع حوالي مائة دولار على الطّرقات، وأشتري أدويتي بما يتبقّى من راتبي. أصابني الضّغط الشّبابي عندما سجن زوجي في المطار، ووصل ضغطي الأعلى إلى ٢٢، ولم ينفع معي إلّا دواء ضغط فرنسي الصناعة وغالي السّعر، أحاول تأمينه أو طلبه بشتّى الطّرق. أعاني أيضاً من تعب في منطقة القلب، وفوق هذا كلّه أصابني التهاب الكبد ت «سي» الذي انتقل إليّ من عيادة طبيب الأسنان. تعبت كثيراً وانهار جسمي، وكان عليّ أن أستمرّ في فعل كلّ شيء، من عمل ومنزل وتدبير. ذهبت إلى الجامعة الأمريكيّة، قال لي الطّبيب إن سعر الدّواء الأوروبي تسعون ألف دولار، وسعر التركي ستون ألف دولار، والأرخص هو المصري وسعره خمسة عشر ألف دولار. أدري، أرقام صادمة، كان

لك أن تري وجهي عندما قال الطّبيب لي هذه الأرقام... أخبرت زوجي، فقال لي إنّه لا حلّ إلاّ أن نبيع المنزل ونشتري أحد هذه الأدوية. كنت أفضّل الموت على بيع البيت، رفضت رفضاً قاطعاً احترت كثيراً بنفسي، خفت على بناتي، وليس في يدي حيلة.

وفي أحد الأيام اتّصلت بأختي التي تعمل صّيدلانيّة في سوريا، فقالت إنّ الدواء الذي كان متوفّراً في سوريا سابقاً لهذا المرض مقطوع منذ سنوات، لكنّ هناك دواء أصدرته إحدى الشّركات الدّوائيّة السّوريّة وعمره سبعة أشهر لكنّه في الفترة التّجريبيّة وسعره مائتا دولار. طلبته منها وقلت لها إنّي سأتحمّل النّتائج مهما كانت. وصلني الدّواء، وضعته على الطّاولة في الصّالون -ليس لدي صالون لكنّني أعتبر الأريكة مع الطّاولة صالوناً |ضحك|- لمدّة ثلاث ساعات وأنا أبكي وأدعو ربي وأستخيره وأطلب منه المساعدة، ثمّ أخذت الدّواء، واستمرّيت عليه وكان فيه شفائي التامّ والحمد لله.

للبيوت أرواح تذهب بذهاب أصحابها

عام ٢٠١٤ عدت إلى الزبداني في هدنة استمرّت ستّة أيّام، وجدت بيتي مهدّماً، كلّ شيء فيه مكسّر، تسكنه الجرذان والفئران، إنّها في كل مكان، ووزن كلّ منها خمسة أو ستّة كيلو غرامات أو هكذا تخيّلت، أصبحت بيوتنا منازلاً لهم.

|بكاء| لو كانت روحي كافية لأهديتها للبيت وللزبداني مقابل أن يعود كلّ شيء كما كان. الكثير من أصحاب وصاحبات البيوت ماتوا، أو اختفوا، وإن عاد من بقوا على قيد الحياة فسنعود مكسورات ومكسورين، مقهورات ومقهورين وفي القلوب حزن كبير. للبيوت أرواح تذهب بذهاب أصحابها، لن تعود المحبّة التي كانت بين النّاس التي عاشت في البيوت وإن عادوا إليها. حتّى لو عدت غداً، فأنا لن أحسّ بشعور العودة إلى بيتي ووطني، فأنا وهم لسنا ملك أنفسنا في ذلك المكان.

لا تكفيـني ورقـة ملكيّـة البيـت، قـد أعـود يومـاً مـا لأرمّـم الجدران وأجلـس هنـاك، لكـن هـل سأشـعر بانتمـائي للمـكان؟ لا، أنـا أنتمـي للمـاضي وأحـنّ لـه ولأناسـه وروائحـه ومشـاكله وسـعادته، بينمـا هـذا الحـاضر لا يشـبهني في شيء. لا أدري، هـذا الشّـعور يزعجـني كثـيراً، فأنـا لـم أعـد إلى هنـاك منـذ سـنوات. أسـمع مـن أقـاربي وقريبـاتي عـن الحيـاة وصعوبتهـا، تغيّرت الملامح الـتي أرسـم بهـا صـورة المـكان في ذاكـرتي، وفـوق كلّ ذلـك، يخـاف النـاس مـن بعضهـم البعـض، والوضـع الأمـني في تدهـور، هـذا عـدا عـن انعـدام الخدمـات الأساسـيّة. أفكّـر بالعـودة أحيانـاً، ثـمّ أتذكّـر بنـاتي، كيـف سـأتركهنّ في لبنـان؟ نعـم هـنّ متزوّجـات، لكنّنـا نحـن الأهـل والدّعـم.

ثـمّ هـل هـذا هـو العـدل؟ أن يقولـوا لي في يـوم مـن الأيّـام إنّـه باسـتطاعتي العـودة، هـل أكـون قـد أخـذت حقّـي؟ حتّى لـو رمّمـوا البيـت دون أن أدفـع عليـه فلسـاً واحـداً، هـل أكـون قـد أخـذت حقّـي؟ مـن سـيعيد جـيراني وصديقـاتي؟ مـن سـيعيد نبـض الشّـوارع وحياتهـا؟ مـن سـيعيد الحيـاة إلى حقـل دار أهـلي؟ لا أرى عدالـة تُصلـح مـا مـضى. قـد تكـون العدالـة لي حاليّـاً أن أسـتطيع تسـجيل الأمـلاك في سـوريا باسـم بنـاتي، فهـنّ لا يرثـن شرعـاً سـوى الثُمـن، أمـا مـا تبقّـى فيذهـب إلى أولاد عـمّ زوجـي وأخواتـه البنـات، وكذلـك الأمـر بالنّسـبة إلى ورثـتي مـن أهـلي. أريـد ان أضمـن مسـتقبل بنـاتي، فأنـا وزوجـي سـنكبر ونمـوت، وليـس لديهـنّ أخ أو عـمّ يحميهـنّ، نعـم لديهـنّ أزواج وكلّ فتـاة لديهـا شـهادتان جامعيتـان، ويعملـن، لكـن لا أضمـن الزّمـن، وسـأرتاح إن سـجّلت لهـنّ أمـلاكاً في سـوريا...تلـك هـي العدالـة الـتي أترقّبهـا الآن، لا أكـثر.

لا أشـــعر بأيّ انتــماء لهـــــــــذا المنزل

، إنّه لي، نعم...

لكن كلّ شيء آخر ليس لي ولا يحبّني، أو يشبهني

أردت منزلاً لي لأنّي تعبـــــــــــــــــت،
وهدّني المرض...

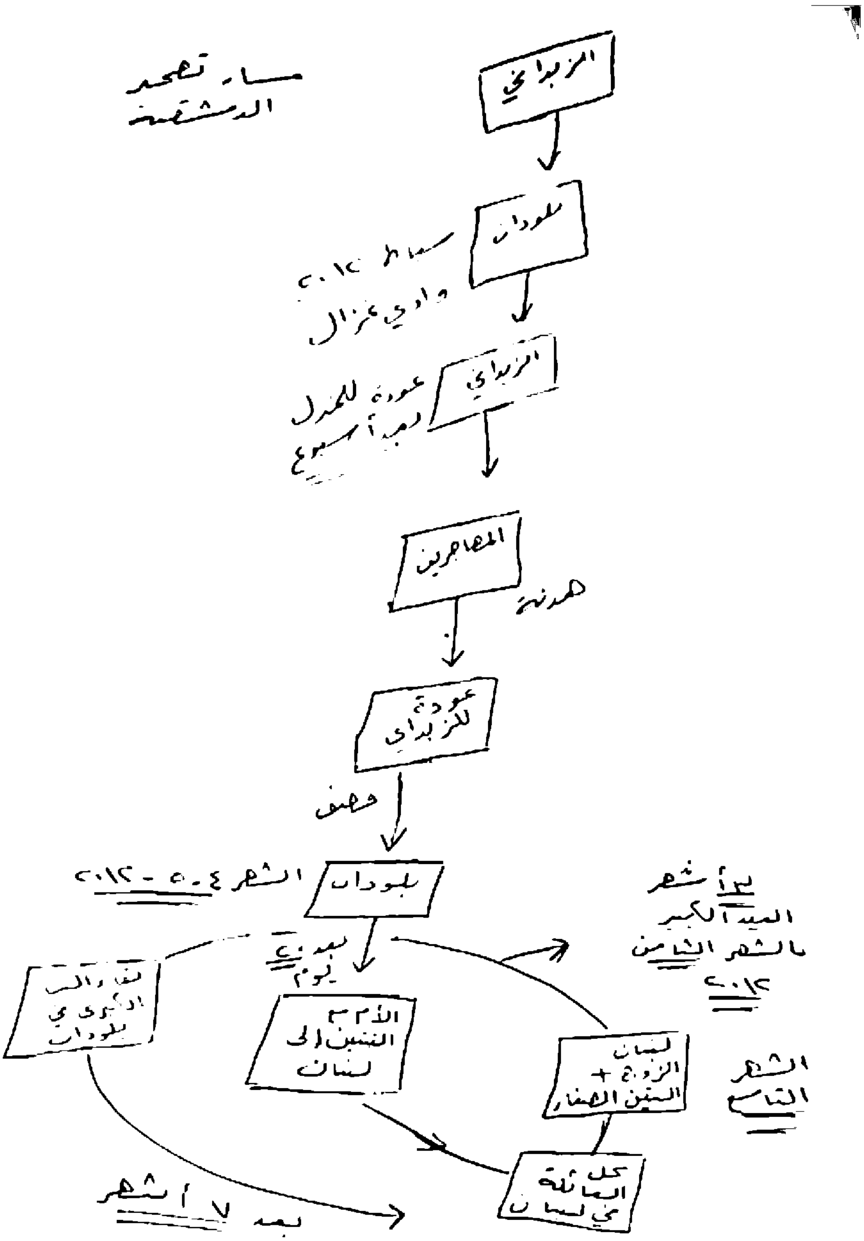
وجدت بيتي في الزبداني مهدّماً،
كـــــلّ شيء فيه مكسّـــــر،
تســكنه الجـرذان والفئـــران،
إنّهـــــا في كــــــل مكــــان

هــــذا الحـــاضـــــر لا يشبــهني
فــــــــي شـــــــــــيئ

للبـيـــــــــــوت أرواح
تذهب بذهاب أصحـــــابهـــا

من سيعيد الحياة إلى حقل دار أهلي؟

مسار تهجير الدمشقيـة حتى تاريخ رواية قصّتـــــها



أريد أن يكون اسمي شعــاع الأمــــل ...

أنــا والــمكان عندمــا كنّــا ســويـــــــة

تاريخ سرد القصّة: آب/ أغسطس ٢٠٢٢

مشاعر غريبة وخوف من المستقبل في ٢٠١١

الكثير من القصف والدّمار... لكنّني أريد العودة إلى بيتي

أنا وابنتي وشبحُ الموت

بين المستشفى والمنازل الكثيرة التي نزحنا إليها

أنا... ومضايا والحواجز العسكريّة

حصار مضايا ٢٠١٥ ...وابتعادي عن زوجي لمدّة سنتين

حذاء زوجي أمام المنزل... وعيني ساهرة طوال اللّيالي

زوجي صار معنا ... لكن مسؤوليّاتي ازدادت

حال بيتي وبيت أهلي في الزبداني

أيّ عدالة تلك التي سترمّمني؟

مســـار تهجيـر شعــــاع الأمــــل

حتّى تاريخ رواية قصّتها

أنا والمكان عندما كنّا سويّة

أنا من ريف دمشق، منطقة الزبداني، بيتي كان في الحارة الغربية. عمري ستّ وخمسون سنة، أمّ لخمسة من الأولاد والبنات، زوجي الآن معي بعد معاناة طويلة، وكلّ العائلة في لبنان.

عشت أنا وزوجي أوّل سنوات زواجنا مع بيت أهله، كنت أحلم بالاستقلال وبناء بيت خاصّ بي أكون ملكة عليه. في يوم من الأيّام صارحت زوجي وأطلقت العنان لخيالي، وصفت له بيت أحلامي بالتّفصيل، قلت له: «أحلم ببيت متوسط له مدخل خاصّ لسيارتنا، وتعتلي مدخله دالية عنب كبيرة، وعلى جانبي المدخل قناطر من الجصّ. أحلم بحديقة صغيرة فيها نباتات وأشجار مثمرة، ولأولادي ملعب فيها، وبحرة ماء صغيرة لها شلّال.» لم يكن وضعنا المادّي جيّداً عندما عبّرت عن مكنوناتي، لكنّ زوجي لم ينس حرفاً ممّا قلته، وبما أنّه كان يعمل في مجال البناء، فقد بنى لي بيت أحلامي بعد خمس سنوات من الحديث الذي ذكرته. كدت أصاب بالجنون عندما أخذني إلى ذلك البيت، رأيت حلمي أمام عيني... تحقّق حلمي [تنهيدة]

عندما تدخلين هناك غرفة الجلوس «القعدة»، ثمّ غرفة الضّيوف التي يليها ممرّ طويل وواسع حوله على الجانبين: غرفة نومي، غرفة نوم أولادي وبناتي، مطبخ كبير له باب على بلكونة خلفيّة، وغرفة للمؤونة كانت أشبه بالدّكّان الصغير الذي فيه كلّ ما قد يخطر أو لا يخطر على بال أحد: كلّها رفوف عليها كل أصناف الطعام والمواد، وكل وعاء مكتوب عليه اسم المادة التي بداخله.
في كل غرفة بنى زوجي مجمراً للحطب وبجانبه تمثال فلّاحة تخبز الخبز. وخلف البيت بنينا ملعباً لكرة السلّة للأطفال. كانت النيّة أن نجهّز مسبحاً أيضاً، لكنّنا اكتفينا بما لدينا. كان في بيتي كلّ ما نريد، في البلكونة الخلفية أرجوحة أجلس عليها وأحتسي القهوة حين

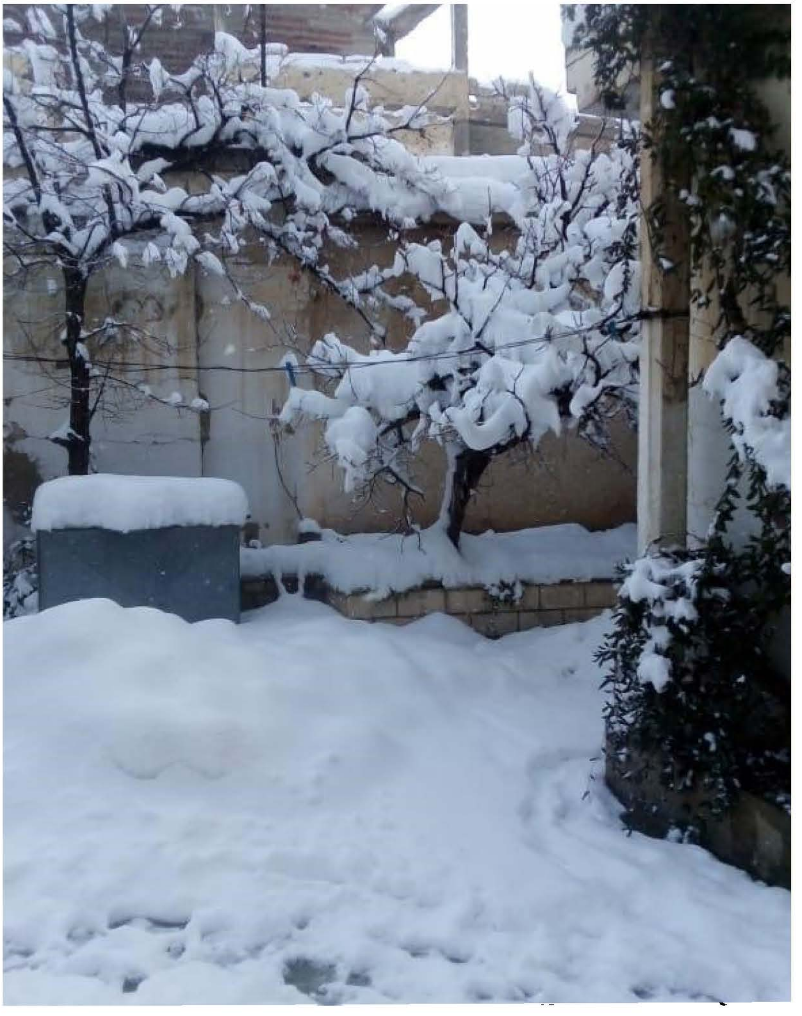
أنتهي من عملي، أنظر إلى أطفالي يلعبون بالمزلقة والمرجوحة، أو أسترخي لصوت الشلال ومنظره المليء بالأضواء وبالطبقات مختلفة العلو التي ينساب فيها الماء، أو أتأمّل أشجار البرتقال والليمون والمشمش والأكدنيا والمانجا وشجرتي الزيتون اللتين سدّتا حاجتنا لمؤونة الزيتون طوال تلك السنوات... وشجرة الجانرك |ضحك| كانت حديقةُ البيت قطعة من الجنّة على الأرض.



خريطة المكان باستخدام غوغل إيرث عام ٢٠١٠

في رمضان من كلّ سنة كنت أقيم عزيمة كبيرة لمرّة واحدة أدعو فيها جميع أفراد العائلتين من جهتي وجهة زوجي، أطبخ فيها ما طاب ولذّ من أصناف الطّعام، كنت أحضّر لها على مدى ثلاثة أيام ولا أحبّ أن يساعدني أحد، في التّحضير، هذا طبعي |ضحك|، كانت مُتعِبة جداً لكنّها من أغلى المناسبات على قلبي، نجتمع كلّنا ويمتلئ البيت بالصّغار والكبار.
حرفيّاً، كنت أحس أني ملكة، وهذا البيت مملكتي وزوجي هو الملك والخادم في نفس الوقت، فهو من لديه عصا سحريّة مهمّتها تنفيذ طلباتي بكلّ حبّ. لقد تزوّجنا عن حبّ، وأثبت لي كلّ يوم أنّه حبيبي، لذلك في فترة غيابه عني لاحقاً لم أعرف معنى النّوم، وأصابتني كلّ الأمراض الجسديّة والنفسيّة... هو معنا الآن والحمد لله.

كان مشواري إلى بيت أهلي، بيت أمّي الحنون، الأغلى على قلبي، كان يبعد عن بيتي حوالي عشرة دقائق (سيراً على الأقدام) فقط. أحنّ إلى بيت أمي أكثر حتّى من بيت أسرتي، لكنّني أنتمي أكثر إلى بيتي الذي عشت فيه مع أطفالي وزوجي. بيت أمّي من البيوت العربيّة القديمة جدّاً، كبير جدّاً، وفيه الكثير من الغرف، وفي المنتصف فيه ما نسمّيه بـ «المنزول»: مكان فيه بلكونات وبحرات وسقف عالٍ كنّا نحتاج إلى سلّمين للوصول إليه في أوقات التّنظيف «التّعزيل.» فيه من النّباتات والأشجار حوالي ٣٦٠ قطعة صيفاً وشتاء، وتحيط به قناطر كبيرة وله بوّابة هي تجمّع لثلاث أو أربع بوّابات مع بعضها البعض. كان بيتاً مليئاً بالحبّ والدفء، فأهل البيت أصحاب وصاحبات قلوب طيّبة ومحبّة، أمّي وأبي، وجدّتي، وإخوتي، وأخواتي. كان مكاناً تجتمع فيه العائلة الممتدّة بشكل يومي، عشت فيه طفولتي مع أخواتي الخمس وأخوَيَّ، كنّا أصدقاء وصديقات أكثر من إخوة وأخوات، نشاغب سويّاً ونضحك سويّة، ونسرق سيّارة أبي ونعود بها وهي مضروبة...|ضحك| في كلّ زاوية من ذلك البيت أنهار من الذّكريات الجميلة.



صورة لمدخل بيت أهل شعاع الأمل، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.

في ذلك البيت كنتُ شخصيّة مشاغبة، كثيرة الحركة وكثيرة المساعدة للجميع في نفس الوقت، يقولون لي إنّي لم أكن أحبّ نفسي كما كنت أحبّهم وأحبهنّ، إن مرضت إحداهنّ أو تعبت، أنا من أقوم عنها بكلّ أعمال البيت، حتى لو كانت كثيرة عليّ. ما زالت لديّ هذه العادة، عندي شعور مستمرّ بالذّنب إن رأيت محتاجاً أو محتاجة ولم أستطع المساعدة. يقولون لي إنّها عادة متعبة، لا أدري إن كانت هذه الخصلة جيّدة أو لا، لكنّني أحبّها وتتعبني في نفس الوقت [ضحك].

بنى لي بيت أحلامي بعد خمس سنوات

كانت حديقـــــةُ البيـــت قطعـــة من
الجنّة على الأرض

كان في بيتـــــــــي كـــــــــلّ ما نريد

كنت أحس أني مـــــــــــلكة،
و هذا البيت مملكــــــــتي
وزوجـــي هو الملك والخـــــادم في نفـــس الوقـــــــت

كـان مكـــــاناً تجتمع فيه **العائلة الممتدّة**
بشـــــكــــل يومـــــــــــــــــــــــي

في كلّ زاويـــــــة من ذلك البيت
أنهـــــار من الذّكريات الجميلة

أحنّ إلى بيت أمي أكثر حتّى من بيت أسرتي

مشاعر غريبة وخوف من المستقبل في ٢٠١١

في بداية الثورة والمظاهرات كانت مشاعري مختلطة... ما الذي يحدث؟ نحن الشّعب الذي يهمس همساً إذا أراد الحديث عن أيّ موضوع سياسي يخصّ البلد، نخرج اليوم في مظاهرات ونرفض النظام بهذا الصوت العالي؟ هل ما يحدث هو ردّ الفعل الصحيح على سلوك هذا النظام القاسي؟ ألا يجب أن نتروّى أكثر؟ وفي المقابل، ما هذا العنف الكبير من جهة النّظام؟

عاهدت زوجي منذ بداية المظاهرات ألا أشارك فيها، كان لدينا خوف على بناتنا بشكل خاصّ. أختي كانت ناشطة ومن المُنظِّمات للمظاهرات، ومع ذلك وافقته وقررت ألّا أخون ثقته بي. في مرّات كثيرة كانت تبدأ مظاهرة في شارع كنت أشتري الأغراض من محلّاته، فأغيّر طريقي، حتى لو رأيت وجوهاً أعرفها. لم أنجح دائماً في تفادي المظاهرات، كنت أهرب أحياناً إلى الشّارع الموازي، فيركض المتظاهرون والمتظاهرات هرباً من قوات الأمن إلى نفس الشّارع.

ازداد رعبي ممّا يحدث عندما حصل أوّل إطلاق للنّار في الزبداني في أواخر الشهر الثالث أو بداية الشهر الرابع من عام ٢٠١١، كان الثوّار يخرجون بمظاهرتهم من جامع الجسر، حصل إطلاق نار واستشهد ابن جيراننا، قال البعض إنّ من أطلق النار هو من قوّات الأمن، وآخرون أكدّوا أنهم رأوا شباناً ملثّمين يطلقون النار ويهربون وذهب البعض إلى أنّه فعل مقصود من جهة ما لقلب المظاهرات السلميّة إلى مسلّحة. الشهيد هو ابن العائلة التي تقطن خلف بيتنا، لم أكن أعرفه جيّداً لكنّني بكيت على موته ثلاثة أيّام متواصلة، بكاء جهور وبصوت عالٍ، حتى الآن لا أفهم المشاعر التي انتابتني، هل هي فعلاً حزن صِرْف عليه؟ أم خوف على أولادي؟ على البلد والمستقبل؟ لا أدري... حتى الآن لا أفهم سبب انهياري حينها.

وفي اليوم الثالث عشر من الشهر الخامس من عام ٢٠١١ حصلت معركة سمّوها بمعركة الجديد حيث حصلت في الشّارع الجديد، وقُتل أحد الضبّاط من جهة قوّات النظام فجنّ جنونهم، وبدأوا بإطلاق النّار الكثيف على البيوت، وعلقت فتياتي في مدارسهنّ. لم يسمحوا لابنتي الكبرى التي تدرس في الجامعة أو لأحد من الزبداني بالعودة من دمشق، وانتظروا لمّدة عشر ساعات، عشت فيها لحظات رعب ومرّت عليّ كأنها سنوات. كلّ ذلك مع انقطاع للكهرباء ولشبكة الاتّصال، حتى أهلي صار من الصّعب الاطمئنان عليهم. بقيت الهواتف الأرضيّة في الخدمة، لكن كان عليك أن تكوني حذرة بكلّ كلمة وسؤال.

تصاعدت وتيرة الأحداث بسرعة، في أحد الأيّام كنت أريد وزوجي شراء الحليب لأصنع الكشك، كان ذلك في الثاني والعشرين من شهر حزيران من عام ٢٠١٢، وفيما نحن نشتري الحليب سمعنا صوت إطلاق نار قريب، أخذنا الحليب دون حساب وخرجنا بسيارتنا من طريق آخر ظنّاً منّا أنّه أكثر أماناً، إلّا أن الثوار كانوا قد هربوا من المظاهرة إلى ذلك الشارع وضرب النّظام عليهم قذيفة في اللّحظة التي دخلنا فيها الشّارع، فأصبحنا داخل غمامة غبار سوداء، صرخات متفرّقة، وهدوء مريب بنفس اللحظة. مشينا بهدوء كي نستكشف طريقنا في كل ذاك الغبار، نجحنا في تجاوز الغمامة وأصبحت الرؤية أوضح، فرأيت مجموعة من الشباب يحملون جثة شاب مغطاة بالدماء، اجتاحني الفضول، أريد أن أعرف من هذا الشاب، فحاولت أن أدقّق في الملامح وظننت أنّه ابن أختي، ذات الطول وشكل الجسم، فبدأت بالصراخ وزوجي يقول لي إنّه لا يستطيع الرّجوع إلى الخلف كي نتأكّد، ولتهدئتي حلف أنّه ليس ابن أختي، وفعلاً لم يكن هو، بل ابن عمّه الذي يشبهه كثيراً.

لا أنسى منظر ذلك الشّاب ولا الدّماء التي كانت تغطّيه، لقد نظرت إليه في لحظة واحدة بتمعّن شديد حتى أنّي رأيت النّمش على وجهه، ذات النّمش على وجه ابن أختي. ومنذ ذلك الحين، أصبحت حياتي عبارة عن تخطيط يوميّ للنّجاة من القذائف وتأمين الاحتياجات اليوميّة. أصبح كلّ شيء غاية في الصّعوبة، أن نأكل، نشرب، أن تذهب البنات والصبيان إلى المدارس، أن يذهب زوجي إلى العمل، بات كلّه صعباً.

في إحدى الحملات القويّة، أعتقد في العشرين من الشّهر السّادس عام ٢٠١١، وصلت قوّات النّظام إلى ساحة «العجا» داهموا كلّ البيوت المحيطة بها، بما فيها بيت أهلي. استيقظت أمّي لترى مائة بارودة فوق رأسها وهم يسألونها عن أخي، تلعثمت أمي ولم تخرج من فمها جملة واحدة كاملة من هول المشهد ورعبها على أخي. فتّشوا البيت ووجدوا أخي الذي كان حديث الزواج حينها واعتقلوه بملابسه الداخليّة، وأخذوا ما وجدوه ثميناً بطريقهم. أمي أصابها منذ ذلك اليوم مرض بمعدتها لم تُشف منه أبداً، وزوجة أخي ظهرت لها كتلة غير حميدة، معها سرطان حتى هذا اليوم، لكنّ شخصيتها قويّة جداً وهي قادرة على السّيطرة على المرض، وتتّبع الحميات المفيدة لها وتتابع علاجها.

تصاعدت الظّروف بشكل سريع في الزبداني خاصّة بعد زيارة بعثة مراقبة الجامعة العربية للمنطقة.[lvi] كان هناك توقّع لدى أهالي الزبداني أنّ النظام سيشنّ حملة عسكريّة قويّة على المنطقة بعد مغادرة البعثة. جاءت البعثة وحاولت أن تستفسر عن الأوضاع، أذكر أنّ أماً لشهيد كان قد تمّ قتله تحت شجرة في الجبل في حملة سابقة قد هرعت حافية القدمين لتقابل المسؤول عن الحملة. كانت تريد أن تسأله فقط عن سبب قتل ابنها، وكيف يمكن أن تحقّق له العدالة. أخت الشهيد رأت تلك الحملة العسكريّة قادمة حينها فاتّصلت بأخيها طالبة منه الهرب إلى الجبل، هرب مع صديقه الذي تمّ اعتقاله في تلك الحملة، ثمّ خرج بعد سبعة أشهر ليخبر الأم أن ابنها مات بإطلاق نار أمام عينيه وبين يديه، وأنّه لم يستطع إخبار أحد بسبب اعتقاله. قابل رئيس البعثة تلك الأمّ المفجوعة ووعدها بأنّ عدالة ابنها ستتحقّق وأرسلها بسيّارة إلى منزلها. أمّا أنا فقد كنت أخبز الخبز في ذلك اليوم، جاء زوجي وأخبرني أنّه علينا تجهيز أنفسنا للمغادرة، فرفضت ذلك بإصرار وبكيت كثيراً. لكنّ القذائف باشرت بالسّقوط علينا فعلاً بعد رحيل البعثة مباشرة، وبدأ أهالي الزبداني بالمغادرة، مع إصراري على عدم الخروج وعلى إكمال صنع الخبز. لكنّ زوجي كان محقاً، وتأزّم الوضع مع سقوط ثلاث قذائف بالقرب من بيتنا، خفت على أطفالي واستسلمت وتركنا البيت.

lvi فرانس ٢٤، تقرير بعنوان « الدبابات تنسحب من مدينة الزبداني والجامعة العربية تترقب تقرير المراقبين»، ٢٠١٢.



رسم تجريدي لمشهد أمّ الشهيد وهي تسأل أعضاء البعثة عن سبب قتل ابنها

الكثير من القصف والدّمار... لكنّني أريد العودة إلى بيتي

ذهبت مع عائلتي إلى فيلّا تقع على طريق السّلطانة، كانت لصديق زوجي من العراق لكنّه سجّلها باسم زوجي لأسباب تتعلّق بقانون الملكيّة. بقيت لمدّة أسبوع فيها لكنّ عقلي وروحي كانا في بيتي، أريد العودة، لا أريد أن أكون في هذا المكان أبداً. تجادلت طويلاً مع زوجي واختلفت آراؤنا في كثير من المرات؛ كنت أقول له إنّني أريد أن أموت في بيتي، في مكان أعرفه؛ لا أريد الموت كالغريبة، بينما كان يحاول إخباري أنّه لم يتبقّ أحد في الزبداني، وأنّ الذّهاب إلى هناك الآن هو انتحار ليس إلّا. وفي إحدى المّرات تصاعدت الأمور بيننا، فقرّرت جمع بعض الأغراض وتركت الفيلّا.

كان الطّريق مظلماً، أو هكذا أحسسته، على الرّغم أنّ الوقت كان عند الظهيرة، لكنّ الطريق كان خالياً تماماً، لا يوجد بشر، ولا سيّارات أو دبّابة أو قذيفة، وكأنّ الحياة اختفت من المكان فجأة. مشيت وحدي لمدّة ساعتين حتى وصلت إلى «ساحة الجديد» في الزبداني فرأيت أفواجاً من عناصر جيش النّظام تملؤها. نظروا إليّ نظرات استغراب دون أن يتحدّث إليّ أحد منهم، وكأنهم يقولون: «ما الذي حدث لهذه المرأة، هل فقدت عقلها؟» اكتفيت بمبادلتهم نظرات قاسية لأظهر أنّني قويّة ولست خائفة منهم. أكملت سيري، سمعت أحدهم يسألني من بعيد عن وجهتي، لكنّني تجاهلت السّؤال. وصلت إلى مكان لا وجود فيه لعساكر النظام، ثم رأيت شباناً من الزبداني مختبئين وراء البناء، وعندما اقتربت منهم قالوا: « ليش إنتِ هون؟» فأجبت أنّني ذاهبة إلى بيتي وليس من حقّ أحد أن يمنعني من ذلك، فعرضوا عليّ أن يقوم بعضهم بإعادتي لأنّني قد أموت هنا وحيدة، إمّا من القذائف أو من قلّة الطّعام والشّراب والكهرباء، فقد كنّا في شهر رمضان من عام ٢٠١٢. رفضتُ كل ما قالوه وخفتُ عليهم في نفس الوقت، فلا أريد لأحد أن يُقتل أو يُعتقل بسببي.

وصلت إلى بيتي، جلست فيه لا أدري ما أفعل، رُفع آذان المغرب لكنّني لم أفطر، فقد

فقدتُ شـهيّتي ولا يوجـد أيّ شيء لآكلـه سريعـاً، بـدأت أفكّـر بـأولادي وبمـا فعلتـه، قـرّرتُ العـودة مشـياً كما جئـت. مشـيت لمدّة ثـلاث سـاعات، ووصلـت إلى الفيـلّا قرابـة العـاشرة ليـلاً، لـم أدخـل مبـاشرة، بـل جلسـت عـلى الـدّرج الخـارجي أبـكي، ثـم رأيـت أولادي قـد خرجـوا إلى الشرفـة يـكـون ويتسـاءلون عـنّي، فقـد كنـت قـد أقفلـت جـوّالي، نقـرت نقـرة صـغـيرة عـلى البـاب لأخبرهـم أنّي هنـا، ثـمّ دخلـت [تـهـد عميـق].

أنا وابنتي وشبحُ الموت

لديّ ابنة زوّجتها وهي تقدّم امتحان البكالوريا، أي بعمر السابعة عشر. أبقيتها معي في الفيلّا بينما كان زوجها مع الشّباب في الزبداني. خفت أن تموت هناك بعيدة عنّي، ورفضنا أنا ووالدها أن نرسلها إلى زوجها الذي بدأ بالمطالبة بها. كنت أستطيع أن أرى من الفيلّا كلّ ما يحدث في الزبداني من قصف ودمار، كيف لي أن أرسل ابنتي إلى حتفها؟ لكنّ الرجال من طرف زوجها تواسطوا وطلبوا إرسالها ولو لبضعة أيام إلى زوجها. وافقنا بحزن، لم أذق الطّعام في غيابها، ودموعي سالت على وجنتي ليلاً نهاراً. في اليوم الثّالث من غيابها، اتّصل زوجها بي وقال لي إنّ ابنتي ماتت...

إنها الآن في النّقطة الطّبيّة...

كان قد اتّصل أكثر من مرّة وكنت أرفض الرّد، كنت أحسّ بأنّ خبراً كهذا سيأتيني لو قبلتُ المكالمة، لكنّه أصرّ، فطلبتْ منّي أخت زوجي النّازحة معنا وأولادها أن أردّ لأعلم ما أمره.. أجبت... وقال ما قاله وصرخ وبكى... ثم قال: «وأمي ماتت أيضاً»

لم أقل شيئاً لأهل بيتي، فقدت عقلي للحظات، قالوا لي لاحقاً إنيّ بدأت بالمشي بشكل غريب بين الغرفة التي كنت فيها وبين الصّالون ذهاباً وإياباً، أبحث عن «المانطو»[lvii] وهم يسألونني عمّا سمعته وأنا لا أرى أيّ شيء أمامي. أعادوا الاتّصال بزوج ابنتي وأدركوا ما حدث، فتوجّه أحدهم إليّ وصفعني على وجهي لأستيقظ من حالتي... هذا ما قالوه لي. أعطتني أخت زوجي ردائي وهرعت إلى الشّارع تحت وقع القذائف والقصف، لحق بي زوجها بالسّيّارة وركبتُ معه. كانت القذائف تنهال من كلّ صوب، لقد حمانا الله حتى وصلنا إلى البناية التي كان الشباب وجثّتا ابنتي وأمّ زوجها فيها. رأيت زوج ابنتي يحمل امرأة شعرها منسدل وتقطر منه الدّماء ويعلو جسدها ووجها غطاءٌ كبير... قلت «أهذه ابنتي؟» قال: «لا، هذه أمّي»، قلت: «أنت تكذب»، طلب أن أرفع الغطاء لأتأكّد، وفعلاً كانت أمّه المسكينة. قلت:» وأين ابنتي؟» قال: لقد أرسلناها إلى النّقطة الطّبيّة فتأكّدت هنا أنّها ماتت قبل أمّ زوجها.

---

lvii مانطو، كلمة مستخدمة في اللهجة العاميّة وتدل على المعطف النسائي الطويل.

ذهبنا إلى النقطة الطّبيّة وأنا في حالة هستيريّة، فقالوا لي إنّ ابنتي قد أرسلوها إلى مشفى البيروني، مشفى لعلاج السّرطان والتصوير الشّعاعي... لأنّها قد تكون على قيد الحياة. لم أصدّق ما سمعته، استغربت إرسالها إلى المشفى، فما الدّاعي إذنً لأخذها إلى هناك لو أنّها قد ماتت؟ اتّجهنا إلى المستشفى والقذائف مستمرّة، أراها تقع أمامنا وخلفنا، وصلت فرأيتهم ينزلون ابنتي من السّيّارة، ركضت إليها وأمسكت يدها ففتحت عينيها... عندها قلت في قلبي: فليحدث ما يحدث، المهمّ أنّ فيها نبض ويمكن أن تعيش.

كانت ابنتي وأمّ زوجها جالستين في الغرفة حين ضربت قوّات النظام مضادّ طيران على البناية التي كانتا فيها. دخلت شظيّة كبيرة في ظهر ابنتي وأخرى في بطن حماتها، فوقعت الأمّ على الأرض ووقعت ابنتي عليها، وأيضاً عمّ ابنتي (والد زوجها) أصابته شظيّة ومات في مكانه معهما في نفس الغرفة. عندما دخل زوج ابنتي ظنّ أنّ الجميع قد ماتوا واتّصل بي ليخبرني. دخل الشباب من بعده وفحصوا نبض ابنتي ليجدوها على قيد الحياة، فاتّصلوا بطبية رائعة فتحت المشفى لها وللآخرين.

رأيت الفتحة في ظهر ابنتي، كانت يد الطبيب تدخل فيها بكل ارتياح، كبيرة جدّاً تلك الفتحة، وجسمها مرشوق بالشظايا الصّغيرة في داخله وخارجه. رأيت الطّبيب يُخرج أمعاء ابنتي، وضعها على الطّاولة، كانت معه فرشاة وعلبة تعقيم للأمعاء «فلاجيل»، قال لي: لا يمكن أن أعيد أمعاء ابنتك وهي بهذه الحالة إلى بطنها، سأنظّف وأقطّب الأمعاء المتقطّعة ثمّ أضعها في بطن ابنتك، وهكذا فعل لمدّة ساعات. ابنتي كانت حبلى في شهرها السّابع، فجاءت الطّبيبة وشقّت الرّحم، أخرجت الطّفلة وفيها ثلاث شظايا، وضعوها في الحاضنة لثلاثة أيّام لكنها ماتت، سمّياها نيسان... ماتت نيسان لتعيش أمّها بمعجزة.

ابنتي ما زالت على قيد الحياة والحمد لله، درست، وتعيش حياتها بكلّ ما تستطيع، فهناك الكثير من الشّظايا التي ما تزال في داخلها. تحرّكت إحداها فسبّبت خرّاجاً في إحدى كليتيها، قال الأطبّاء إنّ عليهم استئصال الكلية كاملة، لكن الطّبيب الذي أجرى العمليّة استطاع استخراج الشّظيّة والكتلة الالتهابيّة دون استئصال الكلية.

بين المستشفى والمنازل الكثيرة التي نزحنا إليها

بقيتُ مع ابنتي في المستشفى أقضي أيّاماً بجانبها، بينما زوجي وأطفالي يتنقلون من منزل إلى آخر في منطقة السّلطانة بسبب القصف الكثيف. تركوا الفيلّا التي كنّا فيها، وأخذوا مفتاح منزل أبعد عن مكان القصف. ثمّ بدأوا بالتنقّل من منزل إلى آخر، حتّى اضطرّوا إلى الانتقال إلى منطقة اسمها الإنشاءات، وهي منطقة لا يطالها القصف، وفيها بيوت كثيرة لا يسكنها أحد، بل تملكها عائلات من دمشق تأتي إليها صيفاً. اتّصلوا بصاحب الشقّة ووافق على بقائهم فيها لوقت قصير، ثم قرّرنا سويّة أن تسكن عائلتي مع أهلي الذين نزحوا إلى نفس المنطقة. كان هذا الانتقال صعباً، إذ كنّا حوالي خمس عائلات مع بعضنا البعض، لكن يواسينا بقاؤنا سويّة في نفس المكان.

أما أنا، فكنت بين المستشفى والمنزل، حالة ابنتي الصحّيّة لم تكن مستقرّة وكان عليّ أن أكون بجانبها، لكنّ الاشتباكات والقصف لم تكن بعيدة عن المستشفى، حتى إنني في يوم اشتدّ فيه الاشتباك بين الشّباب والجيش ووصل الرّصاص إلى جدران المستشفى، جررت سرير ابنتي مع «السيروم»[lviii] المعلّق ورحت أركض في الممرّات بحثاً عن مكان آمن. كنت خائفة وتوقّعت أنّ ابنتي قد لا تنجو هذه المرّة، أردت حمايتها فوصلت إلى آخر ممرّ طويل حيث كان هناك شبّاك كبير، أوهمت نفسي أنّنا بأمان، وإذ بالطّائرة التي تضرب الرّصاص في مقابل الشّبّاك تماماً... جررت السّرير وابنتي، وركضت إلى أيّ غرفة لا أرى منها تلك الطيّارة... ونجت ابنتي للمرّة الثانية.

قال لي الأطبّاء بعد أيّام أنّني أستطيع إخراجها من المستشفى، لكن يجب أن يزورها الطبيب كلّ بضعة أيّام، كي تبدّل ضمادات الجروح. أخذت ابنتي إلى أهلي وعائلتي. استطاع أحد الأطبّاء الشجعان أن يزورها بين الفينة والأخرى تحت خطر القصف والرّصاص، كانت مخاطرة لأيّ طبيب أن يقوم بذلك.

---

lviii سيروم، كلمة مستخدمة باللغة العاميّة وتعني محلول أو مصل الدّم.

أدركـت بعـد أيّـام أن المـنزل الـذي كنّـا فيـه كان غـير مناسـب أبـداً لنـا ولا لابنـتي. كان هنـاك الكثير مـن النّـاس فيـه ، وتراجعـت صحّـة ابنـتي فقـد تعبـت نفسـيّاً كثـيراً وأثّـر ذلـك على جسـمها أيضـاً. خرجـت أبحـث عـن منـزل آخـر، كان الجـوّ حـارّاً، إذ كنّـا مـا نـزال في صيـف ٢٠١٣. بحثـت كثـيراً وسـألت كلّ مـن صادفتـه، حـتى وصلـت إلى بنايـة أُغلقـت بوّابتهـا بالجنازيـر الحديديّـة، فطلبـت مـن الشّـباب كسرهـا، وكسر قفـل إحـدى الشّـقق أيضـاً. دخلـت إليهـا بحثـاً عـن دفـتر أرقـام التلفونـات. اتّصلـت مـع أصحابهـا، فقالـوا إنّ عليهـم التّواصـل مـع الملّاك الأصليّين كي يأذنـوا لي بالانتقـال، وانتظـرت حـتى أعـادوا الاتّصـال بي ووافقـوا عـلى أن نسـكن فيهـا، شرط حمايتهـا وحمايـة كلّ الأغـراض الموجـودة. كانـت تلـك العمليّـة مرهقـة نفسـيّاً لي إلى حـد كبـير؛ أن تقتحمـي منـزلاً ليـس لـك وتتواصـلي مـع أصحابـه، كـم هـو بشـع هـذا الشّـعور، لكـن لـم تكـن في يـدي حيلـة أخـرى.

انتقلنـا إلى تلـك الشـقّة، كانـت مريحـة في الأيّـام الأولى، فهـي في الطّابـق الأرضي وبعيـدة عـن نقـاط الاشـتباك، لكـنّ عنـاصر تابعـة للنظـام شـكّلت حاجـزاً أمـام البنايـة، وبـدأت الاشـتباكات بين الشّـباب والحاجـز. انتقلنـا إلى شـقّة أخـرى في نفـس العمـارة في الطابـق الرّابـع، وبقينـا في تلـك الشـقة مـدّة ثلاثـة أشـهر حـتى بدايـة عـام ٢٠١٤. وفي يـوم مـن الأيّـام طـرق أحـد عنـاصر جيـش النظـام بابنـا ليخبرنـا أن علينـا إخـلاء العمـارة لأنّهـم يريـدون الاسـتقرار فيهـا، فمكانهـا استراتيجي مـن الناحيـة العسـكريّة، وسـينصبون فيهـا كمينـاً للمسـلحين. طلـب منّـا ألّا نأخـذ إلّا الأغـراض الضروريّـة، لأنّ الحملـة قـد تنتهـي بعـد أيّـام، وقـد نسـتطيع العـودة إلى الشّـقّة. انتقلنـا إلى بنايـة أخـرى تقطـن فيهـا عائلـة أخ زوجي، بقينـا معهـم لبضعـة أيّـام، ثـم قرّروا الذهـاب إلى لبنـان بسـبب اشـتداد القصـف، فبقينـا وحدنـا في الشّـقّة ولـم نسـتطع الخـروج منهـا لأيّـام حـتى خفّـت الاشـتباكات وكذلـك القصـف.



رسم تجريدي لحالة شعاع الأمل وابنتها عند تعرّض المستشفى للقصف

صار الانتقال من شقّة إلى أخرى روتيناً نعيده كلّ بضعة أيّام، وتعلّمنا كم من الثّياب علينا أنّ نأخذ معنا كلّ مرة، أو ما هي الأغراض التي يمكن التخلّي عنها أو التمسّك بها. لا أدري كيف تجاوزنا تلك الأيّام، فلا طعام ولا شراب ولا كهرباء، تنقّلٌ دائم ورعب كبير. لكنّني أدركت أنّي قويّة ولم أقبل الاستسلام وبدأت بالبحث عن عمل عندما أحسست أنّ حالة ابنتي الصّحّيّة بدأت بالتحسّن قليلاً. جمعت حولي بعض النّساء من المنطقة، وبدأنا ورشة لحياكة «الكروشّيه» باستخدام سنّارة واحدة أو اثنتين. كنت أحضر لهنّ الصّوف ونعمل جميعاً، ثمّ أقوم أنا بتصريف البضائع. ليست لديّ شهادة علميّة لأبحث عن وظيفة، لكن لديّ شخصيّتي وحنكتي وخبرتي في الحياة، ويجب أن أكسب نقوداً لأصرف على عائلتي. ذهبت إلى دمشق وأخبرت بائع الصّوف قصّتي، فتعاطف معي وباعني الصّوف وساعدني في تصريف البضاعة أيضاً. بقينا على هذه الحالة لمدّة سنة تقريباً، استطعت خلالها أن أؤمن طعاماً ومصروفاً أساسيّاً لعائلتي، على الرّغم من الصّعوبات الأمنيّة التي واجهناها أنا والنساء من تدقيق الحواجز على حركتنا وعلى كلّ شيء نحمله معنا. وعلى الرغم كذلك من الصعوبات النفسيّة والخوف والرعب من القصف والقذائف وكلّ شيء. ساعدتني إحدى بناتي أيضاً، إذ عملت في مجال التّدريس لتسندني وتساهم في المصروف.

أنا... ومضايا والحواجز العسكريّة

أغلقت قوّات النّظام الطريق إلى دمشق في نهاية عام ٢٠١٤، فقط الطريق إلى مضايا بقي مفتوحاً، فصرت أذهب إلى هناك لشراء الطعام. لكنّ أسعار المواد الغذائية ارتفعت كثيراً، فصرنا نحاول أكل ربطة خبز واحدة كلّ أسبوع. حتّى الطحين أصبح ممنوعاً على الحواجز لأهل الزبداني، وكانت حجّتهم أننا قد نوصل الطعام للإرهابيين، فكان عليّ أن أتصرف بالموادّ المتوفّرة لديّ لأؤمن الطعام. كان عزائي الوحيد أنّ ابنتي على قيد الحياة، وأننا ما زلنا جميعاً سالمات وسالمين ومع بعضنا البعض. هذا ما جعلني أستمرّ في الذهاب بشكل يوميّ إلى مضايا لأحضر الطّعام وأشتري الصوف، فقد وجدت صوفاً هناك لأشتريه وأكمل العمل مع النساء.

أرهقتني كثيراً حالة الذهاب إلى مضايا والتعامل اليومي مع الحواجز، تراجعت صحّة زوجي النفسيّة والجسديّة، فهو يعمل في الحجر والجصّ، ولم يتبقّ له عمل أو ورشات. وهو من النوع غير الاجتماعي، على الرغم من ذكائه وحرفته وثقافته، إلّا أنّه كان يفتقد لمهارات التواصل حتى قبل بدء الأحداث، كنت أنا من أقوم بكلّ شيء، وكان شعارنا وباتّفاق ثنائيّ «هو الجنيّ وأنا البنيّ» يعطيني النقود وأنا أتصرّف بكلّ شيء.

كنت أقضي ساعات على تلك الحواجز العسكرية، كلّ شيء يعتمد على مزاج العساكر والضابط، أحياناً كانوا يدعونني أمرّ دون سؤال، وأحياناً أخرى كانوا يبدؤون بالتحقيق معي عن الشبان في عائلتي، فأقول لهم إنني لا أعلم شيئاً عنهم وليس لي إلّا شغل الصوف. أحياناً كان الضابط يطلب منّي أن أحيك الثياب له ولخطيبته، ثمّ يطلب مني إعادة حياكتها لأنّه لا يحبّ خيط الصوف الرفيع، وهكذا...
اضطررنا إلى الانتقال من وإلى بيوت كثيرة في الديماس وفي بلودان، لكنّنا لم نتحمّل الوضع. كانت نظرات الناس لنا عدائيّة - نحن أهالي الزبداني - فعدنا واستأجرنا منزلاً في نفس المنطقة (الإنشاءات) وبقينا فيه مدة أربعة أشهر، وقبل دخول قوّات حزب الله عام ٢٠١٤ إلى مناطقنا قرّر أخ زوجي أن يأخذ كلّ ما لديه من نقود وذهب والهروب إلى لبنان، وطلب منّي إرسال ابنتي الكبيرة معه كي تساعده على المرور. لم أكن أعرف أنّه سيعطيها النقود ويلبسها الذهب على الطريق، ولم يخبرني إلّا بعد أن تمّت المهمّة بنجاح.

قرّرت ابنتي أن تبقى في لبنان لأنّها علمت أنّ قوّات الأمن تسأل عنها، إذ إنّها كانت تعطي جوائز نقديّة بسيطة للطالبات المتفوّقات والطلّاب المتفوّقين ممّن كانت تدرّسهم، كعامل تشجيعي لا أكثر، فأثار هذا الأمر الشكّ عند بعض قوّات الأمن من مبدأ «من أين لك هذا؟» قالت إنها ستبقى في لبنان، وهكذا فعلت واستقرّت لفترة مع أعمامها، لكنّها لم تتحمّل البقاء بينهم فانتقلت إلى بيت فيه امرأة كبيرة في السنّ مع زوجها فقط في منطقة غزّة في البقاع في لبنان. بدأت الناس توجّه لي ولزوجي الانتقادات لسماحنا لابنتنا العازبة بالعيش وحدها في لبنان، وكان قد مضى حوالي ستّة أشهر على ذهابها، فقرّرت أن آخذ أختها لتعيش معها وبقيت معهما لأربعة أشهر (تقريبا نهاية عام ٢٠١٤ وبداية عام ٢٠١٥.)

حصار مضايا ٢٠١٥ ...وابتعادي عن زوجي لمدّة سنتين

كنت أحضّر الفطور في بيت ابنتي في لبنان، فجاءني اتّصال من سوريا، وعلمت أنّه تمّ ترحيل زوجي وإحدى بناتي قسريّاً إلى مضايا من قبل قوّات النظام (تقريباً منتصف عام ٢٠١٥). هذه الابنة كانت قد ظهرت لديها منذ فترة كتلة سرطانيّة واستطعت الحصول لها على بطاقة مرور عبر الحواجز للعلاج الكيماوي في مشفى البيروني. لم أفهم كيف حدث ذلك وبتلك السرعة، قال زوجي إنّ قوّات النظام أتت وطلبت منه ومن ابنتي أن يجمعا بعض الثياب خلال خمس دقائق ليتمّ تهجيرهما إلى مضايا. للأسف بطاقة ابنتي العلاجيّة كانت معي، فلم تستطع إقناعهم بأنّها مريضة وأنّ عليها متابعة العلاج، أما باقي الأولاد فكانوا في المدارس والمعاهد في تلك اللحظة.

تشتّتنا، وصار كلّ منا في مكان. كانت مصيبتي الكبرى في زوجي وابنتي، لأن مضايا كانت قد حوصرت بسياجات شائكة وألغام، وصار الخروج منها معجزة. تذكرت البطاقة العلاجية وسألت الكثيرين حول الجهة المسؤولة عنها، فقالوا إنّ عليّ الذهاب إلى حاجز معيّن، فذهبت إليه وأخبرتهم قصّتي، قالوا لي إنهم سيضعون اسم ابنتي وزوجي على الحواجز وإنني أستطيع المجيء في يوم معيّن لأخذهما. كنت سآخذهم من حاجز يبعد حوالي عشرين أو ثلاثين كيلومتراً عن منطقتي، وكان من المستحيل الذهاب مشياً بسبب الألغام، فطلبت من شخص أعرفه أن يأخذني بسيارته إلى هناك، وعندما وصلت لم أجد سوى ابنتي المريضة، قال الضابط: «معك سيارة وشخصيّتك قويّة ما شاء الله! خدي بنتك وعالجيها، أمّا زوجك فهو زائر عندنا وراح ندلّله كتير» بكينا أنا وابنتي وترجّينا دون طائل، وعدنا من دونه.

عدنا إلى المنزل الذي كنّا فيه في منطقة الإنشاءات، كان مختوماً بالشّمع الأحمر. ذهبت إلى المخفر، فجاءني عسكري ليقول إنّه يوم عطلة ولا يمكن أن يفعل شيئاً. وبعد الكثير من المحاولات والكثير من النّقود، رافقنا عسكري ومعه مفتاح المنزل وعشنا فيه لمدّة أربعة أشهر. كان عناصر النّظام يطرقون بابنا بشكل شبه يومي، مرّة بحجّة التأكّد من

سكّان الشقّة، وأخرى بحجّة الخوف علينا وعلى أغراضنا ونقودنا، حتى إنهم طلبوا أخذ السيارة التي كانت لزوجي، «لحمايتها من المخربين». قلت لهم إنّني بعتها ولم أستلم النّقود بعد، فطلبوا منّي إعطاءهم النّقود عند حصولي عليها أيضاً بحجّة حمايتها من السرقة. مثّلت أمامهم أنّني حمقاء وقلت إنّه كان يجب أن أعطيهم النقود فعلاً وآخذ مصروفي منهم، وادّعيت أنّ النقود سيتمّ تحويلها إلى زوجي في لبنان، فاستشاطوا غضباً، واستمرّوا بمضايقتنا يوميّاً حتى لم أعد أطيق الحال، فقررت أن أترك ابنتي الصغيرة في بيت جدتها والكبيرة لتكمل جامعتها، وذهبنا أنا وابنتي الأخرى والأولاد إلى ابنتي في لبنان. فقدت كلّ أمل حينها بأيّ تحسّن في الأوضاع أو في خروج زوجي من الحصار أو في أن يكتفي عناصر النظام من مضايقتنا، وكنت قد فقدت الأمل مسبقاً في العودة إلى بيتي في الزبداني... بيتي المهدّم إتنهد!.

حذاء زوجي أمام المنزل... وعيني ساهرة طوال اللّيالي

وصلنا إلى منطقة غزّة اللّبنانيّة في آواخر صيف ٢٠١٥. كانت المدارس قد أوشكت على الانتهاء، ولم أستطع تسجيل أطفالي في المدارس ليقدّموا أيّة امتحانات. لم يقبل صاحب البيت في غزّة أن نستأجر جميعاً في شقّته، فاضطررنا إلى الانتقال إلى منطقة اسمها المرج. مكثنا فيها لمدّة شهرين وانتقلنا بعد أن عانينا الكثير أيضاً من مالك المنزل الذي راقب كلّ تحركاتنا ووبّخنا على استخدام المياه، ثمّ طلب زيادة في الأجرة. استأجرنا بعدها في منطقة برّ إلياس، منزلاً أوّلاً ثمّ ثانياً ثمّ ثالثاً، لا أذكر إن كانوا أكثر من ذلك ... آخ.

التقيت بشباب طيّبة القلب وذوي نخوة من سوريا، كانوا يعملون مع منظمة سوريّة للإغاثة في منطقة البقاع، قال لي أحدهم إن هناك شقّة في نفس البناء الذي تسكن فيه عائلته، شقّة لا أبواب لها ولا شبابيك، لكن سأشعر بالأمان لوجودي بقربهم، فانتقلنا إليها وبقينا لمدّة شهر واحد لأنّ صاحب الشقّة قرّر أن يعيد ترميمها. انتقلت مع أطفالي إلى شقّة في الطّابق السفلي، وكان وضعها أسوأ، فلا شبابيك ولا أبواب، والأرض طينيّة، والفئران والصراصير تسرح فيها بكلّ راحة. كانت عبارة عن حفرة بالنسبة لي، فيها حوض

للجلي»مجلى» وحمام، ودفعت مقابل السكن فيها مائتي دولار في الشهر، ثمّ طلبت مالكتها رفع الأجرة إلى مائتين وخمسة وخمسين دولاراً، فانتقلنا منها إلى شقّة في حيّ مقابل، شقّة فيها بلاط على الأقلّ.

لم يكن لدينا أغراض تُذكر، وأصبح الانتقال فعلاً اعتيادياً: لديّ طراحتان، وبعض الثّياب، الأوراق والأغطية. فرحتُ في البداية لانتقالنا إلى تلك الشقّة، لكنّ فرحتي لم تكتمل، فالحمّام كان فيه تسرّب مستمرّ لمياه وسخة، فبدل أن تخرجي نظيفة من حمّامك، تخرجين برائحة عفونة ومياه قذرة. بعد نقاش مطوّل مع صاحبة البيت أقنعتني أنّها ستصلح الحمّام بعد أن أعطيها أجرة الشّهر القادم، وهكذا فعلتُ لكنّها لم تفِ بوعدها. انتقلنا بعدها إلى منطقة النهريّة، وكان الوضع فيها صعباً عليّ وعلى أطفالي، إذ كان هناك انتشار كثيف للمخدّرات والأسلحة، أحسسنا جميعنا بالخطر، وعزمنا على الانتقال إلى منطقة المرج، حيث حصلت ابنتي على وظيفة هناك.

في كلّ تلك الانتقالات الكثيرة والمتعبة نفسيّاً وصحيّاً لي وللأطفال، كانت المصاريف في ازدياد: المدارس، المواصلات، إرسال نقود إلى ابنتيّ في دمشق، وأجرة المنازل، فصار البحث عن عمل واجباً عليّ. فعلاً عملت في مشروع لنفس المنظّمة التي ذكرتها سابقاً، ورشة لصناعة الإكسسوارات من مواد يعاد تدويرها، وكانت الجهة المموّلة للمشروع هي شركة إكسسوارات وأزياء، فبدأت بالعمل معهم واستمرّيت لمدّة ستين تقريباً. لكنّ الأجر صار قليلاً مقارنة بارتفاع الأسعار والجهد الذي أبذله، وراتب ابنتي ضاع نصفه كلّ شهر على المواصلات، فقرّرت البحث عن أعمال أخرى لأسدّ الحاجة.





رسم تجريدي لحالة وشعور شعاع الأمل في لبنان

أثناء ذلك انتقلنا أيضاً إلى منزل آخر في منطقة المرج واستقرّينا فيه. لم أخبر قصّة زوجي لصاحب المنزل، بل وضعت حذاءه أمام الباب الخارجي، وكنت أغيّر من وضعيّته يوميّاً وأبدّله أحياناً حتّى لا يشكّ أحد أنّه لا رجل لديّ. اخترعت الكثير من القصص عنه وعن عمله الشّاق. خفّفت هذه القصّة المختلقة من مضايقة ومراقبة النّاس وصاحب البيت لي ولبناتي وأولادي، وأعطتني أماناً وإن زائفاً، بأنّ النّاس لن تقترب منّا لوجود زوج وأب معنا. زوجي كان في الحصار، يقترب من الموت كلّ يوم مع اشتداد القصف في آخر فترات الحصار، وأنا كنت أسهر طوال الليل، وأضع طاولة خلف الباب لمنع أيّ محاولة لدخول أحدهم. كم تعبت في تلك الأيام، نفسيّاً وجسديّا، ارتوت المخدّات من دموعي الصّامتة، كنت أضع المخدّة كل صباح على البلكونة أو في الغسّالة لأزيل عنها رطوبة دموعي وقلقي. لقد أثّر غياب زوجي علينا جميعاً. أصيب أحد أبنائي باكتئاب منذ اختفاء والده، وكان يحفر برأسه في خاصرتي حتى تتورّم أحياناً، أمّا ولدي الثاني فكان يبكي طوال الوقت، وكان عليّ أن أتحمل كلّ ذلك وأدير شؤون العائلة، وأساير صاحب المنزل والحيّ بأكمله.

زوجي صار معنا ... لكن مسؤوليّاتي ازدادت

اشتدّ الحصار والقصف على النّاس في مضايا، مات ثلاثة من أقارب زوجي واثنان من أقاربي جوعاً، أمّا زوجي فقد تمّ قصف المنازل التي تنقّل بينها حوالي ستّة عشر مرّة. تعب نفسيّاً وصحيّاً حتّى إنّ أخته اتّصلت بي لتخبرني أنّه في ذلك اليوم فقد وعيه في الطريق ووقع بسبب الجوع، وإنّ عليّ إخراجه بأيّ ثمن.

لكن ما كان يمكن أن أفعل؟ تواصلت مع بعض النّاس من معارف حزب الله، فقالوا إنّه يمكن أن يخرج مقابل ثلاثة آلاف دولار، لم يكن معي منها شيء. طلبت النّقود من شاب سوري يعمل في المنظمة نفسها، فأعطاني إيّاها من ماله الشّخصي، لكنّه حذّرني من النّصب في هذه المواضيع، وأنّهم قد يأخذون النقود دون أن أحصل على أيّ خبر، فهذا ما كان يحدث مع أغلب النّاس الذين حاولوا إخراج ذويهم من الحصار. كنت أعلم أنّي قد أخسر النّقود دون أيّ نتيجة لكن كان عليّ إرضاء أولادي وإرضاء نفسي أيضاً بأن أفعل كلّ

ما يمكن فعله لأجل زوجي. بقيت النقود لمدّة شهر مع الشخص الذي رعى الوساطة ثم أعادها وقال لي إنّ مشكلة زوجي في كنيته إذ إنّ هناك الكثير من القيادات المسلّحة المعارضة للنظام السّوري ممّن لهم نفس الكنية. فعلاً كان كلامه صحيحاً، فقد خرج بعض الأشخاص من الحصار بمبالغ أقلّ ممّا عرضته أنا، لكنّي استمرّيت في المحاولة وعلمت أنّ أحد عناصر الحزب يمكن أن يُخرج زوجي مقابل عشرة آلاف دولار، فقرّرت أن أبيع بيت الزبداني، وأقترض الأموال من أيّ أحد [تنهّد] لكنّ أحدهم أوصل خبراً لي بأن أتوقّف عن أيّة محاولة، فالخطر قد يقع عليّ وعلى أبنائي وبناتي هنا في لبنان إن بقيت أحاول إخراج زوجي من الحصار. فنحن في لبنان، ومن يحاصر زوجي هم في لبنان أيضاً.

سمعنا باتّفاقية المدن الأربع وتمّ في عام ٢٠١٧، إنهاء الحصار عن مضايا وإرسال الناس في باصات للتهجير إلى عدّة مناطق. فرحت لاحتمال عودة زوجي قريباً إلينا، لكن في نفس الوقت ازدادت المشاكل مع مالك الشقة التي أستأجرها وأطفالي. كان قد انزعج من زيارات زوج ابنتي لنا، فقد قرّر مسبقاً أنّ لا رجال سوى زوجي وأولادي الذكور يمكن أن يدخلوا المنزل. لكنّ ابنتي كانت مخطوبة، ومن الطّبيعي أن يزورنا خطيبها. قرّرت حينها أن أخبره الحقيقة، قلت له إنّ زوجي كان في الحصار وسيأتي إلينا في أيّ من الأيّام القادمة وستأتي الناس لزيارتنا وتهنئتنا. غضب كثيراً لأني كنت أخبّئ وضع زوجي الحقيقي عنه، ولم يتسامح مع فكرة دخول ضيوف إلى المنزل.

ما العمل الآن؟ رأتني صديقة لي في أحد الأيّام وأنا أنزل من الباص والدموع على عرض وجنتي، فسألتني عن حالي وأخبرتها، فدلّتني على شقة كانت في طور الإكساء وتحتاج إلى شهر لتنتهي. قلت لها إني أستطيع التفاوض مع مالك البيت لنبقى شهراً إضافيّاً، وإنني أريد الانتقال إلى هذه الشّقّة. انتقلنا وزوجي معنا في نهاية عام ٢٠١٧، ومع تحسّن صحّته عاد ليعمل في إكساء البناية التي نسكن في إحدى شققها بالحجر بدل أن ندفع الأجرة وفعلاً نحن فيها إلى الآن، ولدينا حديقة صغيرة نزرع فيها بعض الخضار والنّباتات.

خلال كلّ هذه الدوّامات والمصاعب تراجعت حالتي الصّحّيّة كثيراً، وصلت إلى مرحلة لا أستطيع فيها الوقوف على قدمي بسبب الألم في الرّكبتين. بدأت بالعلاج الفيزيائي، ثمّ

أخذت إبراً يصفونها عادة لمن هم في عمر السّبعين، لكنّني يجب أن أستمرّ وأعمل، فأخذت الإبر لفترة وكان عليّ أن أستمر في أخذها، لكنّها غالية، فثمن الإبرة مائة دولار وعليّ أخذها شهريّاً، ولديّ الكثير من الأولويّات: ابنة يجب أن تكمل دراستها في الجامعة، وولد عليّ تسجيله في الجامعة، وولد عليّ دفع مصاريف مدرسته، وابنتاي في سوريا لا يمكن ان أقطع النقود عنهما. وفوق كلّ ذلك أصابني هبوط في الرّحم، طلب الأطباء منّي أن أخضع لعمليّة مستعجلة، جمعت بعض النقود، لكنّ حالة اضطراريّة حدثت لعائلتي فصرفت مال العمليّة عليها بعد أن أقنعت أهل بيتي أنّ مال العملية في مأمن وأن لديّ مبلغاً إضافيّاً. آخذ الآن الكثير من المسكّنات، حبّتين صباحاً وحبّتين مساء، وأعتمد على العلاج الفيزيائي لأتحمّل الألم. لديّ أيضاً مرض (التهاب المفاصل الرثوي) لا علاج له، يحدث فيه هجوم على مفاصلي في نوبات متكرّرة وقد يصل الأثر إلى القلب، لكن هذا المرض يحتاج إلى قوّة شخصيّة للسيطرة عليه، وبعض المغذيات للأعصاب والفيتامينات، وهذا ما أحاول فعله. عليّ الاستمرار وإلا انهارت عائلتي كلها، فالجميع الآن بحاجة إلى مصاريف كثيرة، ومع توقّف المساعدات البسيطة من الأمم المتّحدة منذ أربعة شهور وارتفاع الأسعار، لا بدّ من مضاعفة العمل والبحث الدائم عن فرص جديدة. حاولت كثيراً مع الموظّفة في الأمم المتّحدة، أردت أن أعرف سبب توقّف المساعدات الغذائيّة على الأقلّ، وسبب إرسال رسالة لنا لإخبارنا أنّنا غير مخوّلين لاستلام أيّة مساعدات مالية (أربعمائة ألف ليرة لبنانيّة في ذلك الوقت)، لكنّ الموظفة لم تتعاون معي، بل طلبت منّي الاتّصال لأخذ موعد، اتّصلت وحصلت على موعد في سنة ٢٠٢٥.

صار الانتقـــال من شقّـــة إلى أخرى روتينـــــاً
نعيـــــــــده كـــــــلّ بضـعـــــــة أيّـــام...

أريـد أن أمـوت في بيـتي، في مـكان أعرفـه؛ لا أريـد المـوت
كالغريبـة

وكنت قد فقـدت الأمــل مسـبقاً في العودة إلى بيتي في الزبداني...
بيتي المهدّم

أن تقتحمي مـنزلاً لـيـس لـك وتتواصـلي مـع أصحابـه، كـم هـو
بشـع هـذا الشّـعور...

شـــــــــقّـــة فيـــها
بـــــــــــــــــلاط
عــلى الأقـــلّ.

عــــــــلـيّ الاسـتـــــــــــــمــرار
وإلا انهـــــــارت عائلتـــــــــي كلها

حال بيتي وبيت أهلي في الزبداني

تدمّر نصف بيتي الجميل الذي وصفته لك سابقاً، كلّ الواجهة الأمامية، كلّ الحجر وكلّ الجمال أصبح ركاماً بفعل القصف والقذائف. لم تبق إلّا بعض الأعمدة في الطّابق الثاني. حتى الحمّام تهدّم كلّه، لا أدري كيف وصلت قذيفة أو صاروخ إليه، كنت أظنّ أنّ الحمّام هو المكان الآمن في البيت، وكنّا نلجأ إليه كلمّا اشتدّت الاشتباكات والقذائف... علماً أنّ له فتحة في سطحه ويمكن ان تدخله القذيفة... لا أدري لم كنّا نلجأ إليه؟ ... انهارت أسطورة الحمّام الآمن [ضحك].

أعتقد أنّ قذيفة هاون قد سقطت فيه... لقد أصبحت خبيرة في أنواع الأسلحة، هناك ال «ب ت ر» وهي مثل مدفع على دبّابة صغيرة ولها سبطانة تخرج منها الطّلقات رشّاً. وهناك ال ٢١ المحمول على الكتف، والهاون والبراميل المتفجّرة، لكن لديّ إحساس أنّ الأذى الكبير الذي لحق بمنزلي هو من قذائف مثل الهاون، أو يمكن أن تكون صواريخاً من نوع آخر لا أعرفه. بكلّ الأحوال، بيتي غير قابل للسّكن حالياً، حاولنا بيعه حتى، فهو «طابو أخضر»،[lix] بل كلّ طابق له طابو أخضر منفصل، كنّا قد فكّرنا قبل كلّ ما حدث أنّنا قد نضطر إلى بيع أحد الطوابق. تواصلنا مع من تبقّى من المعارف هناك فقالوا لنا أن ننسى أمر بيع البيت «البيت مو للبيع». هم لا يستطيعون الشّرح على الموبايل خوفاً من المراقبة الأمنيّة، لكن يبدو أنّ هناك منع لبيع الأملاك في المنطقة أو قد تضع الدولة يدها عليها، لا أدري.

أمّا بيت أمّي الجميل، الدافئ، الحنون، فقد أصبح تلّة من الرّكام، كلّ الورد والزرع، والنافورة والغرف الكبيرة، كلّها تدمّرت، لم تبق إلّا غرفة واحدة تعيش فيها أمّي، وشجرة توت شامي. كانت تلك الشجرة قد ماتت، لكنّ أمّي أعادت لها الحياة بطريقة ما، وبذلت جهداً كبيراً عليها حتى إنّها أحضرت مهندساً زراعيّاً ليرعاها، والآن تثمر تلك الشجرة كلّ سنة، وتأكل أمّي منها، بل إنّها ترسل التوت لنا أيضاً.

---

lix يعد سند التملك الدائم من أكثر المصطلحات العقارية شيوعًا، ويسمى عرفًا بـ"الطابو الأخضر"، وهو عبارة عن وثيقة رسمية تُثبت ملكية شخص ما لعقار معين، تصدر مختومة عن دائرة السجل العقاري التي يتبع لها العقار في المناطق العقارية التي جرت عليها أعمال التحديد والتحرير.

اشتقت كثيراً لبيت أهلي [صمت]، انمحت كلّ الذكريات الجميلة التي كانت فيه [بكاء]. كنّا كثيرين وكثيرات في ذلك البيت، نلعب، نضحك، نشاغب، ندرس... ما زالت «طاولة» الدراسة الخاصة بي في غرفة أمّي، مع أنّها تكسّرت لكنها محتفظة بها. تلك الطاولة تعني لي الكثير فقد رافقتني في كلّ مراحل طفولتي ومراهقتي. كنت أحبّ الدراسة كثيراً وكنت مجتهدة، لكنّ أبي لم يسمح لي بالذهاب إلى الجامعة، أحضرت له نصف أهل البلد للوساطة لكنّه كان يرى أن الطّريق إلى الجامعة والمواصلات غير آمنة وفيها الكثير من الخطر عليّ كفتاة. حاولت هنا في لبنان أن أكمل هذا الحلم، لكنّني توقّفت بسبب كلّ هذه الضغوطات وحالتي الصّحّيّة المتدهورة، لكنّ بناتي وأولادي يكملون الدراسة وهذا عزائي الوحيد. تخلّيت عن كثير من أحلامي، لكنّ بقاء أسرتي على قيد الحياة وبصحة جيّدة يعوضني عنها...

هل تدرين؟ حتى هذا اليوم عندما أنظر إلى ابنتي التي أصيبت بقذيفة وأراها على قيد الحياة، لا أصدّق عيني. بل إنّها أنجبت صبيّاً. لقد حمتها ابنتها التي ماتت، وأنقذتها الطبيبة الرائعة التي شقّت رحمها... الحمد لله على كلّ شيء.



صورة للواجهة اليمنية لبيت شعاع الأمل سنة ٢٠٢٠، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.

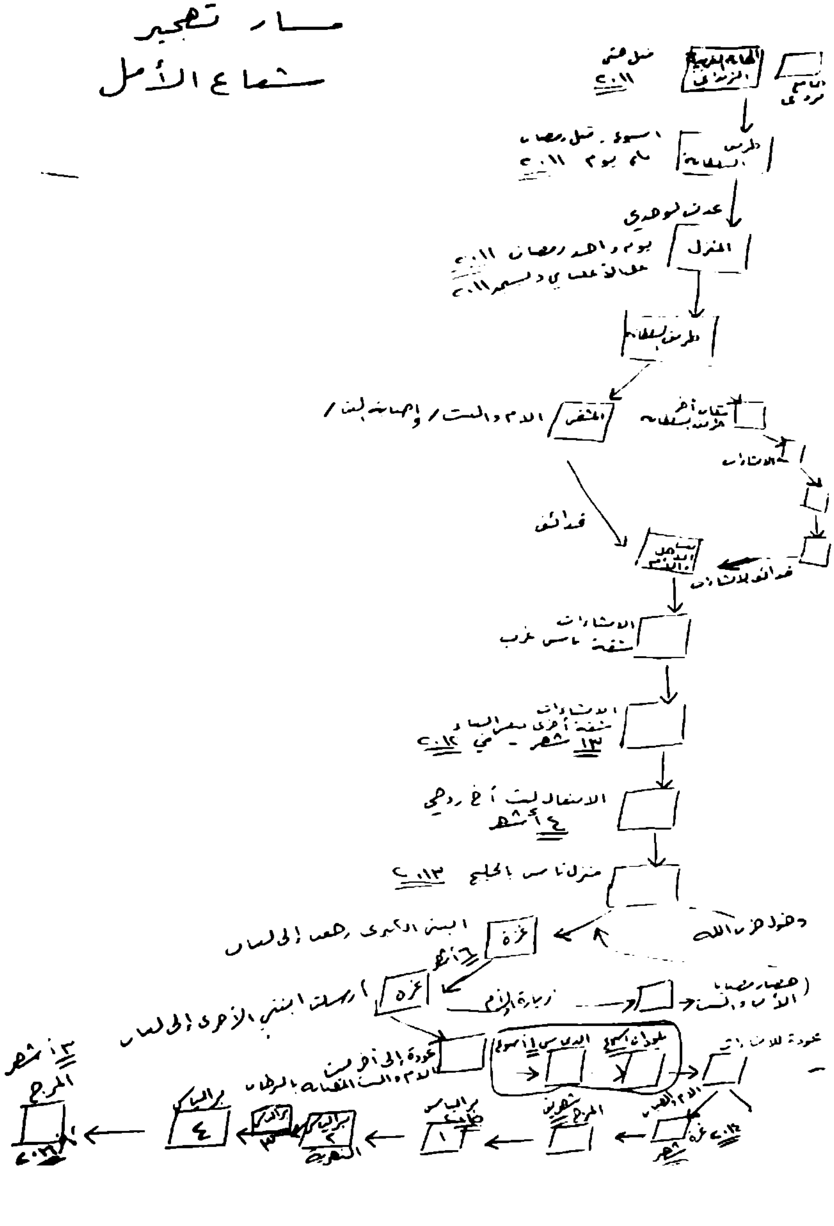
أيّ عدالة تلك التي سترمّمني؟

لا يمكن أن تتحقّق العدالة بالآليّات التي نعرفها. ما هي العدالة؟ حتى لو تمّت محاسبة رأس النّظام وكلّ من معه، هذا لا يعوّض يوم عذاب واحد عشناه، فقيداً خسرناه، أو بيتاً وروحاً أُزهقت فيه. أريد المحاسبة لكنّني لا أؤمن أو أصدّق أنّ المحاكم الدّوليّة قد تحقّق لنا أيّ نوع من العدالة، قد تكون العدالة السّماويّة هي العدالة الحقيقيّة.

من سيعوّض لي قلقي اليومي من الخذلان أو التّهجير أو الطّرد؟ أنا في رعب يوميّ أن أستيقظ ويأتيني صاحب البيت لإخراجي وعائلتي، أو أن يتمّ ترحيلنا. أنا مضطرّة ان أتعامل مع نظرات كراهيّة ورفض من بعض اللّبنانيّين واللبنانيّات كلّ يوم، ممّن يظنّون أنّنا جئنا إليهم وإليهنّ لاحتلال الأرض ومقاسمتهم الطّعام والشّراب.

لقد تعبت كثيراً، أنا منهكة، قد أبدو من الخارج امرأة قويّة لكنّني ازدت ضعفاً من الدّاخل، أنا الآن هشّة، أتظاهر بالقوّة النفسيّة وحتّى الجسديّة طوال النهار، لكنّني في آخر اللّيل لا أستطيع النّوم دون مسكّنات ومرخّيات عضليّة... فأيّ عدالة تلك التي سترمّمني؟

مسار تهجير شعاع الأمل حتّى تاريخ رواية قصتها



داريّا

ياسمين شريجي
سميّة خولاني

اسمي ياســـمين شـــربـــجـي ...

أنـا والـمكان عندمـا كنّـا سـويـــــة

تاريخ سرد القصّة: تشرين الأوّل / أكتوبر ٢٠٢٢

تشرّبت فكرة التّغيير والتّحرّر منذ أن كنت مراهقة

وأخيراً ثار الشّعب السّوريّ

تناقشنا في العائلة حول المخاطر التي ستواجهنا... ولكن!

نضالي مع حرائر داريا

اختفاء الهالة الملائكيّة... مجزرة داريا

لم يعد ممكناً البقاء في داريّا

إيناس الغالي خارج نطاق التّغطية

أريد عملاً فعائلتي بحاجة إلى المال...

أنتِ ممنوعة من السّفر

لبنان... أهلي، إقامتي، عملي، دراستي

عام ٢٠١٨ ... الكثير من الإنجازات والصّدمات

تخرجّت يا أبي

أنا ومحاكمة أنور رسلان في كوبلنز - ألمانيا

الدّخول إلى عالم جديد ... ألمانيا

ماذا حصل لبيتي في داريا؟

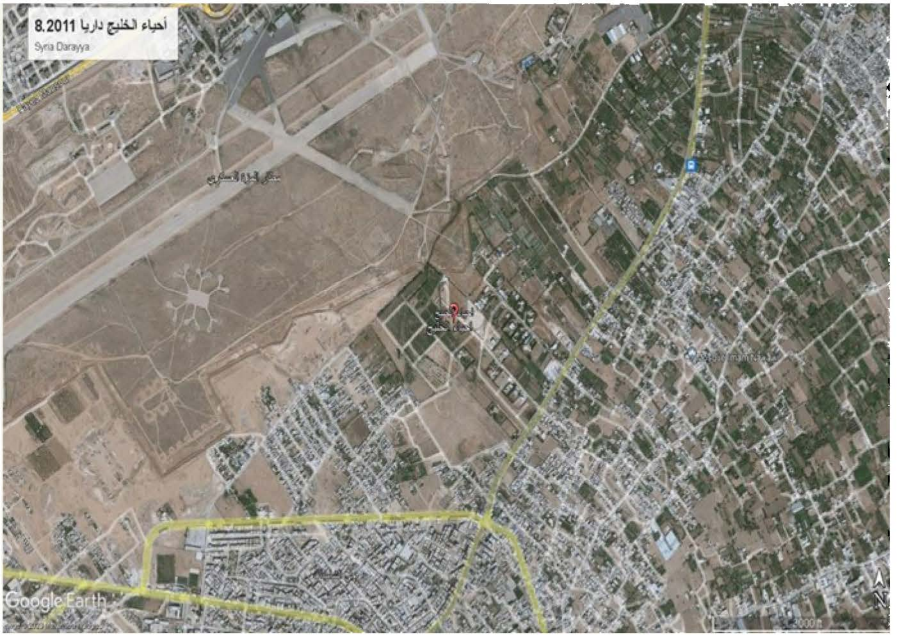
حوار مع البيت... وعدالتي

مســـار تهجيـر ياســمين شــربجـي

حتّى تاريخ رواية قصّتها

أنا والمكان عندما كنّا سويّة

عمري الآن أربعة وثلاثون سنة، أنا من منطقة في ريف دمشق اسمها داريّا. وُلدت وعشت فيها معظم سنوات حياتي، قبل أن أجبر على الرّحيل عنها. درست التّعويضات السّنّيّة في جامعة دمشق، ثمّ علم النّفس في جامعة لبنان، وأنا الآن في ألمانيا.
ولدت في بيت جدّي الكائن في شمال داريّا في حارة الشّربجي نسبة، إلى العائلة التي يسكن معظم أفرادها في ذلك الحيّ. انتقل أهلي عندما أصبح عمري ست سنوات إلى منطقة الخليج في داريّا، التي تبعد حوالي خمس وعشرين إلى خمس وثلاثين دقيقة مشياً عن حارة الشّربجي. بيتي بجانب ما يدعى «ميتور الدّلعين» مولّد للكهرباء ملك لعائلة أمّي، وبجانب البيت مسجد الصّادق الأمين، والحسن والحسين، ومدرسة خالد بن الوليد، وملعب العشّ. منذ أن انتقلنا إلى بيتنا هذا وأنا أحسّ أنّ هناك ملاك قد فرد أجنحته فوقه، يحميه ويبثّ فيه الحبّ والحنان. بيتي هو طابق واحد في منطقة زراعيّة متطرّفة، قريبة من مطار المزّة العسكري ومحاطة بالجبال. مساحة البيت مع أرضه كبيرة، حوالي دونمين. ملأت أمّي البيت بالورود، وزرع أبي أشجار التّين والتّوت والزّيتون والبرتقال ودالية العنب البلدي والأحمر. لم نكن نشتري الفواكه من المحلّات، كان لدينا كلّ شيء، بل كنّا نوزّع منها على جيراننا. زيّنت تلك الأشجار بيتنا الذي يعدّ فقيراً أو في منطقة كانت تُنسب للفقراء مقارنة مع باقي المناطق في داريّا.



خريطة المكان باستخدام غوغل إيرث عام ٢٠١١

باب البيت الخارجي لونه برتقالي وسكّري، يختلف عن باقي أبواب الحارة، أعتقد أنّ والديّ اختارا تلوينه لبثّ البهجة في قلوبنا. حين تدخلين سترين الورود في كلّ مكان، ورودا صفراء وحمراء، وزهر الياسمين بشكل أساسيّ. ثم يأتي درج طويل يصل إلى السّطح، وتحته بلاط لونه أزرق وأبيض كلون السّماء، ثمّ هناك بابان لون أحدهما بنّيّ ندخل من خلاله إلى البيت، أمّا الثّاني فهو لغرفة الضّيوف المنفصلة. عند الدّخول من الباب البنّي إلى البيت ستجدين في الصّالون خزانة «القيشاني» التي يمنع علينا المساس بها [ضحك]، وهي لأمّي ولوالدتها من قبلها، ثمّ تجدين بابين باب على جهة اليسار، جرّار، يصل إلى المطبخ والحمّام، وباب على اليمين يصل إلى غرفة الضّيوف. في أقصى اليمين توجد غرفة الجلوس «القعدة» وعلى اليسار غرفة نوم أمّي وأبي.

كنّا ننام كلّنا نحن الأطفال في غرفة القعدة، نحن ثلاثة صبيان وثلاث فتيات، لكن عندما بلغت وأصبح من الضّروري أن تكون لي خصوصيّتي، صرت أنام وأختي (قبل أن تولد أختي الثّالثة) في غرفة القعدة، وانتقل عمّار وإيناس (لم يكن أخي الثّالث قد ولد بعد) إلى غرفة الضّيوف.



صورة لجزء من المطبخ في بيت ياسمين، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.



صورة لغرفة نوم ياسمين في بيتها في داريا، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.

عندما كان الجوّ جميلاً ومشمساً درسنا وسهرنا وأكلنا في أرض « الدّيار» الأماميّة، وضعنا الفرشات «الطّرّاحات» في الخارج، المكسّرات وكل الأكل والفواكه الطّازجة وكأس عصير البرتقال خاصّة، وقضينا معظم ساعات النّهار واللّيل هناك [ضحك]. كانت رائحة شجرة المليّسة تختلط برائحة الياسمين، كلّما شممت هاتين الرّائحتين الآن تأخذني الذّاكرة إلى ذلك المكان... سقى الله تلك الأيّام وسقى الله نقاشاتنا السّاخنة نحن الأطفال وأبي وأمّي واختلافاتنا في وجهات النّظر، وانشغالاتنا بالدّراسة والكتب المبعثرة خاصّة بعد التحاق أمّي بالجامعة وتخرُّجِنا سويّة أنا وهي لاحقاً.

أجمل الجمعات كانت عندما تقوم أمّي «بالتّكشيك»، أي صنع الكشك ثمّ تنشيفه على السّطح. كانت جدّتي وعمّتي تأتيان لمساعدتها، أمّا نحن الأطفال فكنّا نلعب حولهنّ ونضع الكشك على وجوهنا ونضحك. أطيب الأكلات فطور الكشك مع الجوز فوقه يوم الجمعة، أستطيع أن أشمّ رائحة الطّبق الآن وأنا أتحدّث عنه. رائحة المرج أيضاً كلّما رواه أبي بالماء، رائحة المدفأة «الصّوبيا» إذ تنفض الدّخان في أيّام الشّتاء القاسية، ورائحتها وهي مشتعلة وكلّنا مجتمعون حولها نتحدّث ونتناقش.



صورة لأرض الديار في بيت ياسمين في داريا، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.



صورة لأرض الديار في بيت ياسمين في داريا، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.

منذ أن انتقلنا إلى بيتـنـــــــــا هذا
وأنا أحـــــــــــــــــــــــسّ
أنّ هناك ملاك قد فرد أجنحته فوقه

حين تدخلين سترين الورود في كلّ مكان

درسنا وسهرنا وأكلنا في أرض « الدّيار» الأماميّة

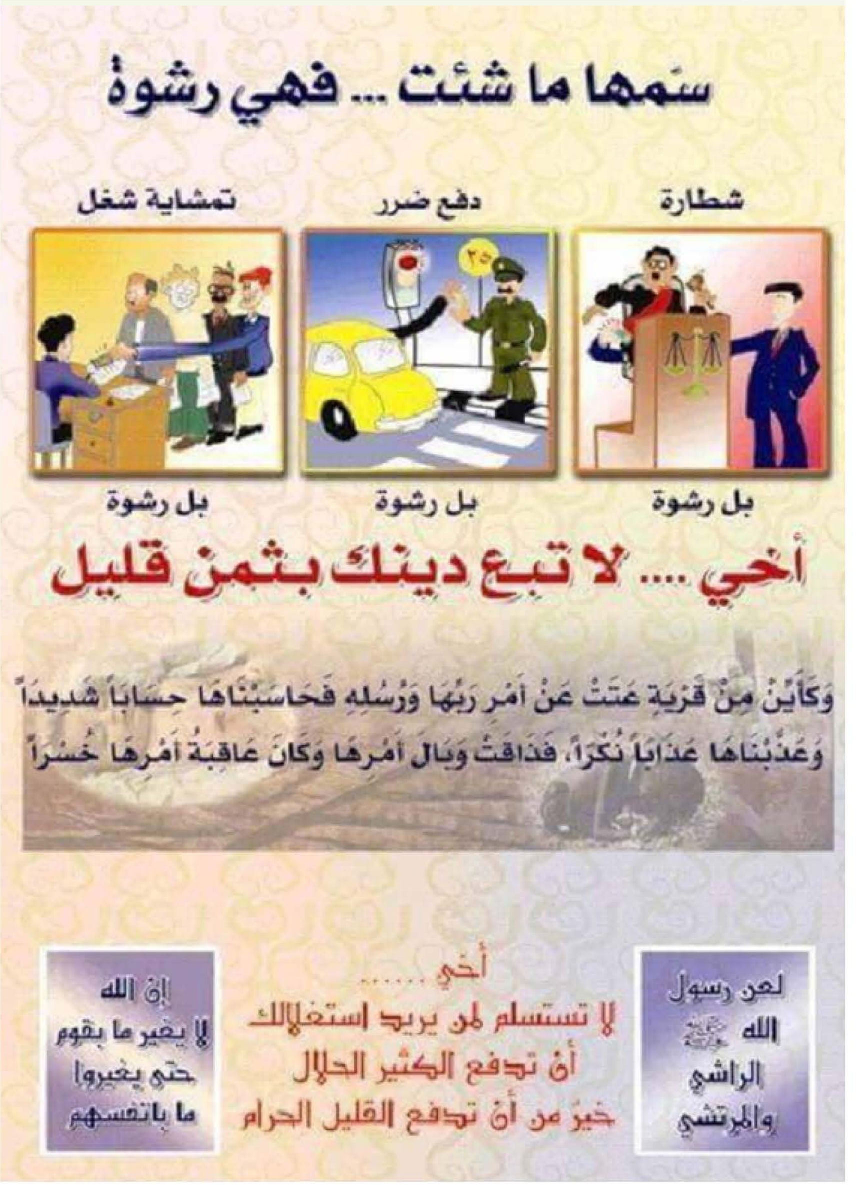
كـــــــانت رائـــــــحة
شجرة الملّيسة تختلط برائحة الياسمين

تشرّبت فكرة التّغيير والتّحرّر منذ أن كنت مراهقة

عائلة أبي تحبّ وتؤمن بالقوالب المجتمعيّة الجاهزة. عندما كنت صغيرة في عمر الخمس سنوات، كان يجب أن أطيع جدّي وجدّتي في كلّ شيء، وألّا أرفض لهما أيّ طلب. أنظّف حذاء جدّي وأضعه بشكل مرتّب أمام الباب، وأساعد جدّتي في أعمال المنزل. كل هذا النّمط لم يعجب أمّي، فكانت تسعى دائماً إلى تخليصي من هذه السّيطرة، وإلى تقوية شخصيّتي بحيث أقرّر أنا ما أريد فعله. بالفعل، عندما كبرت أصبحت أفكّر وأشكّك في الكثير من الأمور، ولا أقبل الأشياء لمجرّد افتراض الناس أنّها العادات الصّحيحة التي يجب اتّباعها. لقد بدأت شخصيّتي تتغيّر في عمر الخامسة عشر، أصبحتُ بالنّسبة لبيت جدّي ياسمين المتمرّدة، المتأثّرة بآراء أمّها وبأبيها الذي لم يتقبّل يوماً تحجّر المفاهيم والعلاقات في العائلة أو المجتمع. أمّي كانت تطلب الحوار وعدم قبول الأوامر أو الأشياء على حالها، وكنت أجدها على حقّ. لم أعد أتقبّل الأحاديث القاسية على بعض نساء العائلة، وصرت أدافع عنهنّ، صرت أسأل لماذا؟ وكيف؟ هذه الأسئلة لا تسألها الفتاة عادة، بل تنفّذ الأوامر مباشرة. بدأت أحسّ بالظّلم الواقع على النّساء في عائلتي، وشجّعتني أمّي على ألا أقبل هذا الظّلم، بل أحاور وأناقش.

ازداد فضولي وازدادت رغبتي بالتّغيير المجتمعي مع الأستاذ عبد الأكرم السّقّا «الله يفرج عنه هو في معتقلات الأسد الآن» الذي درّسنا في جامع أنس بن مالك. الأستاذ عبد الأكرم هو مجدّد للفكر الدّيني، علّم أمّي على الانفتاح والنّقاش، وأنا تتلمذت على يديه أثناءها. مثلاً، كان يقول لنا إنّ المرأة تستطيع قراءة القرآن وهي في دورتها الشّهريّة، وإنّ ما يقال عن النّجاسة والقذارة هو كلام مسيء لها. كان يشرح لنا كيف يحاصر مجتمعُنا النّساء في أدوار رعائيّة. كان سؤاله الشّهير «حبسوها خوفاً منها أم خوفاً عليها؟». علّمنا أنّ الله مصدر الحبّ، فبدلاً من أن نخاف منه علينا أن نحبّه وأن نحبّ الحياة. كان مثالاً للنّضال السّلميّ. تهافتنا نحن الفتيات والفتيان لحضور دروسه في الجامع، فأفكاره فتحت لنا أبواباً

جديدة ووضعت إشارات استفهام على كثير من الأمور الدّينيّة والمجتمعيّة والسّياسيّة. تمّ اعتقاله مع مجموعة من طلّابه وطالباته لمطالبته بالتّغيير المجتمعيّ عام ٢٠٠٣. كنت في تلك المظاهرة التي ندّدت بالغزو الأمريكي على العراق عام ٢٠٠٣، كما قمنا بنشر روزنامات مكتوب عليها: «سمّها ما شئت لكنّها رشوة. «للتوعية حول الفساد والرّشاوى في النّظام القضائي وفي كل أجهزة الدّولة. قمنا كذلك بحملة لتنظيف شوارع داريّا، لأنّها منطقة مهمّشة من قبل الدّولة ولا توجد فيها خدمات أساسيّة كتلك التي في المدينة. لم تعجب تلك التّصرّفات أجهزة أمن بشّار الأسد، فاعتقلوا الأستاذ لمدّة شهرين، وتمّ استجواب أمّي وبعض النّساء منهنّ آ.خ و ح. ل.، واعتُقل بعض طلّابه ومنهم م. م، ه. الح، ي. ش أيضاً لمدّة سنتين في سجن صيدنايا.



صورة للروزنامة التي تم توزيعها في المظاهرة التي ذكرتها ياسمين، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.

أريد أن أضيف هنا أنّ قسماً من مجتمع داريّا ومنهم عائلة أبي وأمّي، لم يعجبهم نهج الأستاذ عبد الأكرم، وصفوه بالتمرّدي وغير المألوف، وأنّه يفسد عقولنا. أحياناً كان الأستاذ يعطي دروساً للشّباب والبنات معاً، كي نتناقش ونتقارب أفكارنا، ولمنحنا فرصة التّعارف على أمل أن نتزوّج من بعضنا البعض وننجب أطفالاً يتّبعون ذات النّهج الفكري والدّيني. عارض الكثير من أهالي داريّا هذا الفعل، ووصفوه بالمتهوّر أو الدّاعي إلى الفجور أو الخارج عن الدّين، علماً أنّ الأستاذ هو شيخ وإمام، لكنّ ما دعا إليه عارضَه قسمٌ من أهالي داريّا وأيّده القسم الآخر منهم.

أتذكّر أنّ الأستاذ عبد الأكرم مُنع من إعطاء الدّروس في الجامع أو في بيته، وفي تلك الفترة صارت «القبيسيّات» هنّ من يعطين الدّروس الدّينيّة في عام ٢٠٠٥. جئن إلى جامع أنس بن مالك الذي بقيت أذهب إليه لأستمع إلى القرآن. لم أتقبّل ما كنّ يفعلنه، كان علينا أن نقبّل يد المعلّمة الكبرى على سبيل المثال، وأنا رفضت ذلك، وتوقّفت عن الذّهاب إلى هناك بعد شهرين من وصول القبيسيّات. صرت أذهب إلى جامع في منطقة «كفر سوسة» اسمه جامع عبد الكريم الرّفاعي، وقد شجّعتني صديقاتي في الجامعة على ذلك، فوجدت نفس النّساء هناك، الآنسة الكبرى تأتي بسيّارتها وهي صيدلانيّة، نقف جميعاً عند وصولها، ترتدي الإشارب الأزرق، وتطلب منّا أنّ نحجّب بناتنا الصّغيرات، وأن نخاف الله وألا نختلط أبداً مع الرّجال. بالنّسبة لي، كان كلام القبيسيّات يتوافق مع أجندة الدّولة السياسيّة، فالمرأة يجب أن تبقى في مكان مغمور، وألّا تشارك الرّجال أو تناقش معهم، وألاّ تثور على العادات ولا التّقاليد المجتمعيّة البالية. لم أستطع تحمّل كلّ ذلك، وتنقّلت بين أكثر من جامع، ولكن كنت أجد نفس النّمط ونفس النّهج في معظم تلك الأماكن، فعدت للالتزام بدروس الأستاذ عبد الاكرم في بيته حينما خفّ الضّغط قليلاً عليه، وكلّي سعادة بذلك.

وأخيراً ثار الشّعب السّوريّ

عام ٢٠١١، عندما بدأت الثّورة في سوريا، كنت أنا في مكّة المكرّمة أؤدّي العمرة مع جدّي وجدّتي وعمّة أبي. حاول الجميع منعي من متابعة الأخبار وإقناعي أنّ عليّ أن أتعبّد وألّا أشتّت أفكاري بما يحدث في سوريا، لكنّي كنت مذهولة ممّا يحصل، وكلّما تواصلت مع أمّي وأبي ثرت وتحمّست أكثر.

كان أهلي في قمّة الحماس وفي فرحة عارمة، فالشّعب السّوري قد ثار أخيراً على هذا النظام.

عدت إلى سوريا في الثالث عشر من آذار/ مارس ٢٠١١ ووجدت أهلي قد بدأوا التّنسيق مع مجموعة صار اسمها بعد ستّة أشهر أحرار وحرائر داريّا. شارك كل من في بيتي بالحراك، حتّى أخواتي وإخوتي في المدارس كانوا يشاركون في مظاهرات طلّابيّة. بدأنا بالمظاهرات وتشكّلت تنسيقيّة، وكانت هناك جهوزيّة مسبقة لهذا النّوع من الحراك السّلمي، وقد قاده وقادته طلّاب وطالبات الأستاذ عبد الأكرم.

لم يكن كلّ أهالي داريّا على توافق مع ما يحدث، وأذكّر أنّ بعض النّساء رمين علينا أكياس قمامة سوداء ولعنّنا وقلن لنا: «انتو كياس زبالة»، ربّما لأننا كنّا ملثّمات ونرتدي النّظّارات الشّمسيّة السّوداء ورداءً أسوداً طويلاً، كي لا نكشف هويّاتنا، أو لأنهنّ كنّ ضدّ هذا الحراك.

أوّل لافتة حملتها كُتب عليها «حريّة، كرامة، دولة مدنيّة»، وسألت حينها عن معنى الدّولة المدنيّة، فقالوا لي إنّها الدّولة التي تتّسع لكلّ السّوريّات والسّوريّين من كلّ الطّوائف والأديان، ولا تحكمها شريعة أو ديانة معيّنة. ثمّ سألت عن معنى «دولة ديمقراطيّة»، فقد كان البعض منّا يظنّ أنّنا نعيش في دولة ديمقراطيّة [ضحك]. دفعت أسئلتنا هذه الجيلَ الأكبر إلى بدء دروس توعويّة حول هذه المفاهيم: الدّولة المدنيّة، الدّيمقراطيّة، ولاحقاً العدالة الانتقاليّة، والفيدراليّة وغير ذلك. كانت كلّ هذه الدّروس تتمّ بسريّة تامّة وترافق المظاهرات السّلميّة التي خرجنا فيها بشكل شبه يوميّ.

استمرّت المظاهرات السّلميّة إلى أن داهمت قوّات الأمن داريّا وأطلقوا النّار واعتقلوا

يحيى شربجي وغياث مطر. كانت الفاجعة عندما أرسلت قوّات الأمن في شهر أيلول/ سبتمبر من عام ٢٠١١ جثّة غياث وهي مقطّعة إلى بيت أهله.[lx] كان فعلًا همجيّاً واستفزازيّاً، وضعنا جميعاً في حالة صمت وغضب وقهر في آن معاً. غياث كان من الجيل السّلميّ الجديد، وكان بمثابة ابنٍ فكريّ ليحيى شربجي، طالب بالحرّيّة والسّلميّة بأجمل الطّرق، فهل يكون عقابه القتل والتّقطيع؟[lxi] وعقاب يحيى الاعتقال ثمّ شهادة الوفاة لاحقاً؟[lxii] وهل فعلًا ترسلون جثّة غياث بهذا الشّكل إلى أهله؟ كنت أعرف غياث وأهله حتّى قبل تلك الأحداث، وكذلك يحيى وأهله. كم تألّمت لمصابهم وحالهم وحالنا جميعاً، كم غضبت وبكيت على ما جرى له ولنا من بعد تلك الحادثة الصّادمة.

تناقشنا في العائلة حول المخاطر التي ستواجهنا... ولكن!

لقد رويت لك ما حدث مع غياث مطر، ولكن هناك حادثتان مأسويّتان حدثتا في بيت أهلي. سأعود بذاكرتي إلى الشّهرين السّابع والثّامن من عام ٢٠١١. كنّا نخرج يوميّاً إلى المظاهرات، نتبادل الرّسائل القصيرة بالموبايلات بأنّنا مثلاً سنتجمّع اليوم لنطبخ، أو نتسوّق في ساعة معيّنة، هكذا كانت الشّيفرة بيننا، إذ إنّ كلّ شيء مراقب من قبل أجهزة الدّولة. في العشرين من شهر آب/ أغسطس، قرّرنا أنا وأمّي ألّا نشارك في المظاهرة بسبب تعب صحّيّ، بقينا في البيت، أمّا أخي إيناس، فكان يخرج في كلّ مظاهرة لأنّه كان يصوّر كلّ ما يحدث وينقله للإعلام. في ذلك اليوم تمّ اعتقاله، كان عمره تسعة عشر عاماً ويدرس في السّنة الأولى في كلّيّة الهندسة الكهربائيّة. انهار والدي عندما وصله الخبر، قال إنّه هو من يجب أن يُعتقل وليس ابنه. لقد تناقشنا سابقاً حول المخاطر التي ستواجهنا وأهمّها

---

lx كان من آخر أقواله وهو يشجع شباب داريا على الثبات والاستمرار، أنه وأصدقاءه يجهزون لزلزال سيهز أركان داريا...فكان نبأ استشهاده ذاك الزلزال الذي عصف بنا، وأفاق حتى من في القبور لهول ما جرى..إذ لم تغمض جفون أحرار وحرائر داريا مذ جاءهم نبأ اعتقال يحيى شربجي وصديقه غياث مطر بكمين نصبته لهم قوات المخابرات الجوية في ٦ أيلول ٢٠١١م، ثم لتسلم عائلة الشهيد غياث مطر جثمانه بعد مرور ثلاثة أيام من الاعتقال، إذ قضى نحبه تحت التعذيب.
هذا الشرح مقتطع من مقال منشور على موقع جريدة عنب بلدي بعنوان «غياث مطر، غيث داريا.. ومطر الحرية القادمة»، ٢٠١٢.

lxi فيديو بعنوان «٧ سنوات على وفاته تحت التعذيب.. غياث مطر «أيقونة النشاط السلمي»، إنتاج تلفزيون سوريا. (الأرشيف السوري)

lxii فيديو بعنوان «يحيى شربجي لواء الحراك الثوري في داريا، يودع سوريا شهيداً» إنتاج Step News Agency. (الأرشيف السوري)

الاعتقال، وتحدّثنا عن ضرورة صمودنا وتكاتفنا إن حدث ذلك لأحد منّا، لكنّ الواقع يختلف عن النّقاش. أنا وأمّي أحسسنا بالذّنب أيضاً، فلو أننا ذهبنا إلى المظاهرة لما تمّ اعتقال إيناس، أو هكذا تخيّلنا.

بعد ثلاثة أيّام من اعتقاله، ذهبنا أنا وأمّي وأبي إلى جامع الصّادق الأمين لأداء صلاة التّراويح سويّة، فقد كنّا في شهر رمضان حينها. أوصلنا أبي إلى هناك وقال لنا إنّه لن يعود لأخذنا، فهو ذاهب إلى بيت أهله. وقد أخبرني لاحقاً صديقه «أبو هيثم الحموي» أن أبي أخبره أنه سينزل إلى دمشق لحضور مظاهرة، وسيركن سيّارته بجانب بيت أهله عدنا إلى البيت، تأخّر أبي، اتّصلنا بيت جدّي لنسأل عنه فقالوا إنّه لم يأت إليهم. اتّصلت ابنة عمّ أبي بنا وأخبرتنا أنّ أبي قد تمّ اعتقاله. كان ذاهباً مع صديقه طارق ليقوما بشيء ما متعلّق بالحراك، لم يكن أبي يشاركنا ما يفعل، وكذلك أنا وأمّي لم نشارك ما كان يحدث من فعّاليّات ضمن حركة الحرائر معه، فمن الأفضل الّا نعرف الكثير من التّفاصيل عن بعضنا البعض، خاصّة إن تمّ اعتقال أحد منّا. أوقفهما «حاجز طيّار» ونادوه باسمه كي ينزل من سيّارته، وهذا معناه انّ أحدهم قد أخبر قوّات الأمن عن تحرّكات أبي. أعطى أبي مفاتيح السيّارة لصديقه، وطلب منه أن يهتمّ بنا. هنا سأل طارق، ضابطَ الأمن الذي كان من الحرس الجمهوري: «ماذا أقول لأولاده؟» فأجاب الضابط: «قلون، وربّيهون إنّو بشّار هو ربهم.» لم يخبرنا طارق بهذا الكلام حتى عام ٢٠١٩، عندما كتب مقالاً عن الحادثة «في جائزة سمير قصير من أجل حرّيّة الصّحافة» وعندما سألته عن سبب عدم إخبارنا، قال لي إنّه كان من الصّعب نقل مثل هذا الكلام ونحن في الفاجعة.[lxiii]

بدأت هنا معاناتنا أنا وأمّي، أخي وأبي في المعتقل، لديّ أخ في تركيا، وبقيّة إخوتي وأخواتي أطفال، أصغرهم عمرها سنتان فقط. خفنا من موقع بيتنا القريب من مطار المزّة العسكري، فقد كان احتمال المداهمات كبيراً، لكنّنا تسلحنا بقوّتنا الدّاخليّة وجرأتنا التي لا أعرف منبعها أو مصدرها، بالأحرى كنا نستمدّها من الله.

خرج أخي إيناس من المعتقل في نهاية عام ٢٠١١، أي بعد ستّة أشهر من اعتقاله. كانت

---

lxiii حاولنا البحث عن المقال، ثمّ طلبنا من ياسمين أن تزوّدنا به، وقامت بسؤال صاحب المقال عن الرابط، لكنّه رجّح أن يكون الرابط قد تمّ حذفه من قبل تلفزيون سوريا.

أمي تدرّس اللّغة الفرنسيّة في مدرسة ثانويّة، واتّصلت بها لأخبرها أنّ أخي إيناس في مركز شرطة داريّا، فقد رآه أخو إحدى قريباتنا ينزل من سيّارة الشّرطة بجانب المخفر. غادرت أمي المدرسة مهرولة لتصل إلى المخفر، لكنّها لم تستطع اللّحاق به في مركز الشّرطة، فجاءت مسرعة إلى البيت بعد أن أخبروها أنّه في طريقه إليه. أمّا أنا فقد كنت أنتظره في البيت، بكيت في انتظاره حتى لم أعد أرى شيئاً. لقد جاء إيناس، ضممته وشممته وأنا منهارة من دموع القهر والفرح سويّة.

تأمّلنا أن يخرج أبي في نفس الفترة، لكنّ ذلك لم يحصل. بدأت الصّعوبات الماديّة، فقد كان دخل أبي هو مصدر رزقنا. عملت أنا كمساعدة معلّمة في روضة أطفال، إذ أُغلق مخبر الأسنان الذي كنت أعمل فيه سابقاً، والذي كان في منطقة المعّضميّة، بسبب الاشتباكات التي كانت تحدث هناك، ومن قبله توقّفت عن العمل في مخبري الخاصّ بعد سبعة أشهر من بدء الثّورة، بسبب القصف على داريّا.

قرّرت في تلك الفترة أن أعمل على أربعة مسارات في آن معاً: أن أعطي معظم وقتي لنضالي وثورتي، أنّ أدرس البكالوريا مرّة أخرى وأتوقّف عن العمل في مجال التّعويضات السّنّيّة إذ تخرّجت من جامعة دمشق في عام ٢٠٠٨ بدرجة دبلوم تقني لطبّ الأسنان. شغفي كان في دراسة علم النّفس منذ البداية، وازداد خلال الثورة لما رأيت له من أهمّيّة، لذلك قرّرت أن أعيد البكالوريا وأدرس علم النفس، وأساعد عائلتي ماديّاً في ظرفنا الصّعب الذي نعيشه.

سجّلت في معهد المنارة لدراسة البكالوريا، لكن بعد أربعة أشهر تقريباً ازدادت القبضة الأمنيّة على داريّا وصارت الحركة صعبة جداً، وتدخّل عناصر الأمن في المعهد، لأنّ الأستاذ الذي درّسنا (والذي كان مديراً للمعهد أيضاً) كان ناشطاً في الثّورة. توقّفت عن الذهاب إلى المعهد وتفرّغت بشكل شبه كامل للعمل الثّوري.

نضالي مع حرائر داريّا

كنت مع تجمّع حرائر داريّا ، وازداد نشاطي معهنّ في تلك الفترة.[lxiv] تلقّيت معهنّ دروساً في الإسعافات الأوليّة، ودورات توعويّة حول المفاهيم المدنيّة، إضافة إلى مشاركتنا وتنظيمنا للمظاهرات. [lxv] لكنّني بعد فترة بدأت أحسّ أنّني غير منسجمة مع طريقة نضال بعض النّاشطات اليافعات في التجمّع، بعضهنّ كنّ يتبرّجن ويتزيّن في المظاهرات ويتهافتن ليظهرن في كاميرات الإعلام، أو يأخذن الأمور بشكل سطحي. يبدو أنّي كنت راديكاليّة جدّاً في تلك الأوقات، ورفضت ألّا نكون كلّنا جدّيّات، إضافة إلى أنّني كنت قد تشرّبت الكثير من القيم النضاليّة والفكريّة في سنّ مبكّرة، فأحسست أحياناً بفرق في الخبرة والمعرفة، لكن ما زاد عدم الرضى في داخلي هو استحواذ بعضهنّ في نقل الواقع عبر الإعلام كظهور وشهرة شخصيّة أو تفرّد في استلام التّمويل. لم يفسحن المجال لباقي النّاشطات لتمثيل النّضال ونقل الوقائع أو التّواصل. كنت أحسّ أن النّاشطات الفعليّات، من كنّ يقمن بكلّ العمل هنّ في الظّلّ، وأن الظّهور فقط لامرأة أو اثنتين، وهذا منافٍ أصلاً لقيم العمل الجماعي.

قرّرت في بداية عام ٢٠١٢ أن أشكّل مجموعتي الخاصّة، تعرّفت على مجموعة من الصّبايا اللواتي نزحن من حمص إلى داريّا، شعرت أنّ أسلوب نضالنا وتفكيرنا بالثّورة والنّضال الثّوري متقارب. كنّا ستّ نساء، خرجنا بشكل شبه يومي في السّاعة الخامسة أو السّادسة صباحاً لنوزّع أو نلصق في الجوامع مناشير تحثّ الشّباب على الانضمام للحراك، وعلى ضرورة قول كلمة الحقّ وعدم الاكتفاء بالصّلاة والّصيام فقط وتطبيق شعائر دينيّة مفرّغة من مضمونها الرّوحي العميق. كما وزّعنا على المدارس مناشير تتضمّن نصائح حول الإسعافات الأوليّة وأساسيات الوقاية والحماية في حال بدأ النّظام بقصف داريّا أو استخدم غاز السّارين.[lxvi]

---

lxiv نصح بقراءة مقال كتبه رزان زيتونة عن بدايات وأهداف تجمّع حرائر داريا بعنوان «مدينة الورود والحرية تدشّن حراكها الجديد: تجمّع حرائر داريا: لهذه الأسباب نحن هنا...»، ٢٠١٢.

lxv فيديو لإحدى المظاهرات التي نظّمتها وخرجت بها نساء من تجمّع حرائر داريا، ٢٠١١، نشر على موقع شبكة شام.

lxvi تقول ياسمين أنّ التوعية حول مخاطر غاز السارين او الكلور قد بدأت في داريا باكرا بسبب الروائح الغريبة المنبعثة من البراميل المتفجرة التي كانت قوّات النظام السوري ترميها من الطيّارات، لذلك قام بعض النشطاء بالبحث وجمع المعلومات عن ماهية هذه الروائح وتوصلوا إلى أنّها قد تكون مواد كيميائية سامة وقاتلة مثل غاز السارين.

علمت إحدى النّاشطات المعروفات في تجمّع أحرار داريّا ح.ل بتجمّعنا، وطلبت منّي أن نتناقش في الموضوع وأن أشرح لها لماذا كوّنت مجموعتي الخاصّة، أخبرتها كلّ شيء، فوافقتني لكنّها وضّحت لي معنى العمل الجماعي وأنّ هذه الانقسامات تؤثّر على الهدف الأكبر. طلبت منّي ومن باقي الزّميلات أن نعود إلى دورات التّوعية المدنيّة، وهكذا فعلنا. شعرت أنّها على حقّ، فقد أختلف بالرّأي مع الكثيرات وما زلت، لكن طالما أنّ العمل الجماعي يصبّ في مصلحة الثّورة فعليّ البقاء مع المجموعة الأكبر.

بعد فترة، وقبل مجزرة داريّا بأشهر قليلة، طلبت منّي إحدى النّاشطات التي كانت على علم بشغفي واهتمامي بالدّعم النّفسي، أنّ أعمل معها في روضة لأطفال الثّورة ممّن فقدوا وفقدن آباءهم أو أمّهاتهم أو الاثنين. كان هذا العمل رائعاً بالنّسبة لي، تعلّمت منه الكثير حول أساليب الدّعم النّفسي للأطفال ممّن يعانون ويعانين من الفقد والصّدمات. أيضاً كان له أجر مادّي، رمزي لكنّه كان مفيداً لنا في تلك الفترة، إذ لم يكن لدى أحدنا في البيت دخل مادي. خبرتي في هذا المجال جاءت من المعرفة التي حصلت عليها مع أخي إيناس بعد خروجه من اعتقاله الأوّل، من معهد في منطقة الميدان كان يدرّس فيه اختصاصيّ نفسيّ حول طرق الدّعم والحماية النّفسيّة للأطفال في حالات الحروب، ومفاهيم وطرق التّواصل اللّاعنفي.

اختفاء الهالة الملائكيّة... مجزرة داريّا

قبل حوالي شهرين من مجزرة داريّا، التي حدثت في آب/ أغسطس ٢٠١٢، كان الجيش الحرّ في داريّا قد اشتبك مع قوّات النّظام وكبّدهم خسائر في العتاد والأرواح. انسحبت قوّات النظام كلّياً من داريّا، وصارت لنا حريّة الحركة، وخرجنا بمظاهرات في النّهار واللّيل. أحسسنا بالحريّة في تلك الأيام، لكن كان هناك شعور عامّ بأنّ النظام يُعدّ لضربة عسكريّة قويّة انتقاماً لما حدث. بدأت الكهرباء والاتصالات والانترنت بالانقطاع عن معظم مناطق داريّا قبل أيّام من المجزرة، وكان ذلك مؤشّراً واضحاً على تخطيط قوّات النظام لحملة عسكرية كبيرة.

في أوّل يومين من المجزرة، كنّا أنا وكلّ إخوتي في البيت، حتى أخي إيناس الذي كان يقضي معظم وقته داخل داريّا، إلّا أنّه جاء وأصدقاؤه الذين كانوا ناشطين إعلاميّين ومهمّتهم نقل الأحداث إلى الإعلام ع. ال. الد. ،و إ. الن. و م.ش. إي. ش. اللذين استشهدا لاحقاً، جاؤوا إلى بيتنا لأنّه متطرّف والقصف لا يطاله لقربه من مطار المزّة العسكري الذي كانت تخرج منه الصّواريخ باتّجاه داريّا. وسبب آخر هو استمرار بثّ شبكة الـ 3G التي كانت تصلنا من المطار، وكذلك خطّ الكهرباء الذي كان مشتركاً بيننا وبينهم ولا يستطيعون فصله عنّا، لأنّ ذلك سيؤدّي إلى قطع الكهرباء عن المطار والسّجن.

ستّة أيام متتالية من قصف صاروخي مرعب على داريّا، تشقّقت بسببها جدران بيتنا من قوّة القصف الذي كان يتمّ من الجبل، حيث كانت وجهة الصواريخ إلى منتصف وجنوب داريّا. بل إنّ عزم القصف أحدث بعض الفجوات في أحد الجدران، استطعت أنّ أرى منها الكثير من الجنود القادمين مشياً من مطار المزّة إلى داخل داريّا، كان بعضهم يرتدي العصبات السّوداء على رؤوسهم ويضعون أساور خضراء، وتحدّث بعضهم لهجة غير عربيّة استطعت أنّ أميّز منها كلمة «خودا» الإيرانيّة لأنني تابعت سابقاً مسلسلاً إيرانيّاً.

بقي أخي وأصدقاؤه معنا في أوّل يومين، لكنّهم لم يستطيعوا تحمّل انقطاع الأخبار عنهم، فهم غير قادرين على معرفة ما يحدث داخل داريّا. رجونا أخي إيناس أن يبقى، لكنّه رفض وذهب مع أصدقائه، وبقينا وحدنا في وحدة ورعب لا يمكن وصفهما، نسمع صراخ النّاس «والولاويل» من كلّ صوب. صاح أحدهم مرّة أنّ قوّات النّظام أصبحت عند «ميتور الدّلعين» وأنّهم يذبحون كلّ من في البيوت، [lxvii] بقينا ننتظر أنا وأمّي وإخوتي الصّغار أن يطرقوا بابنا. أختي ر. دخلت الحمّام وأقفلت الباب ظنّاً أنّه المكان الآمن الوحيد، ثمّ سمحت لي بالدخول أنا وأخي م. وصرنا نحن الثّلاثة في الحمّام. أمّي كانت تقول في البداية: «لا تخافوا، ليش خايفين، إن شاء الله ما حيفوتوا لعنّا» لكنّها انهارت بعد ذلك. أختي الصّغيرة التي كان عمرها أربع سنوات كانت الوحيدة التي تهدّئ الجميع وتقول لنا:

---

lxvii محزرة داريا الكبرى.. شهادات عن ٧ أيام من القصف والذبح والإعدامات الميدانية، سوريا.

«ليش خايفين شو بدّو يصير؟» لكنّها رأت أمّي تنهار فطرقت باب الحمّام بقوّة كي نخرج أنا وإخوتي، فخرجتُ لأجد أمّي قد بدأت بالاستفراغ واصفرّ وجهها بشكل غريب. لا أذكر كيف تعاملت مع الموقف لكنّني بدأت بإيقاظها. لم يدخلوا إلى بيتنا بالفعل، لكن دخلوا إلى بيوت الجيران وقتلوا الكثير منهم، ثمّ سقط صاروخ في منتصف ميتور الدّلعين واستشهد بسببه الكثيرون والكثيرات.

لم نستطع الخروج من البيت لمدّة ستّة أيّام كاملة، وعندما هدأ القصف وخرجنا كانت الصّدمة. قتلوا عائلة كاملة، وغطّت الدّماء جدران المنزل. عائلة أبي سمرا ماتت كلّها بسبب الصّاروخ، حتّى بقرات جارنا أبي أكرم التّسع ماتت كلّها وتوفي صاحبهم قهراً. الجثث في كلّ مكان، رائحة الدّماء والموت في الهواء الذي نتنفّسه.

عاد إيناس بعد ستّة أيّام، فرحنا لرؤيته حيّاً وبكينا كثيراً، أخي م. انهال عليه بالضّرب باكياً وقال له: «وين رحت وتركتنا لحالنا ما بكفّينا بابا راح» أخي م. أصابه تبوّل لا إرادي وتأتأة في الكلام بعد تلك الأيّام البشعة. أمّا أنا، فلم تأتني الدّورة الشهرية لمدّة سنتين بعد المجزرة، وظهرت في جسمي انتفاخات وبقع من الدّم. أما أمّي فتساقط جزء كبير من شعرها [بكاء].



رسم تجريدي لحالة ياسمين وإخوتها في الحمام بانتظار اقتحام قوّات النظام للبيت

اختفــت الهـالـــة الملائكيـّــة التــي كانت تشعرني بالرّاحة،

زالــت منذ اعتقــال والــدي،

لكنّهــا تلاشـــت كلّيــا بعـد مجــزرة داريـــــّـــا

[تنهّد] .

عادت الاتّصالات بعد أن انسحب جيش النّظام من داريّا، اتّصلت بنا فاطمة وهيّ أمّ لطفلة، تهجّروا من حمص، وتبعد عن بيتنا ساعة مشياً على الأقدام. قالت فاطمة إن ابنتها بحاجة إلى إبرة، كانت مصابة بمرض نسيت اسمه، وكنت أؤمّن لها تلك الإبر سابقاً عن طريق طبيب من حماه كان يتردّد على داريّا ويعطينا أساسيّات الإسعافات الأوليّة. اتّصلت به وأخبرته عن حال الطّفلة فاستطاع تأمين الإبر لها وقال لي بأنني قادرة على أن أعطيها للطّفلة. مشينا أنا وأمّي ثلاث ساعات باتّجاه بيت فاطمة، استغرقنا وقتاً طويلاً للوصول من هول ما شاهدناه من دمار. وعندما وصلنا قالت لنا إنّ ابنتها ماتت "هلق وصلتي يا ياسمين؟»|بكاء شديد| كانت أمّ الطّفلة في حالة صدمة شديدة وكلامها غير مترابط، ارتبكنا أنا وأمّي، فما العمل؟ بقينا معها لمدّة ثلاث ساعات وبكينا كثيراً، ثم قالت إنّها تعبت وتريد النوم، فتركناها وعدنا إلى البيت، وواصلنا الاطمئنان عليها في الأيّام اللّاحقة. طوال الطّريق إلى بيت فاطمة رأيت وأمّي أفظع المناظر، جثثاً لقطط، دماء في كلّ مكان، روائح بشعة، لم نر جثثاً للبشر، فقد كان أهل داريّا قد دفنوها. كنت طوال الطّريق أتمنّى أن أصل وأعطي الطّفلة تلك الإبر لأنقذها، تخيّلت أنّي إن فعلت ذلك فقد يخرج أبي من المعتقل...

لكنّني دفنت تلك الطفلة بيدي ويديّ أمّها ووضعنا الإبر بجانبها...

ووصلتنا في ٢٠١٨ شهادة وفاة أبي في المعتقل |بكاء شديد|

|تمّ إيقاف المقابلة وتأجّل النّصف الثّاني ليوم آخر|

لم يعد ممكناً البقاء في داريّا

لقد توقّفت قوّات الأسد عن إطلاق السّكود والّصواريخ وإرسال المروحيّات، بعد أن عاثوا فساداً في داريّا وقتلوا من استطاعوا من أهلها. كانت داريّا بعد المجزرة صامتة بشكل مخيف؛ رائحة الدّم والخوف في كلّ زاوية منها، أعين النّاس منذهولة ممّا رأوا وسمعوا وعاشوا، خاصّة المجزرة التي حصلت في جامع أبي سليمان الديراني. [lxviii] كان الشّعور والمناظر والحالة كما يقال «كأهوال يوم القيامة.»

قرّرنا أنا وأمّي وإخوتي أن نغادر البيت الذي لم يعد فيه أو في كلّ داريّا أيّ أمان. استطاع أخي الذي يعيش في تركيا أن يتواصل مع أحد معارفه في منطقة «خان الشّيح» في ريف دمشق، وأمّن لنا فيلّا في مزرعة تركها أصحابها ويعيش فيها حارسها فقط. أخذنا بعض الثّياب، وبعض الأوراق المهمّة من هويّات واخراجات قيد، ومع ذلك نسينا الكثير من الأوراق، ثم أوصلَنا أحدهم مجّاناً إلى خان الشّيح.

لم نذهب إلى هناك وحدنا، بل مع عائلة عمّي وجدّي وجدّتي، وسكنّا سويّة في المنزل الجديد. عشنا مع بعضنا أصعب خمسة أشهر من حياتنا، كثرت المشاكل بيننا وبين عائلة عمّي، لم تعجبهم تصرّفاتنا، وجدوها غريبة مقارنة بنمط حياتهم، فمثلاً ممنوع أن نضحك لأنّ النّاس ماتوا في المجزرة وعلينا لبس السّواد. كنّا نتصرّف على طبيعتنا، فأحياناً نحتاج للمزاح مع أولاد عمومتنا، لأنّنا نريد التّنفّس، ولا نريد الموت كمداً، بل نريد الاستمرار. حتّى لو كنّا ناجيات وناجين من المجزرة، علينا التعامل مع اعتقال أبي وخروجنا من داريّا بعقلانية وأن نفكّر بيومنا الذي نعيشه وكيف سنعيشه وكيف سنستمرّ في المطالبة بحرّيّة أبي وأخي وفي عملنا الثّوري. ازدادت الخلافات عندما تطوّعنا أنا وأمّي في مدرسة فيها عائلات

---

lxviii تعرضت مدينة داريا بريف دمشق اليوم لواحدة من أبشع المجازر التي ارتكبتها ميليشيات الأسد منذ بداية الأحداث قبل أكثر من عام ونصف إذ طالت حملة المداهمات والاقتحام والتخريب والنهب داريا وجزءاً من كفر سوسة ومنطقة المهايني الملاصقة لداريا الشرقية، وقامت هذه الميليشيات بتمشيط طريق الملعب، وقامت بإحراق العديد من المزارع والبيوت على طريق الملعب، وتم قصف ملعب الحديد مما أحدث أضراراً مادية بالغة فيه.
وقد بلغ عدد الضحايا الشهداء في داريا لوحدها ٢٠٨ مدنياً وعثر على أكثر من ١٥٠ جثة في جامع أبو سليمان الديراني في داريا، كان أصحابها قد لجأوا إلى المسجد فلحقت بهم ميليشيات الأسد ونفذت فيهم إعداماً جماعيا في حرم المسجد في أبشع جريمة اقتحام وتدنيس لأماكن العبادة المقدسة. هذا الشرح مقتطع من تقرير بعنوان «مجزرة رهيبة في داريا والضحايا ٢٠٨ مدنيا» على موقع اللجنة السورية لحقوق الإنسان.

نازحة من حمص وحلب، حيث درّست أنا هناك وعملت أمّي في القسم الإداريّ.

أمّي لديها طاقة إيجابيّة وقدرة على تقديم الدّعم النّفسيّ وإدارة العمل، علماً أنّها كانت هي ذاتها منهارة، لكنها قرّرت أن تتطوّع وألّا تبقى في المنزل، وكانت في صراع دائم مع عائلة عمّي، تدافع عن تحرّكاتنا وحرّياتنا وعن رغبتنا في الخروج وتقديم المساعدة. حاولت جدّتي وجدّي حلّ الخلافات بيننا، لكنّ الأمور تفاقمت لدرجة أنّنا تركنا المنزل وخرجنا مع أغراضنا. مشينا في الشّارع دون أيّة خطّة وسألت أمّي « لوين بدنا نروح؟» كان شعوراً بالقهر والعجز، لكنّ كرامتنا كانت فوق كلّ شيء. وفكّرنا بعائلة قريبة لأبي فاتّصلنا بهم وذهبنا إليهم وهم في خان الشّيح أيضاً. أعطونا غرفة مجّاناً في بيتهم، واستقبلونا أجمل استقبال، وأكلنا وشربنا مع بعضنا البعض لمدّة ثلاثة أشهر، وكنّا هنا قد صرنا في نهاية عام ٢٠١٢. أمّا عائلة عمّي وجدّتي وجدّي، فقد علمنا لاحقاً أنّ قوّات الجيش دخلوا إلى المزرعة وأجبروهم على الخروج وأحرقوها بحجّة أنّه كان فيها إرهابيون أو مسلحون، فاضطرّوا للبحث عن مكان آخر.

لم أستطع المكوث دون أن أقوم بالتطوّع أو المساعدة، تواصلت مع الشّباب ممن بقيوا من تنسيقيّة داريّا داخلها، حاولت ان أسأل عن كيفيّة مساعدتهم ولو بأيّ شيء. في هذه الفترة تفرّقت عضوات حرائر داريّا بعد المجزرة، وتوقّفت النّشاطات إلى أن استقرّت النّساء في أماكن آمنة إلى حدّ ما خارج داريّا. بعدها كانت إحدى العضوات م. هي من تقوم بكلّ التّواصل لجمع الأموال ومساعدة شباب التّنسيقيّة لإعادة تأهيل المشافي الميدانيّة. كنت أسألها ماذا يمكن أن أفعل، وكانت تقول لي دائماً أنّه عليّ الانتظار. لم تجد أمّي المكان الذي كنّا فيه آمناً لتحرّكاتنا ونشاطنا في تلك الفترة، فتواصلت مع إخوتها الذين قرّروا أنّ يحلّوا لنا مشكلة المنزل، فاستأجروا لنا شقّة في منطقة «صحنايا» ودفعوا الإيجار.

كان انتقالاً جميلاً من نواح عدّة فأخيراً سنعيش مع بعضنا ووحدنا في مكان لنا. فرشنا الشّقّة بشكل متواضع جدّاً، لكنّها كانت كالجنّة بالنّسبة لنا.

تطوّعنا أنا وأخي إيناس مع جمعيّة حقوق الطّفل، وصرنا ننزل إلى دمشق وجامع الحمزة والعبّاس لتقديم خدمات التّفريغ النّفسي للنّازحين والنّازحات فيها تحت إطار جمعيّة حقوق الطّفل. أعطانا وجودنا مع هذه الجمعيّة غطاء قانونيّاً سهّل علينا التّحرّك بين المناطق إلى حدّ ما، بسبب بطاقات العضوية التي زوّدونا بها. كان لدينا فريق عمل مميّز مؤمن بقيم الثّورة. حاولنا تأسيس فريق عمل تطوّعي لتقديم هذه الخدمة بشكل منظّم وقمنا بالكثير من الخطط والعصف الذّهني لصقل الفكرة والحصول على تمويل لها وسمّينا فريقنا «زدني.» استلم إيناس فيه دوراً بارزاً في وضع الخطط الإعلاميّة، فيما كنت مسؤولة عن الأنشطة.

إيناس الغالي خارج نطاق التّغطية

وضعنا أنا وإيناس خططاً منهجيّة للعمل مع الأطفال واليافعات، فقد تدرّبنا سابقاً على ذلك. عملت أنا مع اليافعات النّازحات من كلّ المناطق السّوريّة، واللواتي كنّ يقمن مع أفراد عائلاتهنّ في الجامع ضمن مساحات مفصولة بالسّتائر، بينما عمل إيناس بالرّسم على وجوه الأطفال وأيديهم وإدخال الفرحة إلى قلوبهم. في الثّلاثين من أيّار ٢٠١٣ كنّا أنا وأخي عائدَين من جامع الحمزة والعبّاس، وكالعادة كنّا ننفصل في الطّريق، فإيناس وعلى الرّغم من وجود البطاقة معه، كان يفضّل أن يمشي عبر طرق فرعيّة وبين البساتين لأنّه شابّ من داريّا ومعتقل سابق، أمّا أنا فكنت آخذ الميكرو (باص صغير) وأذهب إلى المنزل. اتصّل به صديقه ولا أدري ما الحديث الذي جرى بينهما، فقال لي إيناس إنّه سيلتقي به ويعود إلى المنزل، وإنّ عليّ الذهاب في الطّريق المعتاد. وصلت إلى المنزل، وانتظرت نصف ساعة ولم يأت إيناس، اتّصلنا على موبايله فلم يجب، وبعد ثلاثة أرباع السّاعة أصبح الموبايل خارج نطاق التّغطية. أحسسنا أنا وأمّي أنّ إيناس ليس بخير، فلدينا تجارب سابقة مع الاعتقال. نزلنا أنا وهي من المنزل، وبدأنا بالسّؤال عنه على الحواجز العسكريّة، واحداً تلو الآخر، نسأل عناصر الجيش والأمن عن اسمه أو إذا كان قد مرّ من تلك الحواجز، لكنّ إجابة الجميع كانت بالنّفي، فهم لم يروه ولم يمرّ على حواجزهم. انهرت في تلك اللّيلة، كانت جملة أخي الغالي تتردّد في مسمعي باستمرار: «إذا اعتقلوني مرّة تانية ما راح أطلع»

في اليـوم التّـالي ذهبنـا إلى حاجـز الفرقـة الرّابعـة، وهـو مـن أسـوأ الحواجـز في التّعامـل، سـألنا عـن إينـاس، فقالـوا لنـا إنّه تـمّ توقيفـه مع صديقـه على حاجـز طيّار بين البسـاتين، وإنّه ليـس لأخي علاقـة بشيء فهدفهم كان صديقـه. تواصلـت مع أخت صديقـه، فقالت لي إنّ اخاها كان في مهمّة لإدخـال إنترنت فضـائي إلى داريّـا، واسـتعان بإينـاس ليسـاعده في نقلـه. كان عمر أخي الغـالي «الله يفرج عنـه يـا ربّ» عنـد اعتقالـه الثّـاني إحدى وعشريـن سـنة، ومـا يـزال معتقلاً إلى الآن، أي عمـره الآن ثلاثـون سـنة، تسـع سـنوات في الظّـلام. لقـد جـاءت لإينـاس عندمـا كان معنـا الكثير مـن الدّعـوات والفرص كي يخـرج مـن سـوريا لحمايتـه مـن اعتقـال آخـر، لكنّـه رفضهـا جميعـاً لأنّه لـم يكـن يريـد أن يتركنـا وحدنـا.

لا أسـتطيع أن أشرح لـك مشـاعر الذنب التي أكلت جسـمي ونفسـيّتي وأفكاري لمدّة خمـس سـنوات بعـد اعتقالـه، كيـف تركتـه يذهـب وحـده؟ لمـاذا لـم أرافقـه؟ كان مـن الممكـن أن أحميـه وأخلّصـه مـن الحاجـز، لقـد كنـت أنانيّـة...

وفي تلـك الأثنـاء كنّـا نجـدّد لـه تسـجيله في الجامعـة في كليّـة الهمـك (كليـة هندسـة الميكانيـك والكهربـاء) كلّ سـنة، عـلى أمـل أنّـه سـيخرج قريبـاً مـن المعتقـل، وسـيجد تسـجيله سـاري المفعـول فيلتحـق بسـهولة بمقاعـد الدّراسـة، ولكـن يـا حسرتـاه، فـإلى الآن لـم يخـرج!

تشـافيت بشـكل بطـيء مـن تلـك المشـاعر القاتلـة، حتّى بـدأت أتقبّـل أنّ مـا حـدث ليـس ذنبي أو ذنـب أيّ أحـد إلّا مـن اعتقلـوه.

أريد عملاً فعائلتي بحاجة إلى المال...

تعرّفـت في صحنايـا عـلى ناشـطات ونشـطاء مـن الطّائفـة الدّرزيّـة عـن طريـق صديقـة لي. كانـوا يقومـون بعمـل رائـع، وقـد شـكّلوا مـا يسـمّى بتجمّـع سـوريا الدّيمقراطـيّ، تجمّـع سرّي بالطّبـع، لكنّهـم كانـوا يقومـون بأعمـال إغاثيّـة ونشـاطات توعويّـة في نفـس الوقـت. فرحـت كثيراً بالانضمـام إلى هـذا التّجمّـع، وعملـت بدايـة في تسـجيل أسـماء العائـلات المحتاجـة إلى إغاثـة في قوائـم، والتّواصـل معهـا. كان مفيـداً أنّي مـن داريّـا وأعـرف الكثير مـن العائـلات هنـاك، ثـمّ امتـدّت شـبكتي لعائـلات في مناطـق أخـرى، فقـام التجمّـع بتسـليمي إدارة العلاقـات بسـبب

نشاطي واندفاعي. إضافة إلى ذلك، انضممت إلى التّدريبات التي كانوا يقومون ويقمن بها. وفي إحداها تمّت دعوتي إلى بيروت لحضور ورشة عمل عن العدالة الانتقاليّة، وذهب معي ثلاثة أشخاص من التّجمّع. للأسف اعتقلهم النّظام السّوري في طريق العودة، استشهد أحدهم في المعتقل بعد أسبوعين، أمّا زميلتي وزميلي المعتقلين فقد خرجا بعد أشهر. أثّر هذا الحدث كثيراً على أعضاء التجمّع، أصيب معظمهم بالإحباط، فغادر الكثير منهم إلى السّويداء وجرمانا. لكنّنا، نحن من بقينا في صحنايا، استمرّينا بالعمل بشكل أكثر سرّيّة وبكثافة أقلّ، لكنّنا بقينا مع بعضنا البعض.

وفي تلك الفترة، تعرّفت أيضاً على تجمّع حرائر الشّام، إنّه تجمّع سرّي ونشيط للغاية، كنّ يرتدين النّقاب فلا أرى وجوههنّ، ونلتقي في أحد الأسواق لإعطائي نقوداً أشتري بها حلياً للأطفال، وثياباً للنّاس في الأعياد في منطقة صحنايا. وبعد فترة صرت المسؤولة بشكل كامل عن منطقة صحنايا من النّاحية الإغاثيّة مع هذا التجمّع.

كان كلّ العمل الذي أقوم به تطوعيّاً، وبالطّبع لم أكن أريد أيّ مقابل للعمل الثّوري والإغاثي، لكنّ عائلتي كانت بحاجة إلى المال، فلا دخل ماديّ ولا أحد منّا يعمل. اتّصلت بي بعض النّساء اللّواتي كنّ في منطقة «الشّواقة »وهي منطقة بين صحنايا وداريّا لكنّها تابعة لداريّا، وعرضن عليّ أن أدرّس المواد العلميّة لطلّاب وطالبات الصفّ التّاسع والمرحلة الثّانوية في تلك المنطقة مقابل أجر. فرحت بهذا العمل رغم صعوبته، إذ كان التّحضير للدّروس يأخذ منّي وقتاً طويلاً، خاصّة أنّي كنت أصنع بيديّ الأدوات التّوضيحية وأوراق العمل التي تساعد الطلّاب والطّالبات على الفهم. كنت أجد الرّياضيات بشكل خاصّ مادّة جافّة جداً، فبدأت بوضع موسيقا هادئة بينما تقوم الطّالبات والطّلّاب بحلّ التّمارين، وكان برأيي أنّ لهذه الطّريقة نتيجة إيجابيّة. وبشكل عام كانت نتائج الامتحانات والمذاكرات جيّدة. لم يعجب هذا الفعل المسؤولات واعتبرنه «حراماً»، فقاومت وحاولت أنّ أبيّن لهنّ أنّ هذه الطّريقة جيّدة وتخفّف من التّوتّر والملل وقلت لهنّ إنّني المسؤولة عن الطلّاب والطّالبات في حصّتي، لكنّ الخلافات تفاقمت ولم نتحمّل بعضنا البعض، وشجّعتني أمّي على ترك العمل على الرّغم من حاجتنا الماديّة.

قالت لي أمّي حينها، إننا نريد بيئة تحتضننا وأفكارنا، لا أن تقمعنا، وإنّ أهمّ شيء بالنّسبة

لها هو راحتي النّفسيّة «ما بخسر بتي مثان كم ليرة.» تركت العمل، واستمرّ أحوالي في دعمنا بالمصروف في تلك الفترة، وكان هذا صعباً علينا، الشعور بأنّ هناك من يصرف عليّ هو إحساس غير مريح أبداً. فرّغت كلّ وقتي للعمل مع تجمّع حرائر الشّام وصرت أعمل أكثر من عشر ساعات في اليوم. كان بديهيّاً بالنّسبة لي ألّا أطلب مقابلاً لأيّ فعل أقوم به من أجل قضيّتي، لكنّني تعبت كثيراً، فتجرّأت يوما وسألت إن كان بالإمكان دعمي مقابل ما أقوم به، فوافقن بكلّ سلاسة واتّضح لي وجود هكذا مخصّصات لديهنّ، وبعد فترة طلبت لابتوباً لأجمع عليه ملفّاتي وتوثيقاتي التي كنت أقوم بها، فزوّدنني به أيضاً.

أنتِ ممنوعة من السّفر

في نهاية عام ٢٠١٣ تمّت دعوتي من قبل منظمة كوسوفو الإيطاليّة إلى تدريب عن السّلم الأهلي في مدينة غازي عنتاب التّركيّة لمدّة خمسة عشر يوماً. وقمنا بمبادرة تدريبيّة حول مفاهيم السّلم الاهليّ، ونقلت وقتها الخبرة للنّاشطين والنّاشطات في مبادرة التّجمع الديّمقراطي كـ «تدريب للمدرّبات»، وبعدها بأشهر قليلة جاءتني دعوة ايضاً من منظمة CCSDS (مركز المجتمع المدني والديمقراطيّة في سوريا) في غازي عينتاب، تركيا). كان الأطفال هم الفئة المستهدفة من هذه التدريبات، وكان هدفنا، بالإضافة إلى الإغاثة، أن نعلّم الأطفال قيم ومبادئ السّلم الأهلي. ذهبت إلى هناك وتلقّيت التّدريب وعدت ومعي مبلغاً منهم كي نقوم بتنفيذ مشروع في مدينة داريّا لمدّة أربعة أشهر، ثمّ نقوم بحملة توعية. درّبت بعض الصّبايا من داريّا على كلّ المعرفة التي اكتسبتها من ورشة العمل ونفّذنا المشروع والحملة.

بعدها حضرت في عام ٢٠١٤ أكثر من تدريب وورشة عمل في بيروت حول مفاهيم العدالة الانتقاليّة والمواطنة. وفي الشهر السّابع من نفس السّنة تلقّيت دعوة أخرى من منظمة CCSDS لحضور ورشة عمل في غازي عنتاب. وصلت إلى الحدود السّوريّة، ودخلت لأختم جواز سفري، فقال لي الضّابط هناك «إنتي ممنوعة من السّفر ولا تكتّري حكي وتفضّلي معي.» كدْت أقع من هول الصّدمة وتأكّدت أنّ هذا هو يوم اعتقالي. أخذني إلى خارج

مركز ختم الجوازات إلى غرفة مسبقة الصّنع، بقيت فيها لمدّة ستّ ساعات. في تلك الأثناء بدأ السّائق الذي كان ينتظرني في الخارج بالسّؤال عنّي، فقال له الضابط «البنت مو راجعة لعند أهلها، لا تستنّاها.»

بدأت أفكّر في أوّل ساعتين من الانتظار بطريقة للنّجاة والهرب، راودتني أفكار غريبة، فكّرت مثلاً أن أجرح نفسي بطريقة ما، فتنساب الدّماء ويسعفونني إلى المشفى فأهرب من هناك. أو أن أطلب الإذن بالذّهاب إلى الحمّام فأجد نافذة هناك وأهرب منها (كم كنت ساذجة لأفكّر أنّهم سيسمحون لي أساساً بالذهاب إلى الحمام). كان هاجسي أهلي، أمّي وإخوتي الصّغار لن يتحمّلوا اعتقالي بعد أبي وأخي. بعد ساعتين دخل بعض العناصر ومعهم رجل قد جرّدوه من ثيابه كلّها عدا سرواله الدّاخلي، كان من الرّقّة، بدأوا بضربه بوحشيّة أمامي وهم يتّهمونه أنّه مع تنظيم «داعش».

استمرّوا بتعذيبه ساعة كاملة، انفجرت بالبكاء وأحسست بالعجز، فلم تكن لديّ في البداية الجرأة لأطلب منهم أن يتوقّفوا عن ضربه، وعادت إليّ مشاعر الذّنب حول اعتقال أخي إيناس. تشجّعت بعد قليل وصرت أقول لهم «مشان الله حاج تعذّبوه» فلم يلتفت إليّ أحد وكأنّني غير موجودة. صرت أبكي وأدعو أن تحدث معجزة تخلّصه من هذا العذاب، وبالفعل بعد ساعة دخل أحد الضّبّاط وقال: «اتركوه، اتركوه، مو هوي المطلوب.» توقّفوا عن ضربه وخرجوا بكلّ بساطة، كان مغطّى بالدّماء، فاقتربت منه وقلت له بأن لا يحزن، نعم هم أشرار وظالمون، لكنّ الله أنقذه من أيديهم. لم يقل لي شيئاً سوى « الحمد لله، الحمد لله، طلعت مو أنا.»

بعد قليل جاء أحد الضبّاط، قلت له: «أمانة طالعوني من هون بدّي إرجع لعند أهلي، أنا مو عاملة شي»، فسألني عن سبب وجود أكثر من ختم لتركيّا على جواز سفري، أجبته أنّ أخي يعيش هناك وأنا أذهب لزيارته كلّ فترة. أعطاني جواز السّفر وقال لي: أنت مطلوبة لفرع الأمن رقم ٢٧٩، عودي إلى سوريا وراجعيه. لم أجرؤ حتّى على سؤاله عن هذا الفرع الأمني، خرجت من الغرفة وكانت السّاعة التّاسعة والنّصف ليلاً وأنا وحدي في منطقة الحدود السّوريّة «جديدة يابوس»، وبالطّبع موبايلي مغلق طوال هذه الفترة. سألت صاحب إحدى السّيّارات العائدة إلى دمشق إن كان يرضى أن يعيدني معه فوافق، طلبت منه

أن يأخذني إلى بيت خالتي في الميدان، وصلت إليها في وقت متأخّر ولم أخبرها بما حدث، فقط طلبت منها أن أنام تلك الليّلة في بيتها. اتّصلت بأمّي وأخبرتها بكلّ شيء، فطلبت منّي ألّا اعود إلى المنزل أبداً، لأنهم أخذوا عنواني، وقالت لي أن أبقى عند خالتي وأنّها هي وإخوتي أيضاً سيغادرون المنزل بأيّ طريقة، خوفاً من أية مداهمة أو اعتقال.

بقيت مدّة شهر وبضعة أيّام في بيت خالتي، ثمّ تواصلت مع م. إحدى عضوات حرائر داريّا التي نزحت إلى لبنان وأخبرتها بكلّ ما حدث معي، فقالت لي إنّه يجب ألّا أبقى ساعة واحدة في دمشق وعليّ الوصول إلى لبنان عن طريق التّهريب عبر الحدود. تواصلت مع أحد المعارف فقال لي إنّه سيعطيني هويّة أخته التي تشبهني لأقطع بها الحدود السّوريّة اللّبنانية وذلك مقابل مبلغ ألف وستّمائة دولار.

في طريقي نحو لبنان كانت دموعي تنهال على وجنتي بحرقة، تساؤلات كثيرة: لمن أترك وطني وبابا وإيناس وأمّي وإخوتي والنّاس والأطفال الذين عملت معهم وحاجتهم لي؟

لم أنزل من السّيّارة على الحدود السوريّة إذ قام السّائق بختم جوازي بدلاً عنّي. أمّا على الحدود اللبنانية، فقد تركني السّائق أدخل وحدي. شكّ الضّابط قليلاً في الصّورة، وراح يسألني عن حاجبيّ ولماذا غيّرت شكلهما، التهى بعد قليل بشيء ما، فذهبت إلى أكثر ضابط لديه ناس تريد ختم جوازاتها كي لا يأخذ وقته في الأسئلة وختم لي جوازي، وكان هذا في أوّل الشّهر التّاسع من عام ٢٠١٤.



رسم تجريدي لمشهد احتجاز ياسمين على الحدود السوريّة وتعذيب قوّات النظام لرجلٍ أمامها

لبنان... أهلي، إقامتي، عملي، دراستي

وصلت إلى منطقة البقاع ونزلت في بيت خالتي الأخرى وبقيت عندها حوالي خمسة عشر يوماً. استقبلتني بكلّ حبّ وقضيت معها أوقاتاً جميلة، لكنّني قرّرت أن أبحث عن منزل أستأجره وحدي لأحضر أمّي وإخوتي من سوريا، كان ذلك الهمّ الأكبر الذي يشغل بالي. وجدت منزلاً للإيجار لقاء مبلغ شهريّ قدره أربعمائة دولار، تواصلت مع أمّي وقلت لها أن تترك المنزل في سوريا وأن نستخدم النقود التي كان أخوالي يرسلونها لنا لاستئجار هذا المنزل في البقاع. وافقت أمّي وجاءتني مع إخوتي بعد أسبوعين.

لم يكن معي أيّ نقود، وكنت بحاجة لمال أصرف فيه على أهلي وعلى نفسي، فبدأت بالبحث عن عمل، وعملت مع منظّمة «النّساء الآن» بعد أن أصبحت أنا وعائلتي في بيت واحد. عملت بداية في مركز شتورة كمدرّسة للأطفال، لم أكن راضية كثيراً عن ذلك العمل، فطموحي وخبرتي كانا أقرب للعمل المدنيّ التّوعوي، لكنّني استمرّيت في ذلك العمل، وكنت أقضي وقتاً ممتعاً مع الأطفال، أرسم وأغنّي وألوّن معهم.

بقينا أنا وأهلي لمدّة سبعة أشهر في الشّقّة، ثمّ انتقلنا إلى شقّة في منطقة «تعلبايا»، إذ إنّ المبلغ الشّهري كان كبيراً والشقة مؤلّفة من ثلاث غرف ويمكن استبدالها بواحدة أقّل سعراً وأصغر مساحة. إضافة إلى أنّنا لم نرتح كثيراً لصاحب الشّقّة ولتدخّلاته ونظراته. انتقلنا إلى منطقة تعلبايا، وما زال أهلي فيها حتّى الآن، وصاحب الشّقّة شخص لطيف جدّاً وقام بكفالتي لأحصل على الإقامة لاحقاً في لبنان.

أحبّ ذلك المكان، فقد شكّل لي ولأهلي مساحة آمنة إلى حدّ ما، أقمنا علاقات محبّة واحترام مع جيراننا هناك، كان ذلك صعباً في البداية، إذ لم تصدّق جاراتنا أنّ لنا أخاً وأباً في المعتقل، وأنّنا وحدنا في لبنان وأنا الوحيدة التي تعمل. ظننّ أنّنا ندّعي هذه القصص، لكن بعد زياراتهنّ لنا، ورؤية صور أخي وأبي في كلّ مكان، أدركن أنّنا نقول الحقيقة وتعاطفن معنا. أعتقد أنّ لنا وضعاً خاصاً في علاقاتنا مع جيراننا، فقد كان هناك الكثير

من الشّحن السّلبي من المجتمع المضيف ضدّ وجود السّوريّين والسّوريّات، خاصّة لمن يعملون ويعملن في المنظّمات ويستلمن الرّواتب الشّهريّة بالدّولار بينما يستلم اللّبنانيون واللّبنانيات العاملات في الدّولة رواتبهنّ باللّيرة اللّبنانيّة. لكن لم ينطبق هذا الوضع علينا، فقد فرحت إحدى الجارات كثيراً عندما اشتريت سيّارة وباركت لي بها، بينما كان هناك غضب إذا رأت هي أو غيرها سوريّين أو سوريّات يشترون سيّارات، ومعظمهنّ الآن يرسلن لي الكثير من السّلامات عبر أمّي ويقلن لها إنهنّ اشتقن إليّ وإلى وجودي في الحارة. لكن من ناحية أخرى سبّب لي بعض الجيران ضرراً في عملية التّقديم على الإقامة، فقد أشاعوا عنّي أنّني أعمل كمديرة في أحد المشافي، وكطبيبة نفسيّة وبرواتب عالية. لعبت تلك الإشاعات دوراً كبيراً في إبطاء حصولي على الإقامة اللبنانيّة، إذ قرّر الأمن العام اللّبناني تصديقها دون أن يتحرّوا عن صحّتها.

شكّل وضعي القانوني في لبنان مشكلة كبيرة لي، فقد دخلت بشكل غير نظامي إلى البلد، وقانونيّاً كنت ما أزال في سوريا. أردت التّسجيل في الجامعة والبدء بتحقيق حلمي بدراسة علم النّفس، لذلك كان لا بدّ لي من تسوية وضعي القانوني. ذهبت مع امرأة سوريّة، معتقلة سابقاً لدى النّظام السّوري، ولها نفس وضعي القانوني في لبنان، ذهبنا سويّة إلى الأمن اللّبناني لنقوم بتسوية أوضاعنا. قلت للضّابط إنني دخلت إلى لبنان عن طريق الجبال، أي عن طريق خط التّهريب، فنظر إليّ وقال: «إنت اسمك مطلوب للإنتربول وصعب أعمل لك أيّ أوراق» خرجت مشدوهة وبدأت بربط الأمور ببعضها البعض، وجاءتني كلّ الهواجس، ففرع ٢٧٩ في سوريا هو فرع أمن المعلومات، هل من المعقول أنّ له من القوّة والوصول أن يضع اسمي على قائمة دوليّة للمطلوبات؟

اتّضح فيما بعد أنّ ذلك الضّابط كان يقصد إخافتي وبثّ الرعب بداخلي فحسب، فقد جاءتني الأوراق بعد ثلاثة أيّام، وهي عبارة عن إقامة عليّ تجديدها كلّ ستّة أشهر. حتى تلك الإقامة لم تكن كافية للتّسجيل في الجامعة، كنت بحاجة إلى كفيل، ومررت بصعوبات كثيرة، أخذ منّي بعضهم المال دون جدوى، حتّى استطعت الحصول على كفيل

لمدّة شهرين وسجّلت عام ٢٠١٥ في فرع علم النّفس في فرع الجامعة اللّبنانية في زحلة. خلال باقي السنوات (حتى عام ٢٠١٨) كنت مخالفة للقانون من ناحية الإقامة، لكنّي درست وعملت لمدّة ثلاث سنوات حتّى أنهيت دراستي وتخرجّت ولديّ شهادة جامعية في مجال علم النفس، وحقّقت حلمي.

تغيّر منصبي الوظيفي في منظّمة النّساء الآن خلال تلك السّنوات، وانتقلت إلى مركز في منطقة «مجدل عنجر» وصرت أعمل بالدّعم النّفسي للأمّهات. كان هذا العمل مناسباً لي من النّاحية المهنيّة والفكريّة ويشبه ما كنت أطمح إليه في العمل المدني، فقد كنت أنشر المعرفة النّفسية بين النّساء مع ربطها بالجانب الحقوقي. ساعدني كثيراً وجود نوع من الإجازات في المنظّمة مخصّص للدّراسة، فكنت آخذ إجازات دراسيّة وأدرس للامتحانات، واستطعت بذلك التّوفيق بين العمل والدراسة إلى حدّ ما. لكنّ الصعوبة كانت تكمن في جوّ العمل آنذاك في مركز مجدل عنجر، كانت هناك مقاومة لطريقتي ونهجي بنشر القيم والأفكار من قبل بعض الإداريّات في المركز، ممّن أردن فرض منهج صلب في العمل واعتبرن أيّ محاولة تغيير فيه هجوماً عليهنّ أو تحدّياً لهنّ. صبرت لفترة طويلة، وأثمر صبري بعد أن قامت المديرة القطريّة بزيارة المركز واطّلعت على كلّ ما يحدث، وقررت انّ يتم نقلي إلى مركز شتورة كي أعمل هناك.

عام ٢٠١٨ ... الكثير من الإنجازات والصّدمات

أصريّت على الحصول على إقامة نظاميّة في لبنان لكثير من الأسباب، أهمّها أنّني أريد أن أدرس ماجستيراً في علم النفس بعد انتهائي من الجامعة، وهنا أنا بحاجة إلى إقامة جديدة. كذلك كانت تصلني الكثير من الدّعوات إلى ورشات عمل وتدريبات مهمّة في دول أوروبيّة اعتذرت عن معظمها بسبب وضعي القانوني.

ساعدني صاحب الشّقّة التي نسكن فيها بكفالتي، لكنّ عمليّة الحصول على الإقامة كسورية في لبنان في عام ٢٠١٨ لم تتوقّف عند إيجاد الكفيل. طلبني الأمن العام لكثير من المقابلات والمواعيد التي امتدّت على ثلاثة أشهر، كنت في نفس الوقت أدرس لامتحاناتي النهائية

في الجامعة وأعمل مع منظّمة النّساء الآن. كثيرة هي الأيّام التي أخذت فيها كتبي وقرأت للامتحان في فترة الانتظار في مبنى الأمن العام اللّبناني، حتى إنّ بعض العناصر سألوني عن أسماء الموادّ التي أدرسها، وقال لي الضّابط في إحدى المقابلات إنّ خطيبته تدرس في نفس الجامعة والاختصاص.

تلقّيت دعوة لحضور مؤتمر أو حدث خاصّ مع رابطة المواطنة في باريس، لم أكن أعلم إن كنت سأذهب أم لا، فكلّ شيء يتوقّف على الإقامة. شاءت الصدفة أن أحصل على الإقامة قبل يوم واحد من السّفر وسافرت مع المجموعة إلى باريس في الشّهر السّابع من عام ٢٠١٨. كانت فرصة جميلة، وفرحت لسفري ولقائي بمجموعة مميزة من النّاس هناك، وكان ضمن المخطّط أن نزور مجلس الشّيوخ، وهنا كانت الصّدمة، فلم يسمحوا لي بالدخول أنا واثنتين معي إلّا إذا خلعنا الحجاب. رفضت ذلك واعتبرته إهانة لهويّتي وحرّيتي، فتضامن معنا كلّ الفريق ورفضوا الدّخول إلى مجلس الشّيوخ. أحبّ ذلك الموقف التّضامني كثيراً وأحبّ أن أذكره كلمّا تحدّثت عن تلك الفترة، لأنّه عنى لي الكثير، أحسست بالدّعم وبعض الأمان.

عدت من فرنسا ببطاقة جديدة، فها أنا أسافر ولديّ إقامة وسأتخرّج من الجامعة، شعرت أنّه وأخيراً بدأت أقوم ببعض الخطوات التي قد تشكّل نوعاً من الاستقرار بعد عناء طويل من المعاناة والتّعب. لكن، في الثالث والعشرين من تموز/ يوليو من نفس العام، بعد رجوعي من فرنسا بأيّام، أصدر النظام شهادات وفاة لبعض المعتقلين في سجونه، وكان من بينها شهادة وفاة أبي (ذكروا في شهادة الوفاة أنّ أبي قد توفّي بتاريخ ١٥ \ ١ \ ٢٠١٣ أي بعد سنتين من اعتقاله ...)

أذكر أنّي فقدت إيماني في تلك اللّحظة بكلّ شيء...

كلّ آمالي معلّقة على اللّحظة التي سيخرج فيها أبي من المعتقل وينضمّ إلينا، كنت قد زيّنت جدران البيت في لبنان بصور كبيرة له ولأخي بانتظار هذه اللّحظة، إنّهما في رأسي طوال الوقت، أنا أتحمّل مسؤوليّة العائلة بانتظار خروجهما... فكيف تأتيني شهادة وفاة أبي؟

ألست أنا ابنته الكبرى التي برّأته عندما ولدت بعد سنوات من زواجه من تهمة أنّه غير قادر على الإنجاب؟ «رفعني بيديه وهمس في أذني «أنت البنت التي برّأت أباها» ألست أنا من ستبرّئ والدها وتخرجه من عتمة الظّلم والظّلام إلى الحياة مرّة أخرى؟
هل مات أبي فعلاً؟ وفي تلك الزنازين؟ لا... لم أقبل ذلك وبكيت كثيراً وطويلاً في ذلك اليوم، وحزنت من قضاء الله. يعتصر قلبي عندما أتخيّل أنّ أبي قد تمّ إعدامه، وأنّه تحمل كلّ ذلك الألم دون أن أسمع آهاته وأنّاته. وكان حزني الأكبر على أختي وأخي الصّغيرين اللذين لم يتعرّفا على والدهما جيّداً، خاصّة أخي، فقد أصابته الكثير من الاضطرابات النّفسيّة، وكره العيش معنا نحن النّساء وصار يقول إنّه بحاجة رجال ليعيش معهم، يريد أخاً وأباً، وهذا كان سبباً في عزلته الاجتماعية عن النّاس ونزاعاته المستمرّة معي ومع أمّي. كم تعبت في تلك الفترة، كانت أختي الصغيرة تقول لي جملة: «أنت مو بابا، لا تحمّلي حالك هالدّور» لم أفهم معنى كلامها إلّا بعد حين.

فعلا حاولت أن أعوّض مكان أبي، أنا التي تعمل، وتصرف على البيت، وتتّخذ القرارات وتحلّ المشاكل، أنا الرجل في العائلة، وأنا من أهتمّ بالجميع حتّى بأمّي التي عاشت لسنوات في عالم آخر، كانت لسنوات طويلة في حالة تشبه الغيبوبة النّفسيّة، ولم تعد إلينا إلّا منذ سنتين وبدأت علاقتها معنا تتحسّن شيئاً فشيئاً. لكنّني كنت منهكة من الدّاخل، ولم أجد دوائر دعم من حولي، فالكلّ يراني ياسمين القويّة القادرة التي لا تحتاج أحداً، بينما أنا كنت بحاجة إلى كلّ الدّعم والمساعدة، بحاجة إلى «استراحة محاربة.»

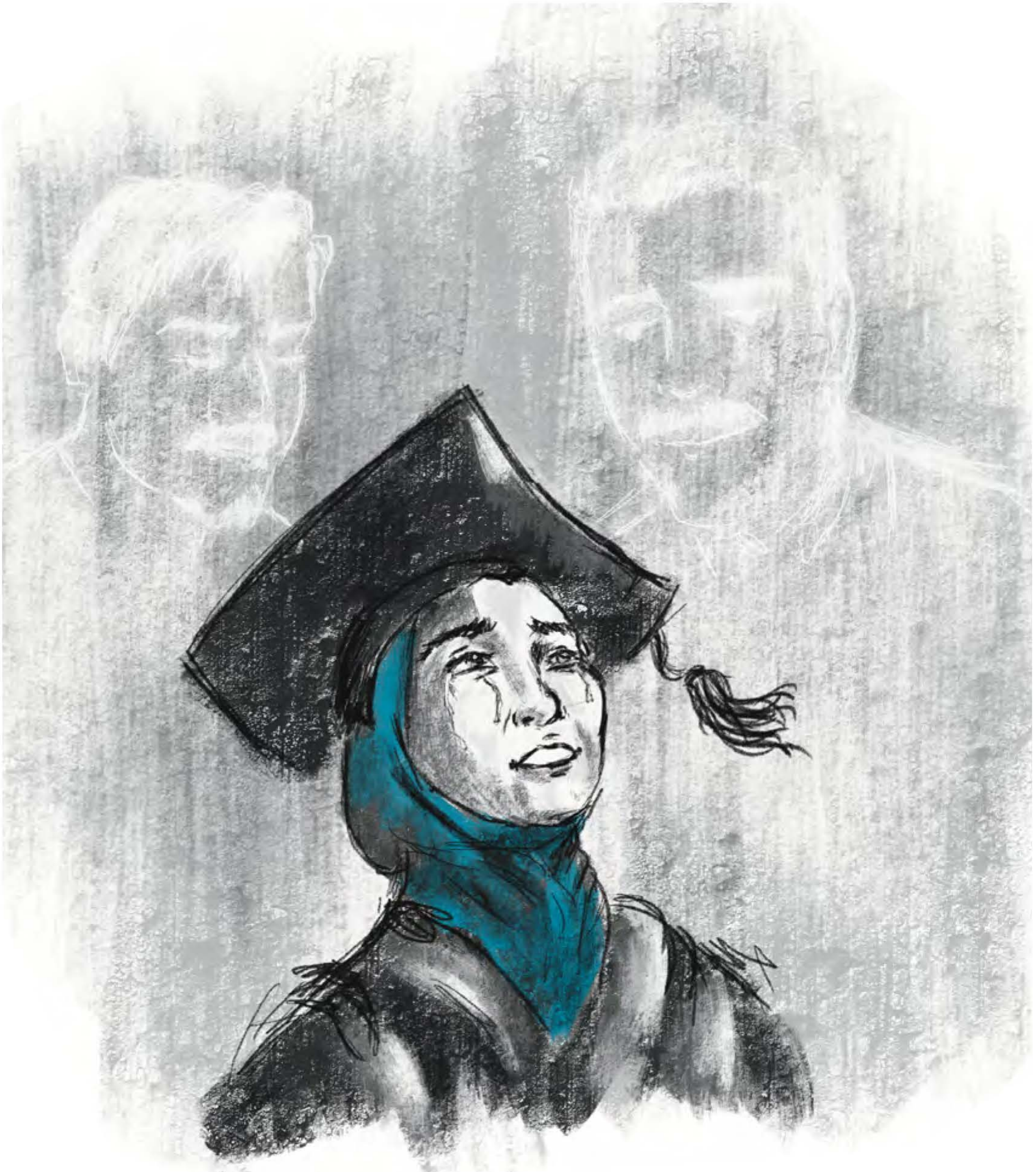
تخرجّت يا أبي

مناسبة حفل تخرّجي من الجامعة في الخامس من تشرين الأوّل/ أكتوبر عام ٢٠١٩ هي من أغلى المناسبات على قلبي. بل إنّ ذلك اليوم هو من أجمل الأيام لديّ. أقاموا لنا احتفالاً كبيراً ومنظّماً جدّاً في بيروت. أحسست بأهميّة إنجازي وأنّ كلّ التّعب والعمل والدراسة إلى جانب نضالي لقضيّة أبي وأخي قد أثمر بشيء جميل. كان هذا الحفل بمثابة جائزة لي. كنت أتمنّى أن يكون أبي حاضراً ويفرح بنجاحي ويضمّني ويفتخر بي. قرّرت وأنا في الحفل أن أتخيّله معي، كان يبكي فرحاً يقول لي «برافو عليكي ما استسلمتي، درستي مجال بتحيّه ورفعتي راسي.» ملأ اسم أبي كلّ زاوية في القاعة حين نادوا باسم «ياسمين عبد الحكيم شربجي» لأستلم شهادة التخرّج أمام كلّ الحشود. رأيت وجه أبي مبتسماً، وشعرت أنّ كلّ من في القاعة قد شعروا بوجوده أيضاً عندما أعلن اسمي الكامل.

أما قلبي فكان يحترق على أخي إيناس الذي كان حلمه أن ينهي دراسته الجامعيّة، ويتخرّج ويعيش حياته كباقي الشّباب. تخيّلته فرحاً لنجاحي، لكن مع حسرة على مستقبله الشّخصيّ.

هل تعلمين؟ على الرغم من هذا الحزن الدّائم حتّى في لحظات الفرح، إلّا أنّ غياب أبي وأخي هو ما يعطيني القوّة لأستمرّ في هذه الحياة. عليّ أن أناضل لأجلهما، حتّى أبي الذي وصلتني شهادة وفاته، لا أصدّق خبر وفاته لأنّني لا أصدّق أي شيء يصدر عن هذا النّظام. لا يمكن أن أنهار، ليس لديّ هذا الخيار أبداً. يجب أن يتذكّر الجميع أبي، وألّا ينساه أحد، لذلك أكتب عنه دائماً في الفيس بوك وأشارك في فعّاليّات الإفراج عن المعتقلين في سجون النظام دائماً من أجلهما... يجب أن يتذكّر الجميع أنّ عبد الحكيم وإيناس ما زالا موجودَين. «فالنّسيان خيانة لنضالهما، وهو ترف لا تملكه الثّائرات.»

لأجـل ذلـك قـرّرت أن أسـجّل في دراسـة الماجسـتير، رغـم أنّ دراسـتي في الجامعـة وعمـلي قـد أرهقـاني كفايـة، فالعمـل في الدّعـم النّفسي والتّعامـل مـع قصـص وتجـارب صعبـة ليـس سـهلاً عـلى الإطـلاق لكـن كما قلـت لـك سـابقاً لا أسـتطيع أن أتوقّـف، إضافـة إلى أنّ دراسـتي وعمـلي هما شـغفي وجـزء مـن قضيّـتي.



رسم تجريدي لمشهد تخرّج ياسمين ومناجاتها لوالدها وأخيها

أنا ومحاكمة أنور رسلان في كوبلنز - ألمانيا

استطعت أن أسجّل في الماجستير ودرست السّنتين بشكل كامل، حتّى جاء وقت تقديم موضوع رسالة التّخرّج، فاخترت أن تكون حول «الفقد الغامض وعلاقته بقلق المستقبل لدى زوجات المعتقلين.» هذا الموضوع كان مهمّاً لي على الصّعيد الشّخصي، فأمّي هي زوجة معتقل، إضافة إلى عملي مع زوجات المعتقلين ضمن مجموعة حركة «عائلات لأجل الحرّيّة» [lxix] من خلال «النّساء الآن» منذ عام ٢٠١٦، فقد قابلت الكثيرات منهنّ وسمعت قصصهنّ ورأيت أثر غياب أزواجهنّ عليهنّ. قالت لي مشرفتي التي وافقت مباشرة على الموضوع إنّ هذا الموضوع جديد كليّاً عليها، وإنّها متحمّسة جدّاً لما سأكتبه. أفرحني ذلك حينها كثيرًا... لكن هذه الفرحة لم تكتمل...

تلقّيت دعوة لحضور ورشة حواريّة مع ICMP [lxx] كممثّلة عن «عائلات لأجل الحرّيّة - فريق لبنان. قدّمت على الفيزا وحصلت عليها بسرعة، إذ نبّهتني آ. خ أنّ تقديم إثبات أنّي أدرس في الجامعة سيفيد في الحصول على الفيزا لأنّه دليل على عودتي، وبالفعل جاءتني الفيزا بعد خمسة أيّام من المقابلة. كان زمناً قياسيّاً لاستلام الفيزا، وفرحت لذلك.

سافرت إلى ألمانيا في الشّهر الأول من عام ٢٠٢٢، وبينما كنت هناك، علمت بمحاكمة أنور رسلان، ضابط سابق في المخابرات السّوريّة في كوبلنز. [lxxi] قرّرت الذّهاب إليها، فهذا حدث استثنائيّ ويعني لي الكثير. حاولت هناك ألّا أظهر على الإعلام قدر المستطاع خوفاً من أن يمنعني الأمن العامّ اللّبناني من العودة إلى لبنان بسبب ارتباطه الوثيق بالنّظام

---

lxix نحن حركة عائلات سورية، سلب منها أحبابها سجناً واعتقالاً، تقودها نساء سوريات ونحن مصممون على الوصول إلى أهدافنا. كونوا معنا
نحن عائلات سورية تطالب بالحرية لجميع أبناء وبنات سوريةمئات الآلاف من السوريين معتقلون أو مختفون، معظمهم اختفى على يد النظام السوري، هم أبناؤنا وبناتنا، هم فلذة أكبادنا، زوجات وأزواج وأباء وأمهات، لم يرفعوا السلاح واتخذوا السلمية سبيلاً. نحن نقف ضد الاختفاء القسري والاحتجاز التعسفي الذي يرتكبه النظام وعدد من أطراف النزاع، نريد أن نحشد الوعي الشعبي للضغط على جميع الأطراف للامتثال لمطالبنا. لن تتوقف حركتنا حتى يتم إطلاق سراح كل سوري وسورية.سنعمل على توسيع حركتنا لتشمل كل عائلة لديها شخص مفقود أو محتجز، بعض النظر عن العرق والدين والمعتقد السياسي. لقد حاولوا اخافتنا وترهيبنا، قيل لنا أن نصمت، ولكن لن يتم اسكاتنا، إننا نصرخ في وجه هذا العالم الظالم نطالب بعودة أحبابنا. من موقع عائلات من أجل الحرية

lxx International Commission on Missing Persons

lxxi قضت محكمة ألمانية على العقيد السوري السابق أنور رسلان بالسجن المؤبد لارتكابه «جرائم ضد الإنسانية» في سجن سيء السمعة في دمشق.
وارتبط اسم رسلان بتعذيب ٤٠٠٠ شخص خلال الحرب السورية. وتعد هذه المحاكمة، التي تمت في مدينة كوبلنز، أول قضية جنائية ترفع بشأن عمليات التعذيب تتهم مسؤولو الحكومة في سوريا بتنفيذها.

والأمـن السّـوريِّين. كانـت هنـاك لحظـة لـم أسـتطع فيهـا ضـبـط نفـسي، فعـلى الرغـم مـن سـعادتي بمحاكمـة أنـور رسـلان، إلّا أني كنـت أرى كيـف يقـف بملابسـه النّظيفـة في أرقى قاعات المحاكمات الأوروبّيّة، وكيف تتمّ معاملته بكلّ إنسـانيّة،[lxxii] بينما أبي وأخي في زنازين الظّلام لا أدري مـا هـي حالهمـا. انفجـرت باكيـة، وهجمـت علـيّ وسـائل الإعـلام لتوثـق تلـك اللّحظـة، وبعد قليـل أرسـلت لي إحدى الزميلات في منظّمة «النّساء الآن» صورتي على محطّة MTV اللّبنانيّـة، إضافـة إلى الصّـور الـتي انتشرت في صحـف عالميّـة كاللّومونـد الفرنسـيّة وصحـف ألمانيّـة والغارديـان ونيويـورك تايمـز.[lxxiii]

عدت إلى لبنـان ويدي عـلى قلبي خوفاً من أن يتمّ اعتقـالي، لكنّ شـيئاً لـم يحـدث في المطـار. في اليـوم التّـالي اتّصلـت بي صديقـة كانـت تـدرس معـي في الماجسـتير، وسـألتني ثلاثـة أسـئلة: مـاذا فعلـتِ؟ مـا هـو نشـاطك في لبنـان؟ لمـاذا لـم تخبريـني أنّـك ذاهبـة إلى ألمانيـا لحضـور محاكمـة أحـد أتبـاع النّظـام السّـوري؟ كانـت أسـئلة صادمـة لي، أخبرتهـا أنّي لـم أفعـل شـيئاً، وأنّ مـا أقـوم بـه في البقـاع هـو نشـاط يصـبّ في موضـوع رسـالة التّخـرّج، وأنّ ذهـابي إلى ألمانيـا كان لأمـر آخـر. سـألتني عـن عمـلي مـع عائـلات مفقـودي لبنـان، فلـم أنكـر ذلـك، فلـديّ أب وأخ معتقـلان، ومـن الطّبيـعي أن أتواصـل مـع المجموعـات الـتي لديهـا نفـس الاهتمـام. صديقـتي قالـت كلّ هـذا لتحميـني، فهـي لديهـا أصدقـاء في الأمـن اللّبنـاني، أخبروهـا أنّ ملفّـي الآن تحـت المجهـر، وأنّهـم يقومـون بنبـش كلّ التّفاصيـل المتعلّقـة بنشـاطاتي في لبنـان.

لـم تتوقّـف عواقـب ظهـوري في الإعـلام اللبنـاني هنـا، فالكفيـل أخبرني أنّـه شـاهدني عـلى التلفـاز وأنّ كفالتـه لي سـتضرّه وعائلتـه، لأنّـه يعمـل في إحـدى مؤسّسـات الدّولـة اللّبنانيـة. تمـنّى أن يتـمّ الإفـراج عـن أبي وأخي، لكنّـه اعتـذر عـن الاسـتمرار في كفالـتي.

كنـت مصدومـة مـن كلّ ذلـك وحائـرة، فبعـد أنّ كـدت أنهـي دراسـتي، وبعـد أن أصبحـت إقامـتي نظاميّـة في لبنـان يحصـل كلّ هـذا معـي؟ مـا العمـل؟ قالـت لي أمّـي وكذلـك إخـوتي إنّـه علـيّ

---

lxxii فديو تمّ تصويره أمام المحكمة وتظهر فيه ياسمين.

lxxiii https://www.theguardian.com/global-development/2022/jan/13/jailing-former-syrian-secret-police-officer-anwar-raslan-germany-first-step-justice
https://apnews.com/article/middle-east-syria-crime-state-courts-bashar-assad-67b9db9f198e47daaa8b-9b062a064b73
https://www.nytimes.com/live/2022/01/13/world/syria-war-crimes-germany-verdict

الخروج من لبنان وبسرعة، وصديقتي طلبت منّي ذات الشّيء، بل إنها طرحت فكرة إمكانيّة أن يقوم الأمن اللّبناني بترحيلي إلى سوريا.

للمرّة الثانية، عليّ أن أغادر من مكاني بالإجبار [بكاء]، لا أريد أن أترك جامعتي وأهلي وعملي، من سيصرف على أمّي وإخوتي؟ كيف سأكمل رسالة التّخرّج؟ لمن سأترك الفريق الرّائع الذي أسّسته مع حركة عائلات من أجل الحرية والنساء الآن، وعملي بشغف معهم؟ لكن لم يكن لديّ خيار آخر، بل كان عليّ أن أحسم أمري في وقت قصير، إذ إنّ الفيزا إلى ألمانيا تنتهي بعد عشرين يوماً.

الدّخول إلى عالم جديد ... ألمانيا

قرّرت أن أقدّم طلب لجوء في مطار ألمانيا، طلبت من العاملين هناك مكاناً هادئاً أتحدّث فيه عن وضعي. قالوا لي إنّ عليّ إقناعهم بسبب تقديمي على اللّجوء وإلّا ستتمّ إعادتي إلى بيروت. انتابني خوف شديد وجاءتني الدّورة الشّهريّة علماً أنّه لم يكن ميعادها. طلبت منهم مشروباً ساخناً لتخفيف الألم فأعطوني مياهً ساخنة وأحضروا مترجماً وبدأوا معي تحقيقاً استمرّ لمدّة ستّ ساعات، حتى جاء المسؤول عنهم فقال لهم إنّه لم يكن هناك داعٍ لكل هذا التّحقيق، فيكفي أنّي قد حضرت المحاكمة التي تمّت في كوبلنز وانتشرت صورها في الإعلام، وأنّ أبي وأخي معتقلان في سجون النّظام السّوري. ارتحت كثيراً عندما سمعت ذلك الكلام، وأردت أن أقول له بالعربيّة « يقبرني اللي خلقك» [ضحك].

تمّ تحويلي إلى «كامب» مركز إيواء للمتقدّمات والمتقدّمين على اللّجوء، وكان في منطقة «آيزن هوتن شتات». وبدأت مرحلة التّعرّف على عالم جديد فيه أناس من مختلف الجنسيّات، طبيعة رائعة، هدوء شديد لم أعتد عليه سابقاً. أنا وحدي، غادرت سوريا إلى لبنان وحدي، وها أنا الآن سأبدأ مغامرة جديدة وحدي أيضاً. سألت نفسي كثيراً إن كنت ما أزال أملك الطّاقة والصّبر لمعاناة جديدة، خاصّة أنّ جميع من سألتهم وسألتهنّ قالوا إنّ السّنة الأولى بعد تقديم اللّجوء هي الأصعب، فهل سأتحمّل كلّ هذا؟



رسم تجريدي لمشهد التحقيق مع ياسمين في المطار

الغرف في هذا المركز مشتركة، فيها أسرّة، سأنام على سرير بعد أن اعتدت النّوم على الطرّاحات لسنوات طويلة، إنّه شيء جميل، لكنّ السرير والغرفة والحمامات المشتركة غير نظيفة وعليّ التأقلم مع ذلك. اضطررت إلى الوقوف في طابور طويل كلّ يوم للحصول على وجبات الطّعام، كنت أنتحب في داخلي، فهذا ذلّ بالنّسبة لإنسانة حرّة، أن أنتظر ساعة كاملة كي يقدّموا لي وجبة طعام. لم أعتد على ذلك، ولكن قرّرت أن أصبر وأتأقلم. في الغرفة، كنت مع عائلة فيها شباب يافعون فاضطررت للبس الحجاب على مدار أربع وعشرين ساعة، وعندما شكوت وضعي إلى المسؤولة قالت لي إنّه من الأفضل خلع الحجاب. كم صدمني هذا الجواب، بدل أن تنقلني إلى غرفة فيها نساء تطلب منّي بكلّ بساطة أن أخلع الحجاب، لم أناقشها وتحمّلت الوضع.

قابلت الكثير من النّساء والرّجال من جنسيّات وثقافات مختلفة، ولسبب ما، صرت أنا الشّخصيّة التي يلجؤون إليها لتفريغ همومهم وهمومهنّ، دفعني ذلك لأعتبر ما أعيشه وأفعله رسالة عليّ تأديتها مع أناس بحاجة للمساعدة. كنت منهارة في داخلي، لكنّ كلمات الدّعم والشّكر التي سمعتها، وخاصة من النّساء، أعطتني بعض القوّة، حَمتني من انهيار وشيك. كانت جملتي الدّائمة التي ردّدتها بصمت «أريد أن أخرج من كلّ تحدٍّ بأقلّ الخسائر النّفسيّة الممكنة»

انتقلت بعد شهر ونصف إلى مركز آخر في «فينزدورف»، وكان أفضل من سابقه بكثير من ناحية النّظافة. تعرّفت هناك على أناس جدد، خاصّة من إيران والعراق. كان لديّ خوف كبير من التّحدّث مع الإيرانيّين والإيرانيّات، فقد شاركت قوّاتهم العسكريّة في قتل ناسي وجيراني في داريّا، لكن أدركت أنّ الشّعب لا يشبه حكومته. أخبروني عن الظلم والقمع في إيران، وعن معاناة النّساء والرّجال هناك. تغيّرت الصّورة النّمطيّة التي كنت قد رسمتها سابقاً عن شعب إيران، ونشأت علاقة صداقة مع بعضهم وبعضهنّ، وخضنا أحاديث سياسيّة معمّقة وحقوقيّة، وهذا كان مصدر متعة بالنّسبة لي. كوّنت كذلك نوعاً من الصداقة مع امرأة يزيدية من العراق تعرّضت للكثير من الصدمات، اعتبرتني مرشدة لها، أسمعها وأنصحها، وصرنا صديقتين بعد ذلك.

أعجبني هذ المركز كثيراً، علماً أنّ الناس هناك شبّهته بالسّجن، كنت أستهزئ من هذا التّشبيه خاصّة كلّما تذكّرت سجون سوريا ومعتقلاتها. أكثر ما لفت نظري هو أنّ هناك إمكانيّة أن تقومي بعمل في المركز بناءً على خبراتك، وتأخذي أجراً عليه بحسب عدد السّاعات التي تعملين فيها. لم أسمع عن مثل هذه النّشاطات في مراكز أخرى، لذلك اعتبرته امتيازاً. عملت لبعض السّاعات يوميّاً مع الأطفال، أرسم وألوّن معهم، وزميلتي التي كانت خبيرة في قصّ الشّعر وترتيبه عملت أيضاً في مجالها. جعلتنا هذه الأنشطة نحسّ أنّنا فاعلات ولسنا هنا فقط أرقاماً تنتظر قراراً من الحكومة، تأكل وتنام ولا تقوم بشيء آخر. كانت هناك أيضاً فرصة لتعلّم هوايات جديدة، فأخذت دروساً للعزف على البيانو والجيتار، وصرت أدندن على الجيتار في أوقات فراغي. أعجبني كذلك وجود مصلّى، كنّا نصلّي فيه صلاة جماعة، لأنّنا كنّا في شهر رمضان في ذلك الوقت.

صدر قرار لجوئي وأنا في هذا المركز، بعد أربعة أشهر من تقديمي على اللّجوء حصلت على لجوء سياسيّ في ألمانيا في وقت قياسي مقارنة مع باقي النّاس. لذلك كان عليّ الانتقال إلى مكان جديد، ودّعت كلّ من قابلتهم وقابلتهنّ في ذلك المركز وعشت أيّامي معهم ومعهنّ، بكينا كثيراً في الوداع وقرّرنا أنّ نبقى على تواصل لنطمئنّ على أخبار بعضنا البعض.

تمّ نقلي إلى ما يسمّى ب»الهايم«(مخيّم اللجوء في ألمانيا)، وهنا تغيّرت الحياة: أوّلاً هناك مصروف شهري بسيط، ولكن أستخدمه لشراء طعامي وحاجياتي، أي إنّني لست مضطرّة بعد الآن للوقوف في صفّ طويل للحصول على وجبة يطبخها لي أحد ما. الأهمّ من ذلك، أنّ لديّ غرفتي الخاصّة. بداية كرهتها فهي وسخة وتملؤها الحشرات ولا يوجد ستائر للشّبّاك. نظّفتها جيّداً، اشتريت السّتائر، عانيت من الحشرات كثيراً خاصّة في الصّيف، وتمّ نقلي مرّة إلى المستشفى بسبب اللّسعات الكثيرة، لكنّني تخلّصت من معظم الحشرات بعد ذلك وتأقلمت مع بعضها. علّقت صورة أبي وأخي على الحائط كي أحسّ ببعض الألفة في تلك الغرفة. تمّ نقلي إلى غرفة أخرى بسبب تحسّسي الشّديد من الحشرات، أعطوني ثلّاجة وخزانة، طبعاً ما زال الحمّام والمطبخ مشتركين، لكنّ المهمّ أنّني أصبحت في غرفة لي وليس فيها حشرات.



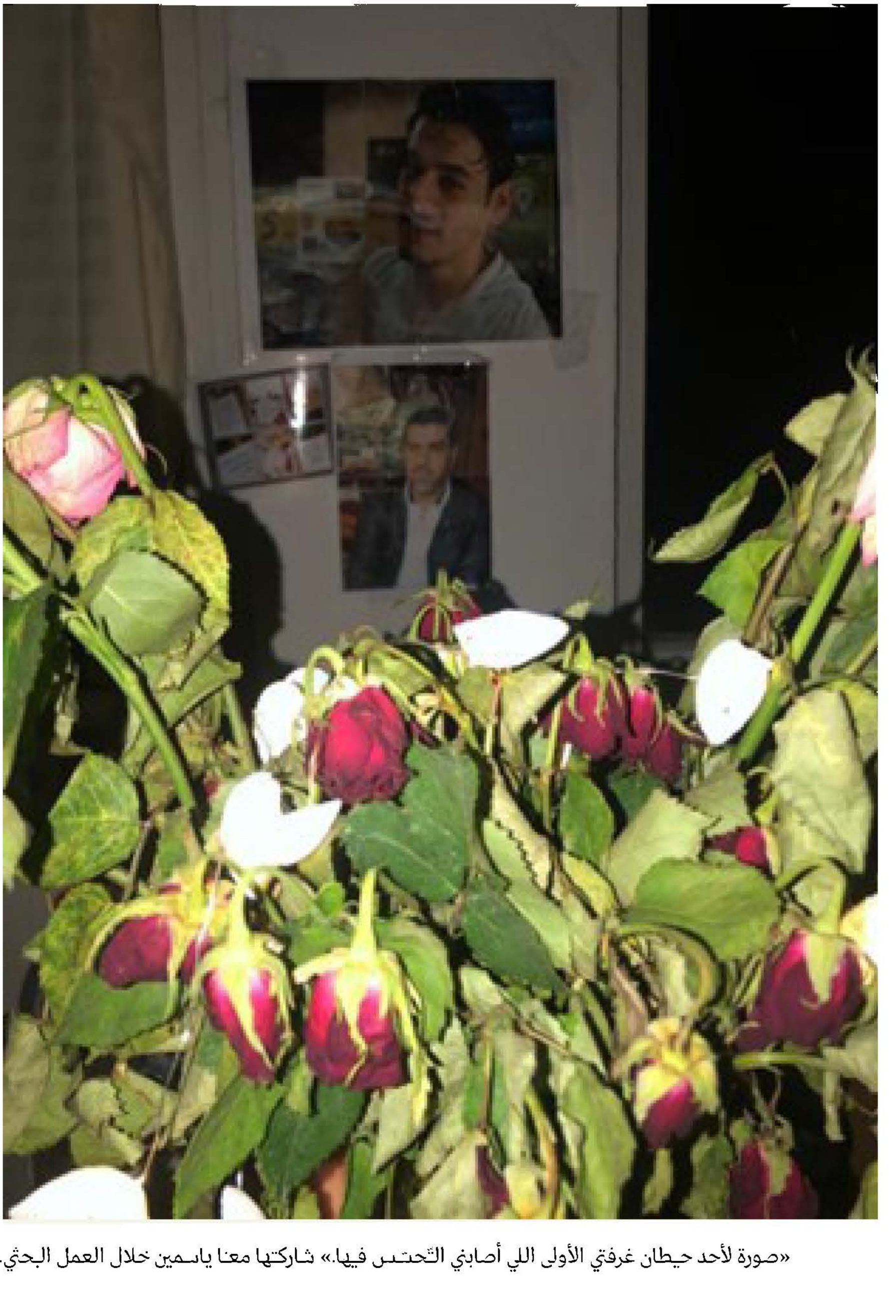
«هي الوردة الها دلالة كبيرة عندي اشتريتها أوّل ما دخلت ألمانيا وسمّيتها عيلتي وصرت أعتني فيها دوماً وجابت معي كلّ رحلتي باللّجوء وضلّت صامدة وإلى الآن ما تزال عندي، وهون حاطّتها ع نافذة غرفتي بمخيّم اللجوء.»

صورة شاركتها معنا ياسمين خلال العمل البحثي.



«صورة لنشاطي بمدرسة اللّغة الألمانيّة لنحكي فيه عن بلادنا»، شاركتها معنا ياسمين خلال العمل البحثي.

زيّنت ورتبت الغرفة كي تشبهني، ولأعكس شخصيّتي عليها وأحسّ بالألفة فيها. علّقت صور أبي وأخي مرّة أخرى، علم الثّورة، أوراقاً للمفردات والجمل الألمانيّة الّتي أتعلّمها، وورقة امتنان أكتب فيها كلّ يوم أشياء أمتنّ لها. أقوم بذلك لأخفّف من السّخط الذي أشعر به كلّما فكرت بما حصل لي ولعائلتي؛ اعتقال أبي وأخي، مجزرة داريّا، خروجي من سوريا، الضّغط في لبنان، وضع أهلي، عدم إكمال دراستي وإجباري على الخروج من لبنان وحدي.



«صورة لأحد حيطان غرفتي الأولى اللي أصابني التحسس فيها.» شاركتها معنا ياسمين خلال العمل البحثي.



«صورة للنّافذة في غرفتي، حظيت لوحة وصلتني هدية من أصدقائي وصديقاتي بمناسبة عيد ميلادي.»
شاركتها معنا ياسمين خلال العمل البحثي



الطّاولة في غرفتي» اعملتها وهيك كنت آكل وحطّ صور عيلتي عالطاولة لحتّهم معي وأنه الثورة وسوريا وقرآني وفنّي معي أيضاً.»شاركتها معنا ياسمين خلال العمل البحثي.



«هون عزمت حدا من رفقاتي ع غرفتي التانية وعملت أكل، ولكن اضطريت غبّش صورة الأشخاص.» شاركتها معنا ياسمين خلال العمل البحثي.

بدأت أمتنّ أنّني في مكان آمن، أتقدّم فيه خطوة تلو أخرى، أدرس اللّغة، وليس لديّ عمل فيه ضغوطات نفسيّة... أذكّر نفسي دائماً أنّ كلّ ما أكتسبه من خبرة ومعرفة يجب أن يصبّ في سوريا يوماً ما.

ليس لي وطن إلّا سوريا، أنا ابنة سوريا [بكاء] تركتها مجروحة وتعيسة ومدمّرة، أنظر إلى جمال الطّبيعة هنا في ألمانيا وتنظيم المدن، وأسمح لنفسي بالاستمتاع بكلّ ذلك، شرط أنّ أساهم في بناء سوريا لها نفس الجمال والهدوء والتّنظيم. أنا ممتنّة لألمانيا لما أعطتني إيّاه من معاملة إنسانيّة مقارنة بالذلّ والقهر اللذين تعرّضت لهما في سوريا ولبنان، لكن أنا لا أفكر إلّا أنّني سأعود إلى بلدي سوريا الذي فيه قطعتان من قلبي.

ماذا حصل لبيتي في داريّا؟

لم يعد هناك بيت ولا جدران ولا حجارة ولا شجر، تمّ نسفه من قبل قوّات النّظام عن بكرة أبيه، هو وكلّ البيوت في منطقة الخليج في داريّا باستخدام قنابل ناسفة...

أمّا الأرض، فهي من حقّنا، لكنّ قوانين النّظام السّوري تلغي حقوق المعتقلين في الحفاظ على ملكيّاتهم، وهذا ما يقهرني كثيراً... لا بيت لي إن عدت إلى سوريا. هذا النّظام اعتقل أبي، أعطاني شهادة وفاة له وبالقانون يجب أن نكون قادرين على استرجاع ملكيّة الأرض على الأقلّ، لكن في سجلات النّظام ما يزال أبي معتقلاً وحتى لو توفّي وأصدروا شهادة وفاة له، فهو ما زال يُعتبر معتقلاً لديهم، ولا تجوز لنا المطالبة بأيّ أملاك باسمه. ذهب عمّي وسأل عن ملكيّة البيت، فقال له موظف الحكومة: «إنّ اسم أخيك مسجّل لدينا على أنّه ما يزال معتقلاً، فإن طالبت أنت أو أحد أفراد أسرته بأملاكه سيتمّ اعتقالكم جميعاً، وإنّ شهادة الوفاة هي حبر على ورق.»

لذا أنا لا أصدّق أبداً صحّة شهادة الوفاة التي أعطوني إيّاها، وأعرف أنّهم استخرجوا أكثر من شهادة وفاة للمعتقلين من داريّا لإسكات أهلها عن المطالبة بهم.

حوار مع البيت... وعدالتي

شكراً يا بيتي... لقد صنعتني، صنعت ياسمين الإنسانة ذات القلب الكبير، شكراً لهالتك الملائكيّة التي غمرتني بالأمان والسّلام لسنوات طويلة. كنت فقيراً ومتواضعاً وجدرانك تتشقق كلّ فترة لأنّ أرضك زراعيّة، أمّي تطلب من أبي أن يقوم بتحسين حالتك ودهنك وأبي يماطل أو يؤجّل ثمّ يقوم بذلك. شكراً لكلّ تلك الحوارات والنقاشات التي دارت بينهما لأجلك. شكراً لأنّك احتويت هذه العائلة المتواضعة المميّزة ذات القلوب النّظيفة[بكاء] يوجعها وجع النّاس وتسعى جاهدة للمساعدة دائماً علّ الله يعوّضها خيراً يوماً ما...

أمّا العدالة... انظري إلى خاتمي الذي أرتديه، تمّت صياغته من طلاء عادي وطلبت أن تُحفر عليه كلمة «عدالة»... العدالة لها القيمة الأكبر في حياتي. من يعرفني عن كثب يعرف كم تعني لي العدالة، أحاول تطبيقها في كلّ تصرّف أقوم به، فأخفق أحياناً وأنجح أحياناً أخرى.

العدالة أن نأخذ حقّنا في الحرّيّة والكرامة أفراداً وجماعات

العدالة هي أن يعيش الإنسان كما يريد، لا أن يتمّ تنميطه وقولبته من قبل المجتمع ورجال الدّين والسّياسيّين.



خريطة المكان باستخدام غوغل إيرث عام ٢٠٢٢

العدالة هي أن نعيش أنا وإخوتي مع أبينا وأخينا، أن يخرج إيناس من المعتقل ويدرس في الجامعة ويحبّ ويخطب المرأة التي يريدها. ألّا نتعرّض للذلّ، ويكون لنا بيتنا الذي عشنا وتربّينا فيه، ولا نتعرّض للمواقف البشعة كتلك التي عشناها في لبنان. [بكاء]

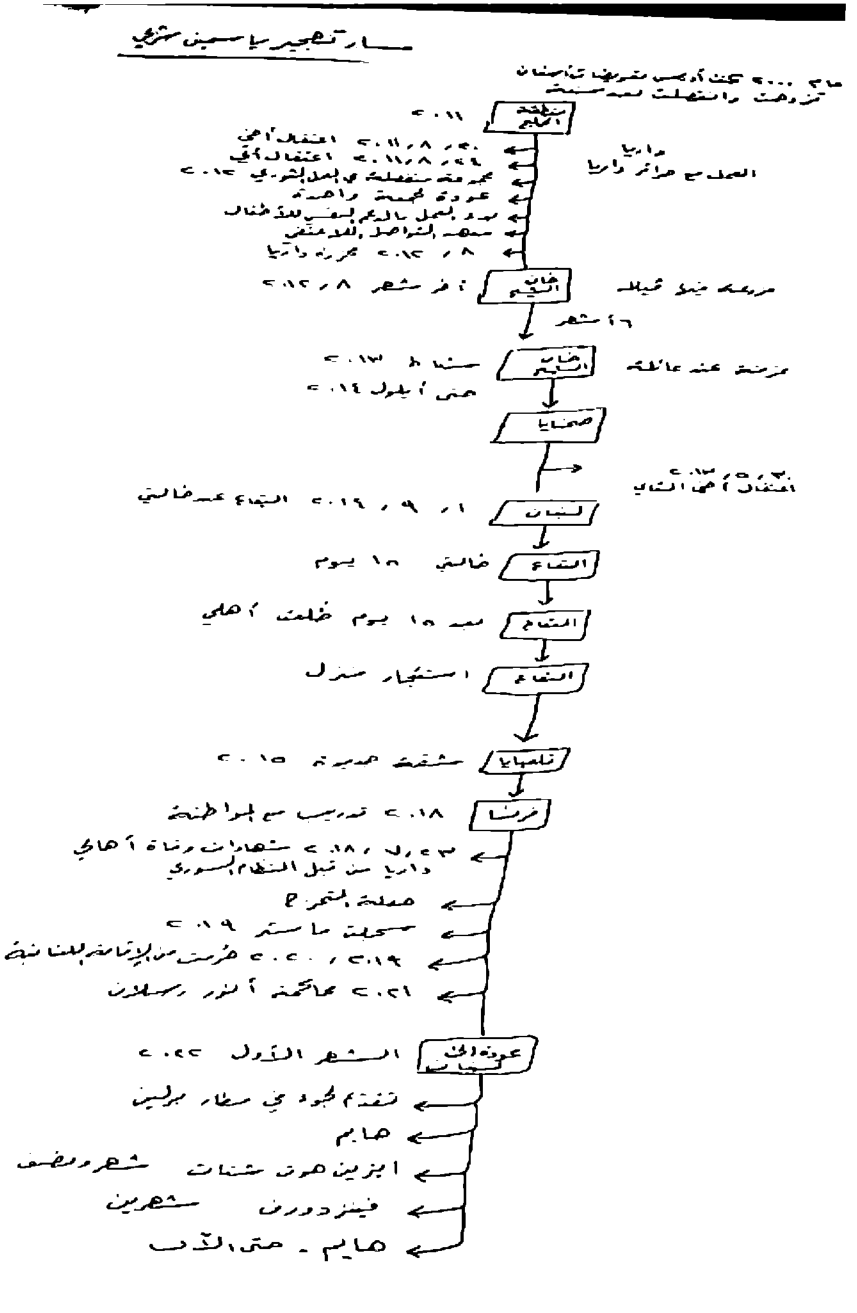
العدالة أن يسمع النّاس معاناتي، ألّا يتّهموني بممارسة وتجسيد دور الضّحيّة كلّما تكلّمت عمّا حصل لي ولعائلتي، أن يتمّ تقديري على كلّ ما فعلته وكلّ ما قدّمته، أن يفهمني النّاس ويفهموا طموحي، بدلاً من أن يطلبوا منّي تخفيض مثاليّتي وسقف توقّعاتي.

العدالة هي أن أرتاح بعد كلّ هذا التّعب، أن أجد متّسعاً من الوقت لأراجع كلّ ما حدث معي، أن يتمّ دعمي لأكمل دراستي. أحسّ ببعض العدل هنا في ألمانيا، فأنا في بلد يصرف عليّ لأدرس لغته ويطلب منّي أن أعمل لاحقاً. مقارنة مع لبنان هذه عدالة، فلقد نحتّ الصّخر هناك ليتمّ قبولي في الجامعات ولآخذ إقامة مؤقّتة في البلد، وعملي هناك اعتبروه جريمة. أريد أن أرتاح قليلاً، نعم، قال لي أبي مرّة: أنا من أولي العزم، وأنا أقول له إنني ما زلت ذات عزيمة، لكنّني تعبت يا أبي.



صورة لخاتم ياسمين، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.

مسار تهجير ياسمين شّربجي حتّى تاريخ رواية قصّتها



اسمي سمـيـــّـة خـــولانــــــي ...

تاريخ سرد القصّة: تموز/ يوليو ٢٠٢٢

أنـا والـمـكان عندمـا كنّا سـويـــــة
أنـا وحارتــــي ومدرســــة الإبـــــاء
أنـا ... عنـدمـــا بـدأت الثّـورة في سوريـا
وارتكبـــوا مجـــــزرة داريــّـــا...
فــــراق أخـــــــــي (أبي راشـد)
حـصـــارنـا... حـصـــار داريـــّـــا
جـاء ســـرب من الطّيــور المهـــاجـــرة
من إدلـــــب إلـى تركيـــا...رحلة المآســي
لا راحــــة أو سكينــــة إلّا في تـلك الأرض
مســار تهجيـر سميّــة خــولانــي
حتّى تاريخ رواية قصّتها

أنا والمكان عندما كنّا سويّة

أنا من مدينة داريّا وعمري الآن سبع وعشرون سنة. كانت دراستي في مجال علم الأحياء في جامعة دمشق، لكنّني لم أستطع إكمالها بسبب حصارنا في داريّا ومنع الحواجز العسكريّة لأهالي داريّا من الذّهاب إلى دمشق. في داريّا استطعت متابعة الكثير من الدّورات والتّدريبات عن طريق الإنترنت، لم أحصل على أيّة شهادات من خلالها، لكنّها زادت من خبرتي في مجالات عدّة منها تدريبات حول تعديل السلوك النفسي للأطفال والدعم النفسي للنساء المحاضرات وعلى اللّغة الإنجليزيّة.

أنا الآن في تركيّا، عملت لفترة في مجال تمكين المرأة ودرّست اللّغة الإنجليزية للنّساء. بعدها سجّلت في جامعة الأناضول، اختصاص الإلهيّات، وأنا أدرسه حاليّاً، إلى جانب عملي كمعلّمة للّغة العربيّة في مدرسة دوليّة.

وُلدْتُ وعشْتُ في داريّا في منطقة «الخولاني»، المسمّاة بهذا الاسم نسبة لأجدادي، إذ يعود نسبنا لأبي مسلم الخولاني الذي دُفن في داريّا. كنت أسكن في شارع اسمه شارع الباسل، بجانب مدرسة الإباء- التي هي ملك مشترك لأبي وعمّي- مقابل مشفى الرّضوان. إنّه شارع مفعم بالحيويّة، ففيه مدارس ومحلّات كثيرة، ويعيش فيه كلّ أعمامي.



خريطة المكان باستخدام غوغل إيرث عام ٢٠١١

سأصف لكِ بيت أهلي قبل أن يقوموا بتجديده وترميمه؛ هو بيت فيه ثلاث غرف، ومطبخ وحمام و»أرض ديار» كبيرة لعبْتُ فيها مع أخي «الذي استشهد» كرة القدم مراراً وتكراراً. كانت عائلتي تسمّيني «حسن صبي» لأنّني أحبيْت كرة القدم ولعبت كثيراً على الدّراجات مع أخي الأصغر. أمّا الحديقة، فكنْتُ أنا وأخوتي نلعب فيها كلّ وقت الظّهيرة من كلّ يوم تقريباً، نحفر التّراب، نبحث عن دود الأرض [ضحك]، نتسلّق الأشجار التي تملأ الحديقة. عندما قام والدي بترميم البيت أُلغيت الحديقة وأصبح للبيت طابقٌ ثانٍ.

في ذلك البيت كنْتُ سميّة، الطّفلة التي ليست لديها أيّة مسؤوليّة سوى الدّراسة والتّفوّق، باستثناء مساعدتي لأمّي أحياناً في بعض أعمال البيت كالجلي مثلاً [ضحك]. كنت أدرس في معظم الأوقات أو ألعب في البيت أو في ساحة المدرسة التي امتلكتْها عائلتي كما ذكرت.

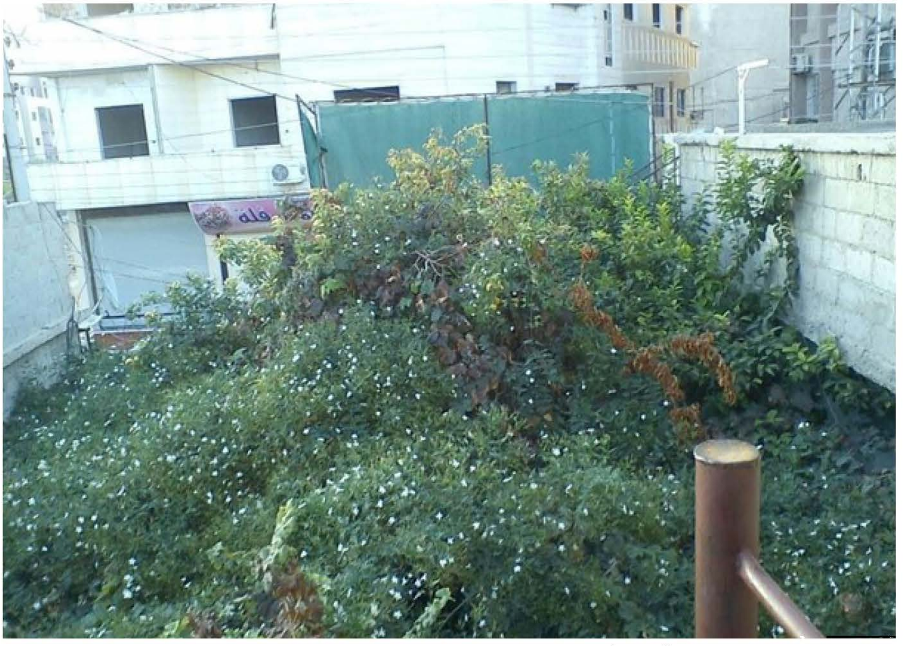
كانت غرفتي في الطّابق الأوّل، كان اسمها «غرفة البنات»، سجّادها خمريّ اللّون وأرائكها زهريّة وكذلك السّتائر. كنتُ أُمضي أوقاتاً طويلة في تلك الغرفة، أشاهد أفلاماً أو أدرس. أمّا في الليل فكنْتُ أذهب إلى المطبخ وأدرس هناك كي لا أزعج أخواتي النّائمات. قضيتُ الكثير من اللّيالي في ذلك المطبخ الذي أحببته كثيراً وشربت فيه الكثير من القهوة مع أنّني كنتُ صغيرة.

عند الخروج من غرفتي كان يمكنني أن أختار واحداً من ثلاثة أدراج، أحدها داخليّ يصل بين غرفتي والصّالون، أمّا الدّرجان الآخران فخارجيان، أحدهما يُطلّ على الشّارع والآخر

يطلّ على أرض الدّيار وله شكل دائريّ. عندما كنت أقف في أوّل الدّرج الدّائريّ وأنظر إلى الأسفل، أرى جنّة من اللّون الأخضر، تتشابك فيها عرائش العنب مع نبتة الياسمين. في مرّات كثيرة كنت أقف في أوّل الدّرج متأمّلة لهذا الجمال، أنظر إلى أشجار الأكّدنيا واللّيمون الّتي ملكنا منها ثلاثاً. اعتادت أمّي في موسم زهر اللّيمون أن تطبخ لنا «ألماسيّة» حيث تمزج الحليب والنّشاء مع ورق وزهر اللّيمون...كان للألماسيّة طعم ورائحة مميزة جدّاً.



صورة لساحة البيت (أرض الدّيار) من الدّرج العلوي في بيت سميّة. شاركتها معنا خلال العمل البحثي.



صورة أخرى لأرض الدّيار من الدّرج العلوي في بيت سميّة، شاركتها معنا خلال العمل البحثي.

كانت غرفة الضّيوف من أحبّ الأماكن على قلبي أيضاً، لها لون أخضر كلون العشب، لا أدري تماماً ما اسم هذا اللّون، لون يبعث الرّاحة في النّفس. كنت أنتظر الأعياد لأساعد أمّي في تنظيف تلك الغرفة بالذّات، أشغّل المكنسة الكهربائيّة وأفرّغ كلّ طاقتي في تنظيف الأرائك، بل أحسّ بالسّعادة عندما تصبح نظيفة وخالية تماماً من الغبار... كلّ ذلك اختفى، الأرائك، التّنظيف والشّعور.

آخر مرّة اجتمعت فيها العائلة الكبيرة في بيت أهلي كانت قبل العيد الكبير (عيد الأضحى)، قبل مجزرة داريّا عام ٢٠١٢. كان موسم «المكدوس»، اجتمعت معظم نساء عائلة أمّي في أرض الدّيار في بيتنا. سهرنا حينها حتّى السّاعة الثّانية فجراً. كان الجوّ لطيفاً وفيه نسمة رطبة. ساعدتهنّ في تكسير الجوز وأكلت الكثير منه، قالت لي أمّي أكثر من مرّة أن أتوقّف عن أكل الجوز كي يتبقّى ما يكفي لحشوة المكدوس، لكنّني استمرّيت في العمل والأكل [ضحك]. جهزّت أمّي كمّيّة كبيرة من المكدوس، ليس لأهل البيت فقط، بل لجدّي وجدّتي اللّذين كانا ينويان السّفر إلى السّعوديّة، ولأصدقاء أخي في الجيش الحرّ أيضاً... كان هناك الكثير من المكدوس في «القطرميزات»...لكنّ المفارقة أنّنا لم نأكل أيّة قطعة منها... فقد اقتحم جيش النّظام السّوريّ البيت بعد أيّام وخرجنا كلّنا منه.

أنا وحارتي ومدرسة الإباء

كان باب بيتنا (باب الزّقاق) وباب بيت عمّي يطلّان على حارة صغيرة أو مدخل، لعبنا فيه كثيراً أنا وإخوتي في طفولتنا. وكانت دوالي العنب التي في بيتنا فاردة أوراقها وجمالها على ذلك المدخل، ومتسلّقة من ناحية أخرى على الجدران حتّى سطح البيت. عندما أخرج من ذلك المدخل أصبح مباشرة أمام محلّ لبيع الورود، اشتريت من ذلك المحلّ الكثير من الأزهار والورود لأزيّن بها المدخل يوماً، احتفالاً بعودة أبي من الحجّ. استخدمت أيضاً شجرتي السّرو اللتين كانتا على الطّرفين وصنعْتُ بينهما قوساً من الأزهار، وصادف حينها هطول بعض الثّلوج فكان المنظر بديعاً.

اعتباراً من المحلّ تبدأ الحارة الرئيسية؛ على الرّصيف من جهة اليمين هناك بيت أحد أعمامي، لهذا البيت بوابة قديمة من الخشب وعليها أعمدة من الحديد، و«السقاطة»[lxxiv] على شكل يد، كانت تلك البوابة تشعرنيّ أنّني في حقبة تاريخيّة مختلفة كلّما مررت بجانبها، إذ كان على يسارها مكان لربط الخيول. مقابل ذاك البيت كان مشفى الرّضوان وصيدليّة، أتذكّر الصّيدليّة بشكل خاصّ لأنّني كنت دائماً أقف أمامها لأتفرّج على الألعاب المعروضة للأطفال، أتأمّلها لأقرّر اللّعبة التي أريد شراءها لي أو لإخوتي، ثمّ لأجمع المال. لا أجد ألعاباً في الصّيدليّات هنا في تركيا، ربّما هذا فقط في سوريا، هي ألعاب مثل أطفال رضّع يمكن إطعامها وتغيير ملابسها، أو ألعاب« الباربي»، أو مطمورات من تلك التي يخرج منها كلب ويأخذ النّقود ويضعها داخل المطمورة.

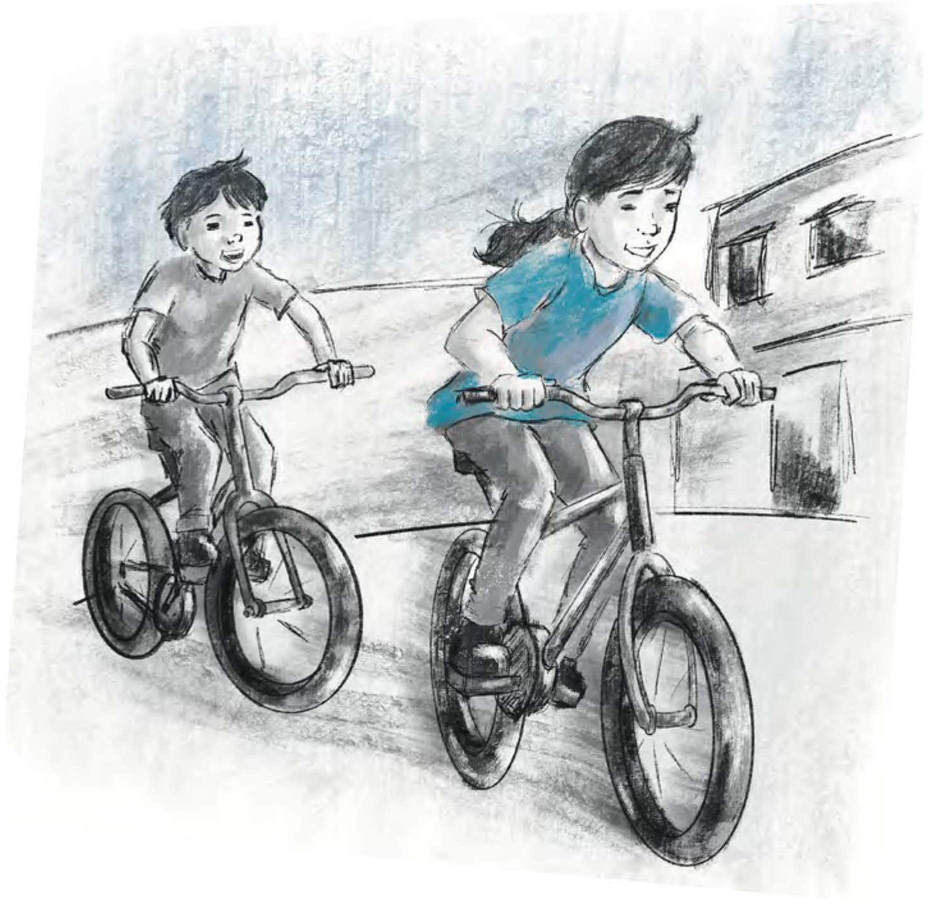
في أحد الأيّام، خرجت من البيت دون إذن أمّي، ذهبت إلى الصّيدليّة واشتريت لعبة باربي، عندما عدت إلى المنزل وطرقت الباب، فتحت أمّي وقد استشاطت غضباً لخروجي دون إذنها، تراجعت بضع خطوات إلى الوراء وطلبْتُ منها الأمان، فابتعدت عن الباب وسمحت لي بالدّخول. لكنّي كنت أعلم أنّها تريد تأنيبي، فركضت مسرعة إلى الداخل، اختبأت في الحمّام وأقفلت الباب ورفضت الخروج، حتّى قالت لي إنها ستسامحني |ضحك|.

---

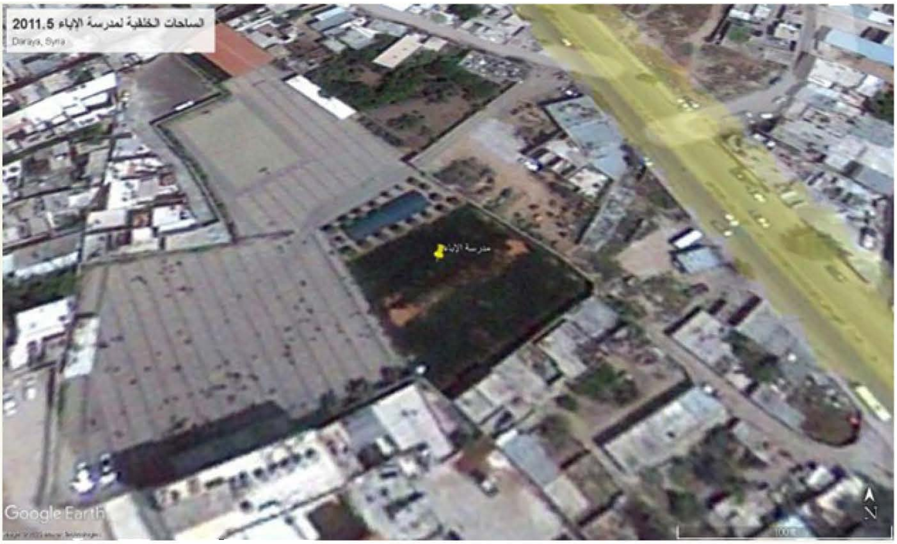
lxxiv مطرقة الباب.

بالعودة إلى الحارة، هناك مدرسة الإباء وبجانبها الكثير من المحلّات، محلّ الطيّات الذي يبيع كوكتيلات الفواكه والعصائر والسّندويشات. بعد انتهاء الدّوام المدرسي كنت أطرق باب عمّي وأطلب من بناته اللواتي في مثل سنّي أن يذهبن معي إلى ذلك المحل كي نشتري منه أكلاً وشراباً طيّباً. أمّا المدرسة، فقد كانت لها باحات كبيرة جدّاً، حتّى إنّ أبي أعطاني بعض دروس قيادة السّيّارة هناك. في ساحات المدرسة الخلفيّة كان هناك مرج أخضر ورشّاشات مياه، كانت تلك البقعة هي المفضّلة لديّ، أتمدّد على الأرض وأحسّ برذاذ المياه على وجهي وأتطلّع نحو السّماء مطلقة العنان لخيالي. كنت أطير في الخيال كعصفورة حرّة. أحياناً كان أبي يأخذنا ليلاً في أيّام العطل لنسهر في تلك البقعة من المدرسة. كم كنت أفرح في تلك السّهرات وكم تأمّلت جمال السّماء ونجومها. للأسف عندما أبحث الآن على «غوغل إيرث/ خرائط جوجل» عن المدرسة أجد أنّ المرج قد اختفى وأصبح كالصّحراء.

في أيّام العطل كنت أذهب مع أخي إلى باحة المدرسة منذ شروق الشّمس لنلعب كرة القدم ولنقود الدّرّاجات، تهبّ نسمات لطيفة علينا بعد أن نكون قد تصبّبنا عرقاً من اللّعب [صمت]، ثمّ يذهب أخي لإحضار الفلافل من محلّ «أبو راتب» ونأكل هناك. كان أفضل شيء بالنّسبة لنا كأطفال أنّ المشفى مقابل المدرسة، فإن وقعنا أو جرحنا أرجلنا نذهب إلى المستشفى مباشرة، تتمّ معالجتنا ونطلب منهم وضع الفاتورة على اسم أبي[ضحك].
لتلك المدرسة في قلبي مكانة مميّزة، درست فيها من الرّوضة حتّى الصّفّ التّاسع، حتّى في المرحلة اللّاحقة، إذ أكملت دراستي في مدرسة أخرى. كنت أذهب إليها بعد الدّوام يوميّاً لألعب فيها. أحبّ تلك المدرسة أكثر من بيت أهلي، فقد قضيت فيها أجمل أوقات حياتي. حتّى عندما حدثت مجزرة داريّا، التجأنا إليها واختبأنا في أقبيتها.
كانت الحياة جميلة، كم أحزن أنّ أطفالي لن يعيشوا مثل هذه الحياة، ليس لديهم حارة ولا بيت عمّ ولا بيت جدّ وجدّة... إنّ الله كريم.



رسم تجريدي لمشهد لعب سميّة مع أخيها على الدرّاجات



صورة من غوغل إيرث تُظهِر الساحات الخلفيّة لمدرسة الإباء عام ٢٠١١.



«داريّا من سطح مدرسة الإباء»، شاركتها معنا سميّة خلال العمل البحثي.



«أنا وأخي الأكبر في حديقة منزلنا الخلفيّة» صورة شاركتها معنا سميّة خلال العمل البحثي.

في ذلك البيت كنْتُ سميّـــــــة،
الـــطّفلــــــــــــــــة
التي ليســت لديها أيّة مســؤوليّة
ســوى الدّراسـة والتّفوّق

أحبّ تلك المدرســـــــــــــــة أكثر من بيت أهلـــــــــــــــــــي

كانت غرفة الضّيوف

من أحـــــــــبّ الأماكـــن على قلبـــي أيضاً

كنت أقف في أوّل الــــــــــــدّرج
متأمّلة لهذا الجمال،
أنظر إلى أشجار الأكّدنيا واللّيمون الّتي ملكنا منها ثلاثاً

كم أحـــــزن أنّ أطفــالي لن يعيشوا مثل هذه الحيـــــــاة،

ليس لديهم حارة ولا بيت عم
ولا بيـــت جـــــدّ وجـــــدّة...

أنا... عندما بدأت الثّورة في سوريا

كنت صغيرة جدّاً عندما بدأت الثّورة، ستّة عشر عاما تقريباً. أذكر أنّني خرجت في كثير من المظاهرات النّسائيّة والطّلابيّة والاعتصامات. في صفّ الباكالوريا، منعني أبي أن أدرس في ثانويّة بنات داريّا العامّة، ونقلني إلى معهد خاصّ، كل ذلك كي يحدّ من مشاركتي في المظاهرات. منذ بداية الثّورة عام ٢٠١١ خرجتُ مع صديقاتي في مظاهرات طلّابيّة في الصّباح الباكر قبل بدء دوام المدرسة [ضحك]. جهّزنا كلّ يوم الكثير من المناشير، كنّا نتوزع في الحارات بعد أن نتأكّد من خلّوها من قوّات الأمن، نرمي المناشير فيها ثمّ نعود لنتجمّع مع بعضنا البعض. في أحد الأيام، راقبنا أنا وصديقة لي حارة معيّنة وتأكّدنا من خلوّها من عناصر الأمن، رمينا المناشير وقلنا: الله أكبر! فجأة، خرج أحدهم من سيّارته وقال «تكبير يا بنت الكلب» وبدأ بملاحقتنا وهو يطلق أبشع المسبّات علينا، وبقينا نركض حتّى اختبأنا في إحدى الحارات ونجونا من اعتقاله لنا.

وفي مرّة أخرى خرجتُ مع النّساء في اعتصام لأمّهات المعتقلين، وقفنا أمام المخفر، حملنا اللّافتات وكنّا كلّنا نرتدي الخمار ونضع النّظّارات الشّمسيّة لإخفاء هويّاتنا. استطعنا من خلال وقفتنا تلك أن نقطع الطريق على السّيّارات في الشّارع الواصل بين ساحة «شريدي» والأوتوستراد الرّئيسيّ من منطقة المزّة. جاء عناصر الأمن ووقفوا بجانبنا دون أن يفعلوا أيّ شيء في البداية، فقط يحملون الموبايلات لتصويرنا. بعد قليل قال أحدهم: «يللا فضّوه لهالاعتصام، فضّوها لهالمسخرة»، أجابت البعض منّا بالرّفض وأنّنا لن نعود حتّى خروج أبنائنا من المعتقلات، فرفع بندقيّته وأطلق النّار باتّجاه السّماء، هربنا بداية وتفرّقنا، ثمّ عُدْنا وتجمّعنا في نفس المكان.

أذكر حينها أنّ ولداً صغيراً كان على درّاجته قد توقّف وبدأ بتصوير ما يحدث بموبايله، فركض إليه عنصر الأمن الذي يحمل بندقيّة، خطف الموبايل من يد الولد، وحمله ليضعه في سيّارة الأمن. إلّا أنّ امرأة شجاعة من بيننا خ.ح. ركضت إلى عنصر الأمن وأخذت منه الولد بالقوّة وهربت، أنقذته بالفعل، فجنّ جنون عنصر الأمن وبدأ وأصحابه يركضون

باتّجاهنا للقبض علينا وأخذنا إلى سيّاراتهم، بدأت النساء بالهرب أو بضرب عناصر الأمن بحقائبهنّ أو باللّافتات، وتفرّقنا جميعاً بين الحارات.

وارتكبوا مجزرة داريّا...

أحاول تذكّر الأحداث التي سبقت المجزرة... كان هناك يوم سمّيناه السّبت الأسود، استشهد قبله بعض شبان داريّا، فقرّر البعض من أهل داريّا الخروج في يوم السّبت لتشييعهم، وأحاط بهم عناصر من الجيش الحرّ لحمايتهم. كانت المظاهرة بحدّ ذاتها سلميّة، وتدخُّل الجيش الحرّ لحمايتها من مداهمة الجيش السّوريّ وعناصر الأمن، فقاموا بإغلاق معظم الحارات لمنع أيّ هجوم.

أخي الأكبر كان عمره ثمانية عشر عاماً كان مع شباب الجيش الحرّ حينها، أصيب بنيران عناصر جيش النّظام الذين وجدوا طريقة لاقتحام المكان. كانت إصابته خطرة حتّى إنّ اسمه نزل على بعض الصّفحات لنعوته على أنّه استشهد، إلّا أنه لم يكن قد مات والحمد لله، لكنّ اسمه صار معروفاً ووجوده بيننا صار خطراً علينا، فخرج من بيتنا وصار يتنقّل من منزل لآخر لعلاج إصابته وأمّي ترافقه في كلّ ذلك. مات الكثير من شباب داريّا في ذلك التّشييع وصار اسمه لهذا السبب السّبت الأسود.[lxxv]

ومنذ ذلك الوقت بدأت الاشتباكات الفعليّة بين الطّرفين، ازداد القصف من جهة النّظام بكلّ أنواع الأسلحة، بعد أن كان مقتصراً على طلقات تطلقها طيّارات الهليكوبتر (حوّامات)، مات الكثير من المدنيّين والمدنيّات بسببها. سقطت إحداها في إحدى الممرات في أرض الديار واخترقت أحد جدرانه، طلقات طويلة لا أدري ما كان نوعها.

---

lxxv طوال تاريخها كانت داريا مدينة مسالمة تستوطنها الوداعة، وتستمد من طبيعتها الرائعة وترابها الخصب ملامحَ بلد يحب الحياة. وكان لابد لهذه السمات من أن تكون عنوان حراكها الثوري، وقد أصبحت رمزًا من رموز الحراك السلمي في سوريا. فمع بداية ٢٠١٢ أعلن ثوار المدينة إصرارهم على المضي في درب الحرية، ورفعوا في أول أيام عامهم الجديد علم الاستقلال على سارية في قلب المدينة تحضيرًا لاستقبال لجنة المراقبين العرب والتي لم تصل في ذلك اليوم وإنما كانت قوات الأمن وشبيحة النظام هي الضيف الغير مرغوب به ليسقط شهيدان وعدد من الجرحى. واستمرت المظاهرات والتي كانت تخرج بشكل شبه يومي. ويوم السبت ٢٠١٢/٢/٤ تحوّل تشييع بعض شهداء المدينة إلى مجزرة مروعة، والتي كانت أولى المجازر في المدينة والتي تمت تسميتها بمجزرة السبت الأسود أو السبت الدامي والتي راح ضحيتها ١٧ شهيدًا من شباب المدينة.
هذا الشرح مقتطع من مقالة بعنوان: «داريا... توالت الأعوام ومازال العنب ثائرًا»، جريدة عنب بلدي.

في يوم المجزرة، أذكر أنّ القصف من جهة قوّات النّظام كان عنيفاً جدّاً. ذهبت معظم العائلات إلى الأقبية، احتبأنا أنا وعائلتي وأقاربي في أقبية مدرسة الإباء، لم نكن وحدنا فقد هرع العديد من أهالي داريّا إلى أقبية المدرسة. لم تغمض أعيننا من شدّة القصف وقوّة الأصوات في الخارج. تمركز بعض شباب الجيش الحرّ على سطح المدرسة بحكم علوّها وقربها من المستشفى، لكن يبدو أنّ الجيش الحرّ قد بدأ ينسحب لعدم قدرته على مواجهة القوّة العسكريّة التي جهّزها النظام لاقتحام داريّا. اتّصل أخي الذي كان مع الجيش الحرّ ليخبرنا بذلك، وليطلب منّا السّماح، لتركنا وحدنا في تلك المعركة.

دخلت عناصر جيش النّظام إلى داريّا من جهة منطقة المزّة، أي من مكان قريب علينا، فكانت المدرسة من أوائل الأبنية التي اقتحموها. تتكوّن مدرسة الإباء من عدّة أبنية، كنّا نحن في قبو الأوّل منها، نساء وأطفالاً دون شباب. أمّا أعمامي وعمّاتي وأولادهنّ، فكانوا في قبو البناء الثّاني وكان معهم شبان مدنيّون لم يحملوا السّلاح. دخلوا أوّلاً على البناء الذي كنت فيه أنا وعائلتي، كنّا قد أقفلنا البوّابة، فاقتحموها ونزلوا إلينا. لم يكونوا فقط سوريّين كان معهم الكثير من الإيرانيّين على ما أعتقد، وهناك من يترجم لهم ما نقول وما يحدث.

قالوا لنا مباشرة «ليش ما فتحتوا، ما سمعتونا عم ندقّ الباب؟» فأجبنا أننا ظنّناهم من المسلّحين، كان يجب أن نتظاهر أنّنا في صفّهم. نزل إلينا أحد عناصرهم الذي تجوّل على ما يبدو في بعض غرف المدرسة وقال «سيدي هدول معنا، أنا فتت وشفت الصور والشعارات بالمدرسة كلّها إلنا» [lxxvi] أي بمعنى أن يتركونا وشأننا. نهضت إحدى جاراتنا ووزّعت عليهم قوارير من الماء البارد كبادرة حسن نيّة.

بدأوا باستجوابنا، سألونا ما إذا كنّا رأينا أيّاً من المسلّحين، وعمّا إذا كنّا ندري عن الأشخاص المختبئين في باقي أبنية المدرسة، فأجبنا أنّنا لم نرَ أحداً لأنّنا نزلنا إلى الأقبية وأغلقنا الأبواب منذ أن اشتدّ القصف، ولم نخرج إلى الأعلى أبداً. قالت له أمّي إنّ مدنيّين

---

lxxvi تمتلئ جدران المدارس في سوريا بصور الرئيس وأعلام وشعارات حزب البعث، عندما ذهب العسكري في جولته على غرف المدرسة رأى هذه الصور والشعارات مازالت معلّقة على الجدران. تقول سميّة ان ترك هذه الصور كان فعلا تكتيكيًا كي لا يتم تدميرها من قبل قوّات النظام.

ومدنيّات فقط يحتمون بباقي الأقبية ولا وجود للمسلّحين أبداً. فأشار الضّابط نحو أخي الذي كان عمره ١٢ عاماً وقال لها: «ابعتي ابنك مع العسكريّ ليدلّه على باقي الأقبية» قالت له أمّي: «أنا بروح بدلّك عليها» فرفض وأمرها بأن ترسل ابنها.

ذهب أخي مع العسكريّ، وبعد ثوانٍ سمعنا صوت «خرطشة» (تلقيم) بندقيّة، فركضت أمّي ظنّاً منها أنّ العسكري سيقتل أخي، لكنّ الضّابط قال لها بأنّها أصوات من الخارج. أخبرنا أخي لاحقاً، أنّ العسكري قد «خرطش» البارودة فعلاً وألصق فوهتها برأسه وقال له: «يا بتخبرني عن مكان المسلحين يا بقتلك برصاصة» فأجابه أخي «أنا ما بعرف شي عن المسلّحين وما بعرف جيش إلا الجيش السّوري.» لقد كان أخي صغيراً، لكن كان لديه الكثير من الوعي في نفس الوقت.[lxxvii] وصل مع العسكري إلى القبو الثّاني، أخرجوا الشّباب وقاموا بصفّهم في مواجهة الحائط، فهرعت النّساء وأمّي وأخبرن عناصر الجيش أنّ هؤلاء الشّباب مع النّظام وأخرجن دفاتر تأجيل الجيش الخاصّة بهم وأعطينها لعناصر الجيش كي يتأكّدوا.[lxxviii] لم يقتلوهم والحمد لله، سأل أحد العناصر: «سيدي منحرق المدرسة؟» أجابه: «لا، ما تحرقوها، بس شو في شي بيتّاخد خدوه» فسرقوا كلّ شيء منها وخرجوا حوالي السّاعة العاشرة أو الحادية عشرة صباحاً.

ذهبنا مباشرة إلى بيوتنا بعد أن تأكّدنا من مغادرتهم، دخلنا البيت فوجدنا كلّ الأبواب مخلّعة، لم يبق غرض في مكانه، كلّ الكتب على الأرض، كلّ الأدراج قد أُخرجت من مكانها، وكلّ شيء ثمين قد سرقوه. دخلنا غرفة النّوم الخاصّة بوالديّ فوجدنا على تختهما ساطوراً وفانوساً ينير، ويبدو أنّ شحنه على الطّاقة الشّمسيّة، هذان الغرضان ليسا لنا ولم ندرِ لماذا وضعوهما على التّخت. غضب أخي الصّغير كثيراً من ذلك المشهد فحمل السّاطور والفانوس وألقى بهما من إحدى النّوافذ المطلّة على مكان مهجور. قال له أبي إنّه كان من الممكن أن نستفيد من الفانوس خلال انقطاع الكهرباء، فنزل أخي لإحضاره من المكان المهجور فوجد جثّة رجل مذبوح... تواصلنا مع بعض الرّجال في الحارة، جاؤوا وصوّروا الجثّة

---

lxxvii تظاهر أخ بسميّة بأنّه داعم لقوات النظام السوري كي لا يقتله العسكري.

lxxviii إخراج دفاتر تأجيل الخدمة الإلزامية تعطي دلالة لقوّات النظام أنّ حامليها موالون لقوّات النظام. إنها أيضا إحدى الطرق أو المحاولات للنجاة من الموت المحتّم.

ونشروا الصّورة على الإنترنت، فتمّ التّعرّف على صاحبها ثم تمّ دفنه في مقبرة شهداء داريّا. قمنا باتّصالات كثيرة مع جيراننا وأصدقاء العائلة عن طريق الموبايلات للاطمئنان عليهم، إذ كانت شبكة الاتّصالات الأرضيّة مقطوعة، وكانوا بخير والحمد لله، ثمّ اتّصلت خالتي لتخبرنا عن مجزرة جامع أبي سليمان الدّيراني، بعدها بدأت أخبار الموت تتوالى علينا. [lxxix] قتل عناصر الجيش السّوري كلّ من كان في المشفى الميداني، وكانت المجزرة ما تزال مستمرّة في باقي المناطق من داريّا، فالجيش السّوري ينتقل من منطقة إلى أخرى مخلّفاً وراءه المجازر والموت. بقينا لمدّة أسبوع كامل على تلك الحالة، كلّ يوم تصلنا أخبار عن قتل جماعي، جثث محروقة على أطراف مدينة داريّا، أقبية مليئة بجثث أناس قد تمّ قتلهم... دون أيّة مبالغة، بقيت روائح الموت والجثث في شوارع داريّا لأسبوع كامل «فعلاً في شي اسمه ريحة الموت... مو بس شعور.» [lxxx]

أمّا النّساء، فقد قتلوا الكثير منهنّ، لكنّ مجتمع داريّا محافظ، ولم يتمّ ذكر العديد من المجازر أو الاغتصابات الجماعية التي حدثت. أحد جيران خالتي في منطقة البلديّة، دخل إلى حارة هناك فرأى أكثر من خمس عشرة امرأة دون ثياب، بعضهنّ كنّ مقتولات وبعضهنّ كنّ ما زلن على قيد الحياة. أيضاً إلى جانب مسجد أبي سليمان الديراني وجد بعضهم نساء قد تمّ اغتصابهنّ ورميهنّ بعد أن ألبسوهنّ كيلوتاتهنّ (لباسهنّ الداخلي) برؤوسهنّ. [lxxxi]

برأيي، كان هناك خطأ كبير من جهة الجيش الحرّ؛ لم يكن جاهزاً لمواجهة قوّة النّظام العسكريّة، وانسحب مباشرة عندما اشتدّ القصف. بعض عناصر الجيش الحر ألقوا بأسلحتهم كذلك في بعض الحاويات القريبة من المناطق السّكّانيّة، وحين وجدها جيش النّظام قام بقتل معظم السّكّان في تلك المناطق. طبعاً أنا لا أقول إنّ مجزرة داريّا حدثت

---

lxxix تعرضت مدينة داريا بريف دمشق اليوم لواحدة من أبشع المجازر التي ارتكبتها ميليشيات الأسد منذ بداية الأحداث قبل أكثر من عام ونصف إذ طالت حملة المداهمات والاقتحام والتخريب والنهب داريا وجزءاً من كفر سوسة ومنطقة المهايني الملاصقة لداريا الشرقية، وقامت هذه الميليشيات بتمشيط طريق الملعب، وقامت بإحراق العديد من المزارع والبيوت على طريق الملعب، وتم قصف ملعب الحديد مما أحدث أضراراً مادية بالغة فيه.
وقد بلغ عدد الضحايا الشهداء في داريا لوحدها ٢٠٨ مدنياً وعثر على أكثر من ١٥٠ جثة في جامع أبو سليمان الديراني في داريا، كان أصحابها قد لجأوا إلى المسجد فلحقت بهم ميليشيات الأسد ونفذت فيهم إعداماً جماعيا في حرم المسجد في أبشع جريمة اقتحام وتدنيس لأماكن العبادة المقدسة. هذا الشرح مقتطع من تقرير بعنوان «مجزرة رهيبة في داريا والضحايا ٢٠٨ مدنيّا» على موقع اللجنة السّوريّة لحقوق الإنسان.

lxxx عن مجزرة داريا في آب ٢٠١٢، المجلس المحلي لمدينة داريا.

lxxxi مجزرة داريا الكبرى.. شهادات عن ٧ أيام من القصف والذبح والإعدامات الميدانية، سوريا.

فقط بسبب مواقف خاطئة اتّخذها الجيش الحرّ، فلا شيء يبرّر بطش وعنف جيش النّظام وحلفائه والمجازر التي ارتكبوها، لكنّي أقول لك ما حدث وما جعل أهالي داريّا برأيي منقسمين بين معارض وكاره للجيش الحرّ، وبين مؤيّد له.

فراق أخي (أبي راشد) [lxxxii]

لم نخرج من بيتنا بعد مجزرة داريّا، بقينا فيه حتّى عام ٢٠١٣. في بداية ذلك العام اقتحم جيش النظام داريّا مرّة أخرى، وكانت المخاوف أن تحصل مجزرة ثانية كتلك التي حصلت في شهر آب/ أغسطس من عام ٢٠١٢. أذكر حينها بأنّ أمّي توسّلت أبي أن يتخفّى عن الأنظار خوفاً من اعتقاله أو قتله، وبعد محاولات عدّة ذهب أبي واختبأ في مدرسة الإباء. بدأت قوّات الأسد بتمشيط المكان، دخلوا إلى بيتنا فلم يجدوا أحداً من الرّجال، فقالوا لنا: أغلقوا الباب عليكنّ ولا تطلّوا حتّى برؤوسكنّ من باب البيت أو نوافذه. استمعنا لتنبيهاتهم في البداية، لكن ما لبثت أعيننا أن بدأت تراقب المدرسة، فهناك والدي وجيش النّظام قد بدأ البحث فيها.

بدأت ألسنة الدّخان تتصاعد من المدرسة، فصارت قلوبنا ترتجف من الخوف على أبي. نجا أبي بمعجزة، فقد روى لنا بأنّ عناصر الجيش اقتربت من مكان اختبائه، ولكنّ موبايل قائد المجموعة رنّ فجأة ونزل الجميع إلى الأسفل ولم يكتشفوا مكان أبي.

في ذلك اليوم كنت مختبئة على سطح البيت أراقب الشّارع والحي، وإذا بعناصر الجيش يسطون على سيّارتنا، فهرعت إلى أمي أخبرها وما كان من أمّي إلّا أن خرجت من باب البيت وأنا من خلفها تصرخ على الجنود وتقول لهم: «هي سيّارتي اتركوها»

فردّوا عليها «هي السيّارة لزوجك وزوجك منو هون زوجك إرهابي ومتخبي منا، لهيك إذا منو إرهابي يجي لعنا ع باب مطار المزة يستلمها منا.»

---

lxxxii كتبت سميّة هذه الفقرة، وذلك عندما أرسلت إليها القصة لقراءتها وإضافة التعديلات والإجابة على بعض الأسئلة. لم تتحدث سميّة خلال رواية قصتها عن تفاصيل وفاة أخيها. عندما أرسلت إليها القصة مكتوبة قررت أن تضيف مقطعا خاصا بأخيها، قمت فقط بالتعديل على صياغة بعض الجمل فيه. (الباحثة سلمى كريم)

لم تستسلم أمّي وظلّت تجادله فسألها «من يت شو زوجك»

قالت له: «بيت الخولاني»

قال لها «خولاني وإلك عين تحكي؟ فوتي لجوا أنت وبناتك أحسن ما أحرق البيت فيكن»

أخذوا السّيّارة، ثمّ أحرقوا المدرسة. وبعد ذلك اليوم بدأت رحلة الحصار المرّ في داريّا.

بعد ذلك بعدّة أيام سيطر الجيش الحرّ مرة أخرى على المنطقة، وخرج جيش النّظام منها. ذهبتُ مع أمي وإخوتي إلى منطقة «خان الشّيح» إذ لم يعد آمناً البقاء في بيتنا. بقي أبي وأخي الكبير في البيت، لكنّ أخي أصيب برأسه، فعادت أمي لتعتني به وبقيت أنا مع ثلاثة أخوات وأخي الصّغير عبد الرحمن الملقّب بأبي راشد منذ صغره. فتى قصير القامة ضعيف البنية، لكنّ عقله وأفكاره كانت أكبر من عمره ومن جسده الضّئيل. أتعبني كثيراً، لم أستطع كبح جماحه بعد أن تركته أمّي أمانة لديّ. كان يغافلني ويذهب ليستكشف مواقع حواجز النّظام ليرسل إحداثيّاتها عبر مجموعة Zello لأفراد الجيش الحرّ.[lxxxiii] حاولت مراراً منعه خوفاً عليه، ولكن عبثاً.

بعدها قرّرت أمّي إعادتنا لجوارها وجوار أخي المصاب في داريّا. عدنا إلى مصيرنا بأرجلنا، سكنّا في منطقة معضميّة الشّام، وعملت حينها في المشفى الميدانيّ كممرّضة. في ظهر يوم بارد، ولكن شمسه ساطعة أتى أخي الصّغير أبو راشد وسلّم علينا سلاماً حاراً، أذكر ضمّته آنذاك، لم يكن ليفلتني حينها، كان وجهه أيضاً يشعّ نوراً لدرجة أنّ جارتنا قالت له «منوّر لك أبو راشد...شكلك ماسكلك كم شبّيح»[lxxxiv] طبعاً نتحدّثُ عن طفل لم يتجاوز الخامسة عشر من عمره، كان يساعد الجيش الحرّ في الجبهات الخلفيّة، لم يكن ليقتل أحداً أبدا أو يشارك في المعارك.

---

lxxxiii تطبيق المراسلة «زيلو» (Zello) يركز على الصوت عبر الرسائل النصية التقليدية. يستخدم زيلو واجهة مستخدم أقرب إلى جهاز اتصال لاسلكي، ويسمى هذا النوع من التطبيقات «واكي توكي» (walkie talkie).

lxxxiv من المعروف أنّ مصطلح «الشبيحة» يعود لفرقة معينة في سوريا، وقد استُخدم الاسم لاحقاً ليدل على كل شخص خاضع للسلطة، وهو بالعادة مدني لكنّه يقوم بتصرفات عدوانية من أجل إرضاء السلطة. باختصار، هم رعاة السلطة وزعرانها! تُستخدم العبارة اليوم في خلال الثورة اللبنانية من أجل الدلالة على كل فرد مدني يلجأ إلى الشارع لقمع المتظاهرين بهدف «التشبيح» على السلطة، ولذلك قررنا في التالي أن نعرفكم إلى أصل عبارة «الشبيحة» أو معنى «التشبيح»! ويؤكد الباحث وأستاذ اللسانيات الدكتور نادر سراج في حديثه لـ»صحات» أن «التشبيح هو قيام الشباب بحركات استعراضية بسياراتهم أمام مدارس البنات فلها تسمياتها. فهي «التشفيط» أو «التشبيح» أو «التفشيخ» في لبنان، و»»التفحيط» في الكويت؛ و»الزنط» و»القطة» و»التجفيل» و»التدخين في السعودية، وهي باختصار نوع من أنواع «التشبيح» السائدة في أوساط السائقين الشبان لاستمالة الجنس الآخر ولتبادل النظرات والابتسامات وصولاً إلى المواعدة». وأضاف إن «التشبيح في المفهوم الدارج هو للإشارة إلى الدلائل السلوكية السلبية وهي عملية اكتساب بالقوة وبغير وجه حق إضافة إلى استعراض للعضلات على حساب الآخر». ويمكن القول إن هذه العبارة ليس لها أي أصول لغوية! هي لا تعود لفعل «شبح» بل ينسبها البعض إلى سيارة المرسيدس الشبح وهي معروفة بهذا الاسم في بعض الدول العربية لكنّها بالفعل مرسيدس Mercedes S600. هذا الشرح مقتطع من مقال باسم «ما اصل تسمية شبيحة؟»، غوى أبو حيدر، جريدة النهار.

بعد أن ضمّني أخي، سلّم على أمّي، أخذت بتقبيله فقال لها: «هريتيني من البوس بس يالله معلش هالمرّة سماح.»

ذهب ليصلح هاتفه المحمول، وإذا بنا نسمع صوت قذائف هاون قد وقعت بالقرب منّا، وذهبت أمّي إلى جارتنا.

بعدها بدقائق قليلة سقطت قذيفة أخرى ...

هرعت جارتنا إلينا: «سمّية الحقي أمّك... راحت عالمشفى الميداني أخوكي انصاب»

أنا لم أتوتّر كثيراً بحكم أنّي أصبحت معتادة على ذلك، فأخي الكبير «محمد مجاهد» أصيب مرّتين والحمد لله لم يمت، لم أكن لأتوقّع أن يحصل مكروه لعبد الرّحمن (أبو راشد).

وصلت إلى المشفى الميداني...

أمّي تصلّي....

أخي ملقى على سرير في الممرّ لكثرة المصابين حينها...

وقفت بجانبه، كان الأطبّاء قد فتحوا فتحة في صدره ووضعوا له أنبوباً، علّ الهواء يصل لرئتيه.

أدركت المصيبة عندها، لكنّ لساني وجسدي أصابهما الشّلل، حتّى تفكيري توقّف. لم أدرك ما كان يحدث، حتّى رأيت القفّازات البيض الملطّخة بالدّماء تُخلع من أيدي الأطبّاء.

وهم يقولون: الله يرحمه...

انكببت على قدميه أتلمّسهما، «والله كانوا دافيين» فأنا أعرف برودة الموت بحكم عملي في المشفى الميداني. بدأت أتوسّل الطّبيب «والله إجريه دافيين، أمانة حاول مرّة تانية» وما كان منه إلّا أن سايرني وأعاد المحاولة دون فائدة. وهنا دخلت أمّي، أخبروها وتقبّلت الخبر بصبر أيّوب الذي أنزله الله على قلبها.

بدأت تمسح وجهه من آثار «البوفيدون» (مادّة مطهّرة)، تقبّله وتودّعه الوداع الأخير. أخذوه إلى غرفة أخرى لتهيئته للجنازة، كنّا أنا وأمّي فقط بجانبه، صلّينا عليه أنا وأمّي صلاة الجنازة.

دمائه تقطر من رأسه ورائحته كالمسك الفوّاح...

قلت له: «قوم بدنا نرجع نلعب كرة قدم سوا بباحات المدرسة وتشتري لي فلافل

وتسوقني بسكليتك»

وصل أبي مع مجموعة كبيرة من النّاس ليأخذوا أخي إلى مثواه الأخير. ذهبت أنا وأمّي معهم، ودعته أمّي الوداع الأخير، ثمّ وصل أخي الأكبر إلى المقبرة... لا أستطيع أن أصف مشاعري في تلك اللّحظة ولا أستطيع أن أصف حزن أمّي وحزن أخي مجاهد، أو حزن أبي الذي فُجع بطفله المدلّل.

صلّينا عليه مرّة أخرى، وابتعد الرّجال قبل أن ينزلوه في القبر وسمحوا لأمّي بضمّة أخيرة له علّها تشفي صدرها وتشبع منه، ولكن هيهات... ووري الثرى ورجعنا إلى البيت.

أذكر في تلك اللّيلة أنّنا نمنا كلّنا في غرفة واحدة، تظاهرنا بالنّوم، لكنّ أصوات بكائنا فضحتنا، لم يغمض لأحدنا جفن.

«ما عاد في أبو راشد اللي كنت حسّ بإيقاع موسيقي مميّز وقت نادي اسمه»

الحمد لله... إنّا لله وإنا إليه راجعون... ولا يواسينا إلّا أنّ الله قد وعدنا بجنّة تجمعنا به، لا فراق بعدها بإذن الله.



«صورة لأمّي وهي تودّع أخي الوداع الأخير.» شاركتها سميّة معنا خلال العمل البحثي.



«صورة لأخي الأكبر وأخي الشّهيد عبد الرحمن في بيتنا في داريا.» شاركتها معنا سميّة خلال العمل البحثي



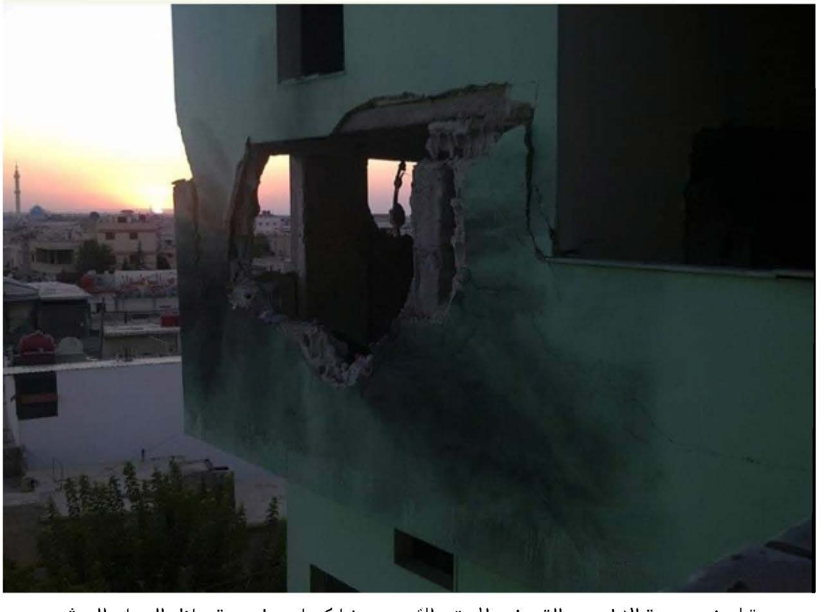
«أخي الشهيد عبد الرحمن الملّقب بأبي راشد.» شاركتها معنا سميّة خلال العمل البحثي.



«أختي الصّغيرة بجانب قبر أخي.» شاركتها معنا سميّة خلال العمل البحثي.

حصارنا... حصار داريّا

بدأ جيش النّظام يتقدّم ويأخذ الكثير من المناطق التي سيطر عليها الجيش الحرّ سابقاً. تركنا البيت وانتقلنا إلى حارة [تأتأة] تدعى حارة... انتظري حتّى أسأل أبي لأتأكّد من الاسم... كانت حارة تقطنها عائلات من بيت الشّربجي... حارة «الشّرابجة» جانب جامع المصطفى. عشنا في ذلك المنزل مدّة أربع سنوات، أي كامل فترة الحصار على داريّا، إلى يوم التّهجير [صمت]. لم نستطع في تلك السّنوات أن نذهب إلى بيتنا، بيت أهلي، لأنّه كان تحت سيطرة جيش النّظام. كنت أستعين بخرائط غوغل كي أطمئنّ عليه، ظننت أنّه ما زال قائماً ولم يتأثّر بالقصف، لكن تفاجأت لاحقاً أنّ خرائط جوجل لا تعطي تحديثاً بالزّمن الحقيقيّ. ومرّة كانت الخرائط قد تمّ تحديثها، دخلت لأرى البيت، فوجدته مدمّراً ومحروقاً [صمت]، كلّ بيوت أعمامي كذلك قد دُمّرت. أمّا مدرسة الإباء فقد دُمّر نصفها، ولم يبق فيها شيء أخضر.



«صورة لمبنى مدرسة الإباء بعد القصف والحرق والتّدمير.» شاركتها معنا سميّة خلال العمل البحثي


«صورة لمبنى مدرسة الإباء من الدّاخل.» شاركتها معنا سميّة خلال العمل البحثي.


«صورة أخرى للمدرسة من الداخل.» شاركتها معنا سميّة خلال العمل البحثي.

كان المنزل الذي انتقلت إليه مع أهلي في منطقة حيويّة، فيها الكثير من النّاس والمحلّات التّجاريّة ومستشفى ميدانيّ بجانب جامع المصطفى، ما جعلها منطقة مستهدفة من قبل قوّات النّظام التي استهدفت الكثير من المستشفيات. أذكر مرّة وقوع برميل متفجّر على منطقة الإسعاف في المستشفى، فحُوصر الطّاقم الطّبّي والمصابون والمصابات لأيّام طويلة عانوا الكثير خلالها. لذلك وبعد هذه الحادثة، ومنعاً لحصول ذلك مرّة أخرى، قام الشّباب بحفر نفق بين الجامع والمستشفى، كي يستطيع من بداخلها الخروج منها في حال استهدافها من قبل قوّات النّظام.

حدثت الكثير من الأحداث في فترة الحصار، سأحاول تذكّرها |صمت|، بعد استشهاد أخي الصّغير عام ٢٠١٣ |صمت|...

عملت حينها لمدّة ثلاثة أشهر في مستشفى ميداني في منطقة المعضميّة، سكنت مع جماعة من معارفنا وبقي أهلي في داريّا...|صمت|

سأربط كلّ الأحداث بتاريخ استشهاد أخي كي أحافظ على تسلسل زمنيّ واضح.



«الشّارع يلّي كنّا ساكنين فيه بالحصار وأخواتي الصغار اللّي ظاهرين بالصّورة» شاركتها معنا سميّة خلال العمل البحثي.

تزوّجت عام ٢٠١٤. تقدّم زوجي لخطبتي، أتذكّر حينها أنّ الطّريق إلى منطقة المعضّميّة قد تمّ فتحه بسبب الهدنة التي تمّت في تلك المنطقة، وبدأ بعض الطّعام يدخل إلينا. [lxxxv] شعرت بفسحة من الأمل، لا أدري كيف اتّخذت قرار الزّواج، راودتني فكرة الموت، سأموت لا محالة في هذه الظّروف من القصف والحصار، قد يعطيني الزّواج وخوض تجربته بعض الأمل. تمّت خطبتي قبل شهر رمضان، وعرسي بعده، وأنجبت طفلي بعد سنة من الزّواج وأسميته عبد الرّحمن.

كيف تزوّجت في الحصار؟ كيف أنجبت طفلاً في الحصار؟ لا أدري، أحياناً أقول لنفسي إنّي كنت بلا عقل، مجنونة، لا أدري، لا أفهم الكثير من القرارات والأفعال التي كنت أقوم بها تحت الحصار والقصف.

كانت إحدى مهامي في آخر سنوات الحصار حماية طفلي من الموت. يسقط أحد البراميل المتفجّرة بالقرب منّا، فأرمي بجسدي فوق ابني.. ينفجر البرميل، أبقى مستلقية فوق ابني حتى يهدأ صوت الانفجار وطرطقة الشّظايا. حين ينام طفلي، أنام ملتصقة به، بحيث أغلق أذنه القريبة منّي بصدري، وأذنه الثّانية بيدي، كي لا يتأثّر بصوت البراميل. يسقط البرميل وينفجر، أبقى على وضعيّتي حتى ينتهي الانفجار وتبعاته، ثمّ أكمل نومي.[lxxxvi]

---

lxxxv أهالي المعضّمية يندّدون بممارسات إعلام النظام، وقوّاته تقتل طفلة، عنب بلدي.

lxxxvi فيديو يوثّق سقوط البراميل المتفجّرة على داريا، المجلس المحلّي لمدينة داريا، آب ٢٠١٦.



رسم تجريدي لحالة سميّة وهي تحاول حماية طفلها أثناء القصف.

مع كلّ هذا الأسى، والخوف، وخيبات الأمل، أحسست نفسي في تلك الفترة إنسانة فاعلة، كنت راضية عن نفسي، فأنا زوجة وأمّ وأخت، ومعلّمة للأطفال، أخفّف من همومهم وأفرح كلمّا رأيت الضّحكات على وجوههم. كنت أحسّ أنّني أعيش وأصمد لهدف نيل، الانتصار والوصول إلى سوريا المستقبل التي كنّا نحلم بها. شعرت أنّي في أرض مباركة، الكثيرون والكثيرات اتّصلوا بنا لتهنئتنا على صمودنا وللتّعبير عن اشتياقهم واشتياقهنّ لرائحة البلد، علماً أنّ ثمن بقائنا في داريّا وشمّ رائحتها كان كبيراً جداً، وله ضريبة انعكست على كلّ تفصيل في حياتنا اليوميّة وعلى أجسادنا ونفسيّاتنا.

كنت في تلك الأوقات سميّة التي بإمكانها أن تزور قبر أخيها، أن تشمّ ترابه...|صمت|



«في فترة حصار داريّا، كنا نعلّم الأطفال في قبو الجامع قبل ما نعمل مدرسة سمّيناها أمل الأمّة» شاركتها معنا سميّة خلال العمل البحثي.



«باحة مدرسة أمل الأمّة وهي عبارة عن قبو كان لتخزين المفروشات» شاركتها معنا سميّة خلال العمل البحثي.

في الأسابيع السّابقة للتّهجير اشتدّ القصف علينا، أسلحة جديدة مرعبة، هناك سلاح سمّيناه الخرطوم أو الخراطيم المتفجّرة، إنّه فعلاً الخرطوم الذي يتمّ وصله بالصّهريج، حشوها بموادّ متفجّرة ورموها علينا. كانت تسبّب ضرراً بالغاً عند نزولها بسبب طول الخراطيم...

«يخرب بيتهم ما بعرف من وين جابوا هالفكرة» [ضحك]. [lxxxvii]

وهناك صاروخ أسميناه «صاروخ أبو شخرة» يصدر صوتاً مثل «الشّخرة» أو الشّهقة قبل أن يخرج من مكانه. كان من أكثر الأسلحة رعباً بالنّسبة لي، فحجم الدّمار الذي يسبّبه هائل، ومدى الخطأ فيه كبير. والأفظع أنّ هذا الصّاروخ بعد أن يصبح في السّماء يحوّل مساره إلى الأسفل بزاوية خمس وأربعين درجة تقريباً، فيسقط على الأقبية، لذلك كان بالنّسبة لنا جميعاً، نحن الذين نحتمي بالأقبية، من أشدّ الأسلحة فتكاً. وبماذا أحدثّك عن براميل «النّابالم»، إنّها الرّعب الحقيقي.[lxxxviii] حين يسقط يصدر صوتاً خفيفاً مثل «بووه» أو « هووو» وقد يكون قد سقط بالقرب منك ولا تدرين بذلك، وكلّ جزء منه يسبّب اشتعالاً وحرائق كبيرة. وصلنا إلى مرحلة فضّلنا فيها البراميل المتفجّرة على براميل

---

lxxxvii « الخراطيم المتفجرة... أحدث ابتكارات القتل عند النظام السوري »، العربي الجديد.حزيران، ٢٠١٦.

lxxxviii براميل «النابالم» الحارق تشعل الأحياء السكنية في داريا!، راديو روزانا. آب ٢٠١٦.

النّابالـم، أي عـندمـا يسـقط البرميـل المتفجّـر نقـول «الحمـد للـه مـو نابالـم». [lxxxix]

كنّـا نقـضي معظـم أوقاتـا في الأقبيـة، لكـن بعـد أن اشـتدّ القصـف بشـكل غـير مسـبوق، صرنـا نصعـد إلى بيوتنـا عـلى مبدأ

«ميّتين بكلّ الأحـوال، لأ يقشّـونا مـن عـلى وجـه الأرض، أحسـن مـا يحفـروا بين الـرّكام ويـدوّرا عـلى جثثـا».

التّكتيـك الوحيـد الـذي كنّـا نقـوم بـه عنـد سـماع صـوت صـاروخ أو برميـل، هـو التحـرّك مـن الغـرف المتطرّفـة في المـنزل إلى منتصفـه، اتّقـاء للشّـظايا. أحيانـاً كنّـا نـنزل إلى الأقبيـة ليـلاً حيث يشـتّد القصـف، وأحيانـاً نـنزل إليهـا في النّهـار ونبقـى ليـلاً في منازلنـا. لا أدري مـا الـذي كنّـا نفعلـه، وكأنّنـا سـلّمنا مصائرنـا لقضـاء اللـه، أو أنّنـا أُصبنـا بخيبـة أمـل كبـيرة. فبعـد كلّ ذلـك الحصـار والتّعـب، اشـتدّ القصـف علينـا وأحـرق النّظـام معظـم المحاصيـل الـتي زرعهـا أهـالي داريّا للحصـول عـلى بعـض الطّعـام، وتقـدّم عسـكريّاً مسـترجعاً المناطـق واحـدة تلـو الأخـرى. في الأيّـام الأخـيرة مـن الحصـار، لـم يـبق بيننـا وبين قـوّات النّظـام إلّا شـارعان، صـار زوجي يدعـو اللـه أن نمـوت جميعـاً قبـل وصـول قـوّات النّظـام، فقـد رأينـا مـا فعلـوه بأهـالي داريّـا في مجـزرة شـهر آب/ أغسـطس مـن عـام ٢٠١٢، أمّـا الآن فالحقـد أكـبر بعـد صمودنـا لسـنوات طويلـة.

هل تتخيّلين ما الذي سيفعلونه بنا إن وصلوا إلينا؟

اتّفقـت جـارتي مـع زوجهـا، في حـال دخـول قـوّات النّظـام، بـأن يطلـق النّـار عليهـا ثـمّ يقتـل نفسـه.

سـاعات قليلـة تلـك الـتي لـم تقصفنـا قـوّات النظـام خلالهـا يوميـاً، مـن آذان الفجـر حـتى التّاسـعة صباحـاً، لا تخـرج الطّيّـارات في هـذه السّـاعات، اسـتغلّينا تلـك السّـاعات في تعليـم الأطفـال في المدرسـة الـتي تـمّ بناؤهـا تحـت الأرض، وكانـت والـدتي مديرتهـا، وأخي الكبـير مسـؤولها اللّوجسـتي. [xc]

---

lxxxix فـديو من المجلس المحلّي في داريا يوثّق فـه قصف داريا ببراميل النابالم، آب ٢٠١٦.

xc فـديو تظهر فـه بـحـة وتوجه رسالة للمجتمع الدولي لفك الحصار عن داريا، المجلس المحلي في داريّا، نيسان ٢٠١٦.

أذكر، قبل الاتفاقيّة التي تهجّرنا بسببها، أنّني وأمّي كنّا نخطّط لإقامة حفلة للأطفال لتخفيف أجواء الموت والخوف التي كانوا يعيشونها يوميّاً، قمنا بتحضير بعض الألعاب في مكان قريب واتّفقنا أن يتمّ كلّ شيء قبل التّاسعة صباحاً، موعد بدء القصف اليوميّ.



«نشاط ترفيهي نوعاً ما في المدرسة لأن التلفزيون والكهرباء كانا حلماً للأطفال بفترة الحصار» شاركتها معنا سميّة خلال العمل البحثي.

فجأة دخل أخي علينا وقال: «وقّفوا، ياالله بتعملوا هالألعاب بالكسوة» [xci]

قلت له: "خير شو في؟ ليش هيك عم تحكي؟»

قال أخي « اجتمع المجلس المحلّي اليوم بالجامع، واتّفقوا على إخلاء داريّا»

كانت صدمة كبيرة، لم أفهم ما قاله أخي، ما معنى اتّفاق على إخلاء المدينة؟ أدري أنّ الجيش الحرّ لم يعد أمامه خيار إلّا الإخلاء أمام تقدّم قوّات النظام الكبير، لكن هكذا؟ في ليلة وضحاها؟

لا أدري ما كانت تفاصيل الاتّفاق بالضّبط، لكنّ أخي قال لنا إنّ المجلس المحلّي طلب

---

xci مدينة الكسوة هي مدينة وناحية سوريّة إداريّة تتبع منطقة مركز ريف دمشق في محافظة ريف دمشق. تقع في الغوطة الغربية ويطلق عليها أهل سورية «أم الغوطة الغربية». ويكيبيديا.

في البدايـة بقـاء المدنيّين والمدنّيـات في داريّـا وخـروج مـن يحمـل السّـلاح، إلّا أنّ امـرأة اسـمها كنانـة مـن جهـة النّظـام قالـت لهـم: «إمّـا خـروج الجميـع، أو إبـادة جماعيّـة، منعتـبر كلّ الموجوديـن إرهابيّـين ومـا متنطلّـع عـلى عمـر أو جنـس» [صمـت]. [xcii]

وافـق المجلـس المحّلي عـلى تهجير كلّ المسـلّحين إلى إدلـب، ونقـل المدنيّين والمدنيّات إلى مدينـة الكسـوة، أي إنّـه مـن غير المسـموح لأيّ امـرأة الذّهـاب مـع الرّجـال إلى إدلـب.

قضينـا تلـك اللّيلـة في وداع رجالنـا، كنّـا نظـنّ أنّ سـبب عـدم سـماح النّظـام للنّسـاء بالخـروج مـع الرجـال هـو بهـدف تفجـير الباصـات الـتي سـتقل رجالنـا، لذلـك ودّعناهـم وكأنّـه الـوداع الأخـير.

في صبـاح اليـوم التّـالي، جاءنـا أخي بأخبـار مختلفـة، طلـب أن نجهّـز أغراضنـا، إذ سـمحوا للنّسـاء والأطفـال بالذّهـاب مـع رجالهـم ممّـن حملـوا السّـلاح إلى إدلـب، أمّـا مـن يريـد أو تريـد تسـوية الوضـع أمنيّـاً مـع النّظـام، فيمكـن أن يذهبـوا ويذهـبن إلى الكسـوة في ريـف دمشـق. حصـل هـذا التّغيير قبـل التّهجـير بسـاعات قليلـة، واتّفقنـا أن أذهـب مـع أبي وزوجي في الدّفعـة الأولى مـن الباصـات، وأخي وبـاقي شـباب العائلـة في الدّفعـة الثّانيـة منهـا.

جاء سرب من الطّيور المهاجرة

قالـوا لنـا في يـوم التّهجير إننـا نسـتطيع أن نأخـذ معنـا حقيبـة واحـدة فقـط، لـم أدر مـن أيـن أبـدأ ومـاذا سـآخذ معـي. كان لـديّ الكثـير مـن الأغـراض، لقـد اشـترت لي أمّـي ثيابـاً كثـيرة عندمـا كنـت عروسـاً، إذ فُتـح طريـق المعضّميّـة عـام ٢٠١٤ واسـتطاعت الذّهـاب إلى السّـوق لـشراء بعـض الملابـس لي «جهـاز العـروس». قـرّرت ألّا آخـذ معـي شـيئاً مـن تلـك الثّيـاب وأن اسـتبدلها بثيـاب وأغـراض لابـني، فمـلأت حقيبـة كبـيرة لـه وأخـرى صغـيرة بأغـراض زوجي، نسـيت الكثـير مـن الأشـياء المهمّـة، «فلاشـة» عليهـا كل صورنـا، دفـتر العائلـة والكثـير مـن الأشـياء المهمّـة. أذكـر أنّ الشّـمس كانـت قويّـة في ذلـك اليـوم مـن شـهر آب/ أغسـطس عـام ٢٠١٦، يـوم السـادس والعشريـن، الشّـوارع حزينـة، كان لـديّ شـعور بأنّهـا تقـول «ويـن رايحـين وتاركيـني؟»

---

xcii كنانة حويجة من الإعلام إلى التفاوض على تهجير المعارضة، راديو روزنة، مايو ٢٠١٨.

ذهبت إلى قبر أخي لأودّعه هو وباقي الشّهداء، تركت قلبي هناك وتوجّهت مع العائلة إلى منطقة تجمّع الباصات التي كانت في آخر شارع الباسل. كان هناك الكثير من الناس، يودّعون بعضهم البعض، الكثير من الحقائب و«الشّوالات.» [xciii]

كان جزء منّي سعيداً، ابني سيخرج من هذا المكان، سيتعرّف على الحياة خارج الحصار والقصف، لكنّي في نفس الوقت كنت حزينة أنّي سأغادر داريّا، وأترك أخي في قبره وحيداً. كان لديّ خوف كبير من ناحية أخرى على أخي الثّاني الذي سيذهب في الدّفعة الثّانية من الحافلات. كان لديّ هاجس أنّ النّظام سيقوم بتفجير هذه الدّفعة، كثيرة هي المشاعر التي راودتني في تلك اللّحظة.

بينما كنت جالسة بانتظار صعودنا إلى الحافلات، جاء سرب من الطّيور المهاجرة، نظرنا إليه جميعاً، أحسسنا أنّها رسالة سماويّة تقول إنّ كل مخلوقات الأرض تهاجر، هذه حال الدنيا، وقد تكون الأيّام القادمة أفضل. تذكّرنا أيضاً هجرة الرّسول من المدينة المنوّرة وكيف عاد إليها منتصراً، وتأمّلنا أن نعود يوماً إلى داريّا بعزّة وكرامة.

صعدنا إلى الباص، كنت مع ابني وزوجي وأبي وأمّي، صعد ضابط ليأخذ أسماءنا، يداه ترتجفان ومعهما الورقة والقلم، كان خائفاً بشكل مبالغ فيه، وصل عندي وقال: «بسم الله السّلام عليكم» لم يعرف إن كان يجب أن يقول بسم الله أو السّلام عليكم، أحسست أنّه يتحدّث معنا وكأنّنا من جبهة النّصرة أو داعش [ضحك]. أخذ اسمي وأسماء الجميع، أرقام الأسلحة التي كان يحملها الشّباب، فقد كان مسموحاً أخذ الأسلحة الصّغيرة والمتوسّطة. تحرّك الباص خارجاً من شارع الباسل، فرحت حينها لأنّني سأتمكّن من إلقاء نظرة على مكان بيت أهلي. رأيته محروقاً بشكل كامل، وبيوت أعمامي مدمّرة تماماً.

اصطفّ الكثير من العساكر على جانبي الطّريق، وبعضهم صعدوا إلى سطوح المنازل وقاموا بحركات بذيئة لإغاظتنا، جميعنا أغلقنا السّتائر لتجاهلهم. وصلنا إلى مدخل داريّا، توقّف الباص وصعد أيضاً بعض العساكر للتّفتيش بشكل خاصّ على الأسلحة، كان هناك الكثير من الإعلام وقوّات تابعة للنّظام، وصعد أشخاص ليوزّعوا علينا خبزاً وجبنة «أبو الولد». [xciv]

---

xciii الشوال: كيس من خيش يعبّأ فيه الحبّ أو الدقيقُ ونحوُه.

xciv نوع من الجبنة معروف في سوريا، علبته دائرية والجبنة بداخلها على شكل مثلثات.



رسم تجريدي لمشهد التّهجير لأهالي داريا في الباصات.

خرجنا من داريّا في وقت الظّهيرة تقريباً ووصلنا إلى قلعة المضيق في السّاعة الثّانية فجراً. رافقتنا سيّارات الهلال الأحمر، سيّارات إسعاف لنقل ذوي الإصابات، مدرّعات، وفوقنا طيّارتا هليكوبتر رافقتانا طوال الطّريق. لم يتوقّف الباص إلّا مرّة، كان من الممكن أن يصل في ساعات أقلّ إلى قلعة المضيق إلّا أنّه جال بنا في مناطق سيطرة النّظام، طرطوس واللّاذقية، حيث خرج الكثير من النّاس للفرجة علينا. توقّف الباص مرّة واحدة حوالي العاشرة ليلاً، قالوا لنا إنّنا نستطيع النّزول إلى الحمامات. ظننت أنّنا توقّفنا عند استراحة وأنّه توجد فعلاً حمّامات، لم يكن هناك سوى أرض شاسعة فيها عساكر يتبوّلون وقوفاً، خفت من ذلك المنظر وعدْت إلى الباص. لكنّي أحسست بعد قليل أنّ مثانتي ستنفجر، أخذت إحدى الحفّاظات التي كانت لابني وتبوّلت فيها. أمّا الأطفال ومنهم ابني، فقد بكوا كثيراً طوال الطّريق، جاعوا وملّوا، لم يتوقّف الباص أبداً كي نتمشّى معهم قليلاً، لقد تعذّبوا وعذّبونا كثيراً حتّى وصلنا.

استقبلنا الأهالي والثّوّار عند قلعة المضيق استقبالاً مبهراً، وكأنّه عرس أو زفّة. بدأوا بتوزيع الأطعمة الخفيفة على الأطفال، كانت ردّة فعلهم محزنة جداً عندما رأوا الأطعمة «شو هاد عصير، بسكويت، فواكه، يااااه شوكولا». خلال الحصار لم يذق الأطفال شيئاً من هذه الأكلات أو المشاريب، فُقدت الكثير من المواد الغذائيّة، كانت العائلة التي تطبخ الرزّ تعدّ من الطّبقة الغنيّة.

صعدنا مرّة أخرى إلى الباص حتّى وصلنا إلى مخيّمات «أطمة» في الشّمال، دخلنا الحمّامات جميعاً بعد تلك الرحلة الطّويلة والشّاقّة. كان المخيّم المخصّص لنا عبارة عن أبنية وليس خيماً، وكان هذا الشّيء جديداً على ما يبدو، أي لم تكن هناك أبنية سابقاً في المخيمات، وكنّا أول من سكن في تلك الأبنية.

من إدلب إلى تركيا...رحلة المآسي

أحسست بالغربة في اللحظة التي غادرت فيها داريّا. كان الوضع في إدلب مختلفاً عن نظيره في داريّا. فالفصائل المسلّحة كانت في اقتتال دائم، أمّا في داريّا، فكنّا كلّنا روحاً واحدة. حدثت بعض الخلافات البسيطة بين الفصائل في داريّا، لكنّهم كانوا يداً واحدة على الجبهات. لم يكن لدينا تبعيّة للفصائل، نعيش مع بعضنا البعض، نأكل سويّة، نقيم الأعراس سويّة، نحزن سويّة. شعرت أنّ الفصائل في إدلب تتنازع بين بعضها البعض حول من سيكون المسؤول عن أهالي داريّا الذين تهجّروا، من سيضمّ أكبر عدد من الشّباب إلى فصيله، لم تكن تلك التّصرّفات تنتمي إلى الثّورة التي ناضلنا وفقدنا الكثير لأجلها.

من ناحية أخرى، كانت الأوضاع المعيشيّة في إدلب سيّئة جداً، فرص العمل غير متوفّرة، التّعليم يعاني من تدهور شديد، أحسست وكأنّنا انتقلنا إلى سوريا أخرى. كلّ تلك الأسباب دفعتنا أنا وزوجي إلى التّفكير بالذّهاب إلى تركيا عن طريق خطوط التّهريب... وهنا بدأت مأساة لم أتوقّعها.

اتفقّنا مع مهرّب معروف على تهريبنا أنا وزوجي وابني الذي كان عمره عشرة أشهر إلى تركيا، دفعنا له مبلغاً من المال، وقدره أربعمائة دولار للشّخص الواحد. لم نر ذلك المهرّب لاحقاً أبداً، فقد اتّفق مع صبيّ عمره خمس عشرة أو ست عشرة سنة يسمّونه «الدّلّال» وهو من قادنا طوال رحلة التّهريب التي كانت في الثّالث من شهر تشرين الأوّل/ أكتوبر عام ٢٠١٦. قال لنا إنّنا سنمشي لنصف ساعة فقط في حقول الزّيتون، وفعلاً مشينا هذه المدّة في الحقول، كنّا عشرة أشخاص وكنت أنا وامرأة أخرى لدينا أطفال رضّع. بعد أن انتهينا من حقول الزّيتون، بدأ المشي في غابات كبيرة، طرقاتها عبارة عن طلعات ومنحدرات قويّة، اضطررنا إلى «التسلّق» أحياناً، وإلى التّزحلق في أحيان أخرى. منعونا من استخدام الأضواء، فمشينا في الظّلام كما أمرونا أن نُسكت أطفالنا، كان يجب أن نمشي بسرعة، فإن تخلّفنا عن المجموعة تركونا وحدنا في ليل الغابات الدّامس. ماتت إحدى النّساء على الطّريق، كنت أعرفها سابقاً، غطّوا وجهها بشرشف وتابعوا المشي...

آلمتني يداي من حمل ابني طوال الطّريق، لم يستطع زوجي مساعدتي إذ كان يحمل امرأة متقدّمة في السّنّ كانت قد سقطت والتوى كاحل قدمها. وصلنا إلى جبل فيه طريق عرضه لا يتجاوز عرض القدمين، مشينا فيه حتى وصلنا إلى وادٍ مخيف، عبارة عن جرف عميق علينا أن نمشي بمحاذاته بحذر شديد وإلّا سقطنا في الهاوية. سقطت أغراض بعض النّاس في الجرف ولم يستطيعوا فعل شيء حيال ذلك. مشيت ذاك الطّريق وابني بين يديّ وكنت أدعو أن يثبّت الله أقدامنا، حيث إنّ زلّة القدم هناك تعني الموت المحتّم.

انتهى ذلك الطريق المرعب لنواجه تحدّياً من نوع آخر، طريق صاعد طويل علينا أن تجاوزه ركضاً كي لا تنتبه لنا الشّرطة التّركيّة «الجندرما». لم يتحمّل البعض منّا كل ذلك التّعب، رجل خمسينيّ تمدّد أرضاً وبدأ يصرخ من التّعب، رجوناه أن يقف وأن يصمت، لكنّه رفض وقال إنّه لا يمانع أن تعتقله الشّرطة التّركيّة فهو غير قادر على الحركة، جاءت ابنته فأسكتته وساعدته على الوقوف والمشي. زوجي الذي كان شابّاً في العشرينيات سقط على الأرض من التّعب بعد أن انتهينا من الصّعود والرّكض، ثمّ قام ليكمل المشوار.

انتهينا من مشقّات الصّعود لنواجه صعوبة مختلفة، التّزحلق |ضحك| في طريق شديد الانحدار، مليء بالأشجار، حين أتذكّر أضحك وأبكي. كنّا عشرة نتزحلق ونرتطم ببعضنا البعض. سمعنا رنّة موبايل من بعيد، فأمرَنا الدلّال أن نتوقّف عن التّزحلق، هل يمكنك أن تتخيّلي ماذا فعلنا لنتوقّف فجأة في طريق منحدر؟ أعطيت ابني لزوجي قبل أن نبدأ بالزّحلقة، كنت قد شرّبته دواء للنّوم، لكنّه استيقظ، وكأن الدّواء أعطى مفعولاً عكسياً، بدأ بالبكاء، كان عليّ أن آخذه من والده كي أرضعه ليسكت، لكنّ هناك شخصاً بيني وبين زوجي، أحسست نفسي في سباق سيّارات، توجّهت إلى اليمين، تجاوزت الشّخص حتّى وصلت عند زوجي. أخذت ابني، أخرجت أحد ثديي ليرضع منه وأكملت الزحلقة وبعدها ركضت بثدي متدلّ وابن يرضع.

وصلنا أخيراً إلى شارع مستو بعد مشي متواصل لمدّة ست ساعات، قطعنا ذلك الشّارع ليضعونا في مكان أعتقد أنّه زريبة للحيوانات أو إسطبل للأحصنة. قالوا لنا أن ننتظر قدوم سيّارة، وعند مجيئها علينا أن نركض ونجلس فيها خلال خمس ثوان وإلّا ستمشي

وتركنـا. جـاءت السّـيّارة فعـلاً، تسـابقنا إليهـا، كانـت مـن نـوع «دبـل كابين»، أي لهـا صنـدوق خلفي، لكن دون سـقف، ارتمينـا فـوق بعضنـا البعـض وأخفضنـا رؤوسـنا كي لا تكشـفنا الشّرطة التركيّـة، حتّى ذلـك الوقـت لـم نكـن في مأمـن، أي كان مـن الممكـن أن تعتقلنـا الشّرطـة التّركيّـة إذا رأتنـا.

أخذنـا المهـرّب إلى بيتـه وقـال لنـا إنّ الشّرطـة قـد علمـت بوجودنـا، وإنّ الرّجـل الـذي كان واقفـاً معـه هـو ضابـط تـركيّ، علينـا رشـوته بالمـال كي لا يخـبر السّـلطات عنّـا. صدّقنـا تلـك الكذبـة، وأعطـاه زوجي مائـة دولار مـن أصـل ثلاثمائـة دولار لـم يـبـق معنـا غيرهـا. أحـسّ المهـرّب أنّـه بقيـت معنـا بعـض النّقـود، فبـدأ بترهيبنـا بالاعتقـال أو العـودة إلى إدلـب. فهـم زوجي اللّعبـة، فطلـب الاتّصـال بقريـب لـه في تركيـا لتأمين مبلـغ مـن المـال مدّعيـاً أنّـه لـم يـبـق معنـا شيء، فصمـت المهـرّب وتركنـا لحالنـا.

لـو خـيّروني بين العـودة إلى داريّـا لعيـش الحصـار والقصـف، وبين إعـادة رحلـة التّهريـب إلى تركيـا لاخـترت الخيـار الأوّل!

لا راحة أو سكينة إلّا في تلك الأرض

بعـد أن خرجنـا مـن بيـت المهـرّب ذهبنـا مبـاشرة إلى إسـطنبول، لدينـا بعـض الأقـارب فيهـا لذلـك اخترنـا الذّهـاب إليهـا. سـكنت في البدايـة في منطقـة اسـمها «باشـاك شـهير» حيـث يقيـم معظـم معارفنـا. بحثـت مبـاشرة عـن فرصـة عمـل وجـاءني قبـول لعمـل في منطقـة غـير الـتي أسـكن فيهـا «أسـنيورت» فقرّرنـا الانتقـال إليهـا. بعدهـا انتقـل عمـلي ليصبـح في منطقـة اسـمها «بيرم باشـا»، فانتقلنـا إليهـا أيضـاً، لكـنّ صاحـب المـنزل قـرّر أن يبيعـه فاضطررنـا للخـروج منـه إلى البيـت الحـالي الـذي نعيـش فيـه منـذ عـشرة أشـهر.

في هـذا المـكان وفي عمـلي الحـالي كمعلّمـة للّغـة العربيّـة وللدّيانـة الإسـلاميّة، أحـسّ أنـني سـميّة الـتي تعمـل عـلى تطويـر ذاتهـا، أريـد تأسـيس نفـسي للمسـتقبل القريـب أو البعيـد،

للّحظة الّتي سأتكلّم فيها ويكون صوتي مسموعاً وكلمتي مؤثّرة، أريد أن أكون سمّيّة الّتي ستفيد مجتمعها وبلدها في المستقبل، هذا هدفي الّذي أسعى إليه رغم كلّ الصّعوبات والمواقف الّتي أتعرّض لها في هذا البلد.
لا أحسّ بالانتماء إلى المكان، أحسّ بالغربة كلّما خرجت من المنزل، في الشّوارع، في المواصلات، في المحلّات. يستطيعون تمييزي من الطّريقة الّتي أضع فيها حجابي، إن وضعته كما تفعل التّركيّات، لا ينتبهون لي، أمّا إن كان كما نضعه نحن السّوريّات، يدركون أنّي سوريّة، فتختلف النّظرات والمعاملة.

في إحدى المرّات كنت جالسة في القطار مع طفليّ، ومقابلي امرأة تركيّة بدأت تضحك لطفليّ وتتغزّل بجمالهما. لكن عندما تحدّثت معهما باللّغة العربيّة، تغيّرت ملامح وجهها وتوقفت عن ملاطفتهما، وبعد دقائق صعد إلى القطار رجل متقدّم في العمر، فبدأت المرأة بتوجيه الكلمات لي بأنّ عليّ وطفليّ النّهوض وترك المكان للرّجل كي يجلس. رفض الرّجل أن نعطيه المقعد وقال لها: إنهما طفلان ومن حقّهما الجلوس. استمرّت المرأة بالكلام وقالت لامرأة أخرى إنّنا نحن السّوريّات نعلّم أطفالنا على قلّة الأدب وعدم احترام الكبار، علماً أنّه كان هناك الكثير من النّساء التّركيّات مع أطفالهنّ في القطار، إلّا أنّ كلّ الكلام كان موجّهاً لي ولطفليّ.
وفي الباص خيّرني السّائق مرّة بين إسكات طفلي الّذي يبكي أو مغادرة الباص. كان ابني متعباً وأخذ يبكي، فشغّلت له بعض الفيديوهات على الموبايل باللّغة العربيّة، فاستاء السّائق وطردني.

في مرّة أخرى، في الفترة الأولى من وصولي إلى تركيا، ذهبت إلى أحد المصارف لأفتح حساباً وأضع فيه بعض المال، لم أكن قد تعلّمت اللّغة التّركيّة بعد. رفض الموظّف أن يتحدّث معي باللّغة الإنجليزيّة، وقام بطردي من البنك أمام ثلاثين أو أربعين من الزبائن. كم أحسست بالقهر، وكم استغربت من عدم محاولة أيّ من الموجودين أو الموجودات مساعدتي.

أحبّ هذا البلد لكنّني لا أستطيع أن أغضّ النّظر عن كمّ الكراهية والعنصريّة ضدّ السّوريّين والسّوريّات هنا. أحاول في هذا البلد أن أطوّر نفسي قدر الإمكان، ليس لي إلّا هذا الهدف، على أمل العودة إلى بلدي يوماً ما.

بيتنا في داريّا تسكنه عمّتي حاليّاً، لقد تمّ إحراقه بالكامل، وماتت معظم أشجاره. بيت عمتي قد تمّ تدميره كليّاً ولم يبق لها بيت تعيش فيه، فقال لها أبي أن تحاول تجديد البيت، إصلاحه أو دهنه، وأن تسكن فيه طالما نحن في الغربة. بيتنا هذا وبيوت أعمامي هي تركة من جدّي، ليس لدينا أوراق ملكيّة له لأنّ جدّي قد مات ولم يستطع أعمامي إتمام حصر الإرث بسبب تغيّب البعض وبسبب تعقيدات أخرى كثيرة. أبي لديه أملاك غير البيت، كلّها الآن في خطر أن نفقدها بشكل كامل والسّبب يعود إلى أنّ أبي مطلوب للنّظام السّوري.

حاول مرّة أن يذهب إلى القنصليّة السّوريّة لتسوية وضعه بعد أن أخبره عمّي أنّه لا يمكن أن يتصرّف بأملاكه إلّا إذا قام بتسوية وضع مع النّظام. أبي لا يقبل أبداً بهذه التّسوية لكنّ أوضاع أهلي الماديّة سيّئة، لم تستطع أمّي ولا إخوتي القدوم إلى تركيا بسبب التّكلفة العالية للرّحلة، فقط أبي استطاع المجيء بسبب وضعه الصّحّي وعمليّة القلب التي أجراها هنا. قالوا له في القنصليّة أنّ عليه الذّهاب إلى سوريا ليسوّي وضعه هناك، وأنّ القنصليّة لم تعد تقوم بمثل هذه التّسويات، أجابهم أبي بأنّ وضعه الصّحّي لا يسمح له بالذّهاب إلى سوريا وأنّه سيحاول في أقرب فرصة لكنّه بحاجة إلى تسوية وضع فرفضوا. بعدها علمنا أنّ أبي مطلوب للنظام، وأنّ عودته تعني اعتقاله بشكل مباشر، فتخلّى عن مطالبته بأيّ حقّ له في أملاكه في داريّا. [XCV]

أشتاق كثيراً إلى ذلك البيت، لقد وصفته لك لكن ما لا أستطيع وصفه هو المشاعر التي تربطني به، الذّكريات، لا أستطيع وصفها، أحتاج لشهور وربّما لسنوات لوصف كلّ الأحاسيس والذّكريات في ذلك البيت وفي فترة الثّورة والحصار في داريّا. لقد شجّعتني

XCV <u>من صفحة القنصلية السورية في اسطنبول على منصة الفيسبوك، إعلان وشرح عن معنى وخطوات تسوية الوضع للسوريين في تركيا.</u>

التّدريبات التي تلقّيتها معكنّ على كتابة ذكرياتي، سأبدأ بتدوينها في العطلة السّنويّة ولو وضعت فقط العناوين الرّئيسيّة. أخاف أن تنسيني تفاصيل الحياة اليوميّة والمشقّات التي نعيشها الآن تفاصيل فترة الحصار، أحسّ بمسؤوليّة ورغبة في كتابتها.
اشتقت لطرْق بوابة البيت طوال النّهار من قِبَل أهل الحارة وأطفالها ليسألوا عن أخي الصّغير. أحنّ إلى صوت زمّور درّاجته وهو عائد إلينا بالمأكولات اللّذيذة (بكاء).
عندما أعود إلى بيتي أريد أن أسمع تلك الطّرْقات وأن أسمع سؤال النّاس عن أخي الذي استشهد، أنتظر أن أسمع زمّور الدرّاجة. إن عدت سيكون الحال صعباً عليّ، لكنّ الأصعب ألّا أعود إلى داريّا.

إنّ جريمة التّهجير القسري قاسية وتمتدّ آثارها عبر الأجيال. أخاف أن أموت وأدفن في تركيا أو في أيّ بلد غير بلدي. جدّتي ماتت في سوريا ولم أرها، عمّي توفّي وتمّ دفنه في مقبرة اسمها مقبرة الأجانب بدل أن يُدفن في مقبرة الخولاني في داريّا. أطفالي لن يلعبوا في حدائق مدرسة الإباء ولن يتلقّوا التّعليم الذي كنت أتمنّاه لهم، يجلسون الآن طوال النّهار أمام التّلفاز بدل أن يلعبوا في حارات أهلهم في داريّا. أحاول كثيراً التّحدّث عن سوريا وعن داريّا، ووصف البيت لطفليّ، لكنّ هذا لا يكفي، أحسّ أنّ جزءاً من هويّتهما سيتمّ طمسه إن لم يذهبا ويشاهدا بعيونهما ما أقوله عنها لهما. والأسوأ من ذلك أنّي لا أضمن إن عادا أن يجدا المكان كما وصفته لهما، فهناك خطط ممنهجة لبناء مجمّعات سكنيّة تقوم بتنفيذها شركات إيرانيّة. هذا ليس بجديد، وقد بدأ في داريّا حتى قبل الثّورة وقبل أن أولد. تمّ بناء مقام سمّوه مقام سكينة بالقرب من جامع الخولاني، كان بيتاً مهجوراً حوّلوه إلى مقام، وزاره الكثير من الإيرانيّين والإيرانيّات من الطّائفة الشّيعيّة. أتذكّر أنّ أهل داريّا استقبلوهم بصدر رحب، وأنّ الكثير بدأوا بتعلّم اللّغة الفارسيّة للتّحدث معهم. إضافة إلى أنّ النّظام أعطى بطاقة أمنيّة خاصّة لكلّ من تشيّع (أي غيّر مذهبه الدّيني من السّنّي إلى الشّيعي) من العاملين على الخطّ الدّولي بين سوريا وإيران.

أخاف أن أذهب إلى داريّا فلا أجد حارة ولا مقبرة ولا بيتاً، أخاف أن أجد مكاناً لا أثر فيه لذكرياتي أو لطفولتي أو لأخي.

إن تحاورت مع داريّا أريد أن أقول لها: سامحينا على تركنا لك، حاولنا أن نبقى في أحضانك حتّى آخر رمق. سامحينا إن تسبّبنا بدمارك لكن كان علينا أن نقوم بما قمنا به على أمل أن نعمّر حجارتك بأيدينا... سأقول لمدرسة الإباء: سأعود إليك، انتظريني، سأعود ولو بقي يوم واحد في عمري.

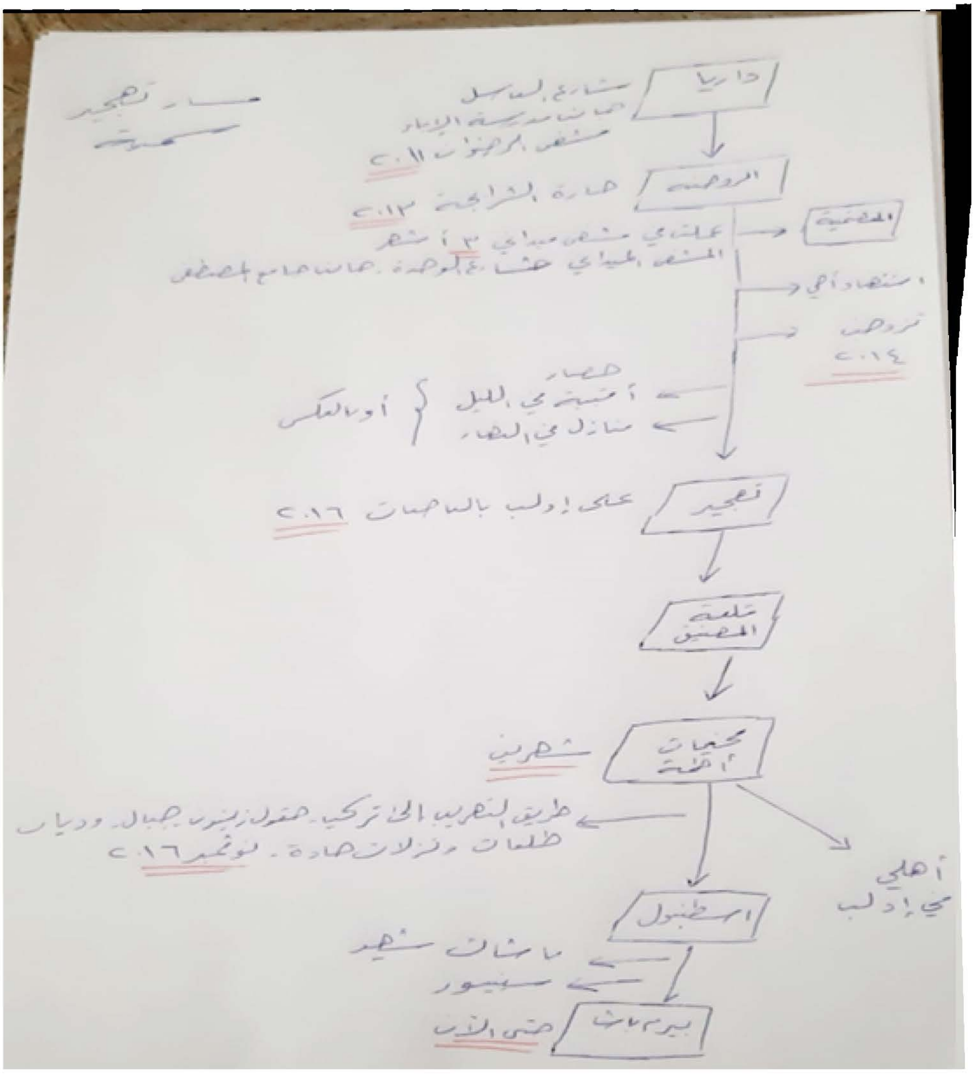
أمّا أنا، فهدفي الآن تطوير نفسي واكتساب أكبر قدر من الخبرات والمهارات التي ستجعلني يوماً أصل لجنيف مثلاً، للمساهمة في محاكمة النّظام السّوري على جرائم الحرب والجرائم ضدّ الإنسانيّة والمجازر الجماعيّة التي ارتكبها. أتمنّى حدوث معجزة يخرج فيها النّظام السّوري من سوريا ومعه كلّ القوّات الأجنبيّة، وتعود سوريا لأبنائها وبناتها لنعيد إعمارها من جديد.

أريد أن نعود إلى داريّا آمنين وآمنات، بكرامة وطوعيّة وبمحبّة، لا أريد أن أعود إلى هناك مجبرة ولا أريد أن يكون هدفي فقط تأمين لقمة العيش كما حال الكثير من النّاس ممّن بقوا في داريّا أو استطاعوا العودة إليها. أريد أن تعود القامات الفكريّة من النّساء والرّجال لتربية وقيادة جيل حرّ ومنفتح يستطيع أن يشارك في التّغيير المجتمعي والسّياسي لكلّ سوريا.



«مقبرة الشّهداء في داريا يلي تمّ تجريفها قبل مغادرة داريا خوفاً من نبش القبور من قبل قوّات النّظام» شاركتها معنا سميّة خلال العمل البحثي.

مسار تهجير سميّة خولاني حتّى تاريخ رواية قصّتها



مساحة لك

لكتابة انطباعاتك
أو قصتك

اسمي ...

تاريخ سرد القصّة:

"خسارة المكان لا تقل شأنا عن خسارة شخص عزيز، بل هي أكثر تعقيداً و أقلّ ملاحظةً وغالباً ما تحدث لنا ونحن نعيش خسارات أخرى. لطالما تمّ التعامل مع المكان على أنّه شيءٌ لا روح فيه ولا قيمة له، وأنّ النجاة بأرواحنا هي عزاءٌ لنا عن خسارة الحجارة... كما تقول أمي. ولكن خسارة المكان هي خسارة تستحق الحزن، فأماكننا امتدادٌ لأرواحنا و جزءٌ من هويتنا وحاضنة لذاكرتنا الجمعية. لا تحاكي السرديات في هذا الكتاب واقع السوريات والسوريين فقط، إنّما تعكس كل سياقات التهجير القسري في أيّ مكان وزمان. كفلسطينية الأب بقيَت هويتي الفلسطينية فكرة غير مكتملة حتى تمكّنتُ من زيارةَ قرية أهلي في فلسطين في العام الماضي.
كسورية الأم، فإنّ رجوعي إلى بيت الطفولة في مخيم اليرموك سيحقق جزء من عدالتي وعدالة البيت والمكان، وسأطالبُ بها ما حييت."

رنيم سلامة

"تترك الكثير من المفاهيم والمصطلحات التي نسمعها مِمن عاشوا فظائع الحروب ومظالمها آثراً فينا حتى وإن لم نعش التجربة مسبقاً أو كنا الأكثر حظاً في أن نكون ضحايا لعدد أقل من الانتهاكات، جعلني مصطلح " عدالة المكان" ومضمونه في هذا الكتاب أدرك مشاعر أعمق ووعي أكبر لجريمة التهجير القسري، ومدى قسوتها علينا ووحشيّة ولاإنسانية مرتكبيها.
مامعنى أن يمحوا تفاصيل مكاني، ذكرياتي، ناسي من حياتي، ويجبروني على الابتعاد عنها غصبا، أن يدمّروا وبشكل جمعي كلّ ما كنت أعتبره بديهيّا في الحياة...بيتي، شارعي، جيراني، طريقي.
إنّ القصص في هذا الكتاب لا تقف عند سرد حادثة أو توثيق انتهاك، بل هي تجربة فريدة ومساحة جديدة تسرد فيها كلّ امرأة جزءاً كبيراً من حياتها، كيف اثّر ومازال يؤثر تهجيرها وكل الانتهاكات الأخرى في حقّها على كل تفصيل في حياتها وحياة من حولها، إنّ هذا الكتاب مساحة لم تكن موجودة سابقا، تعود فيه الحياة للبيوت وتعود لنا، وتُرسم فيه تفاصيل ذاكرة لأماكن لم تعد موجودة."

ليلاس البنّي